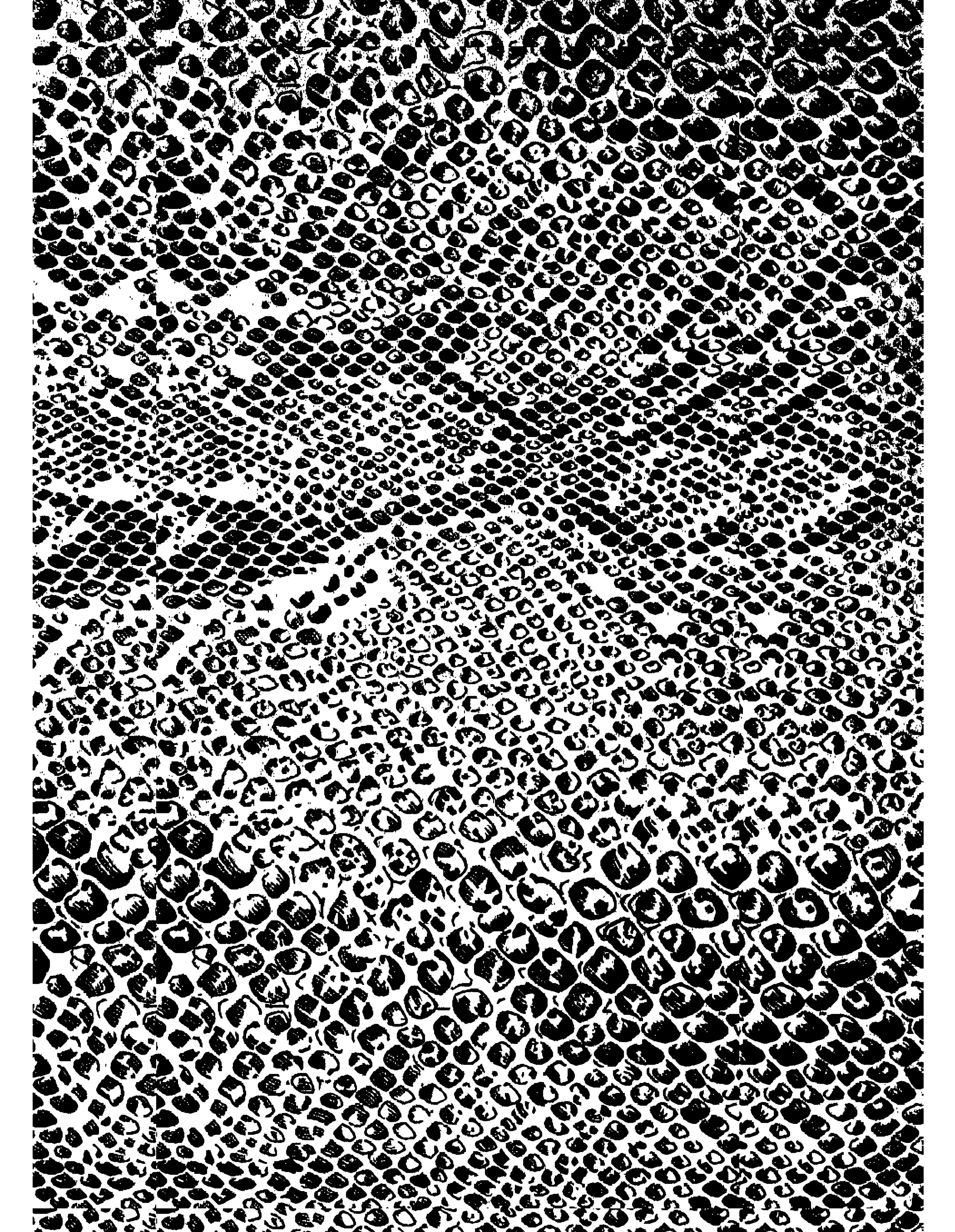
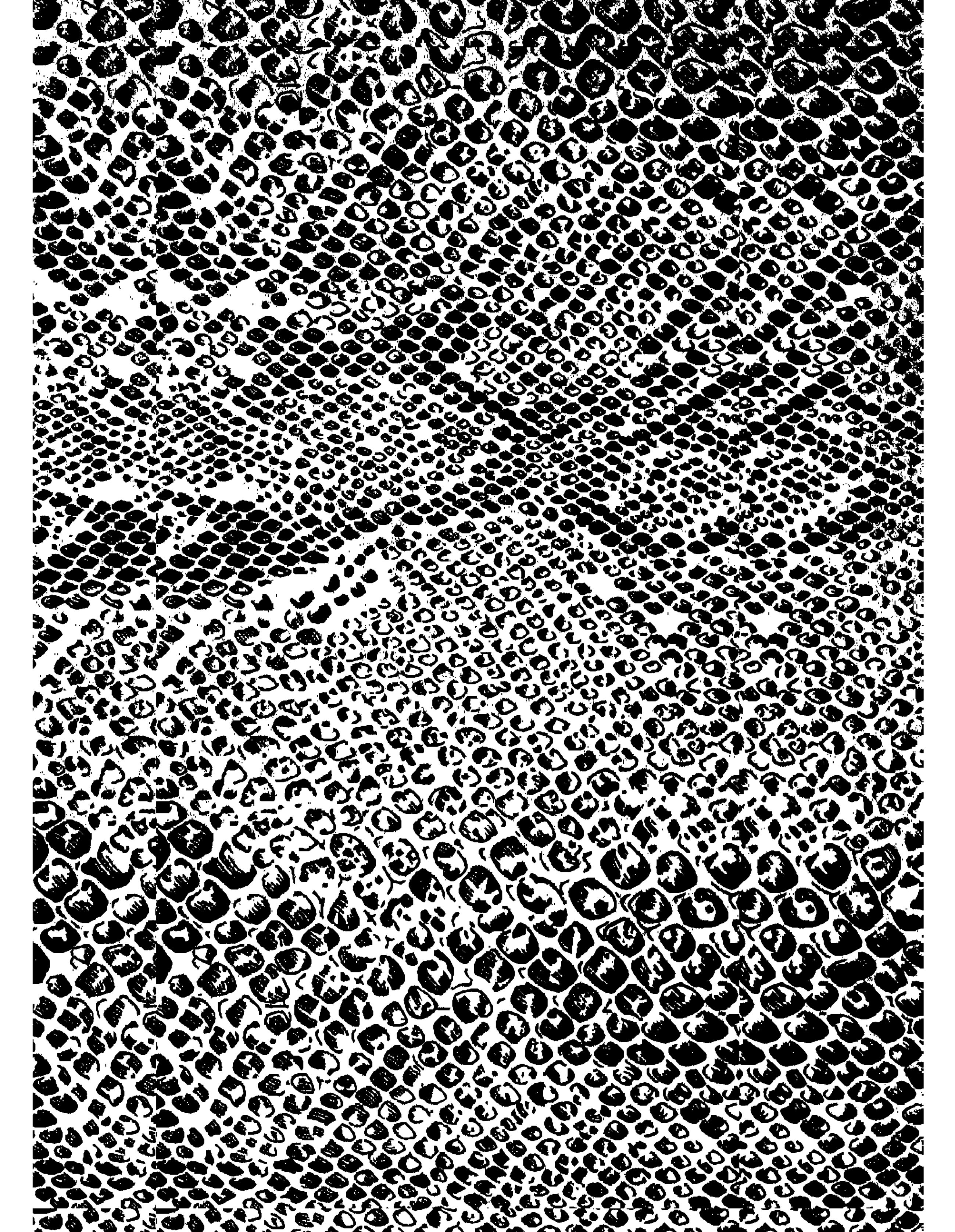
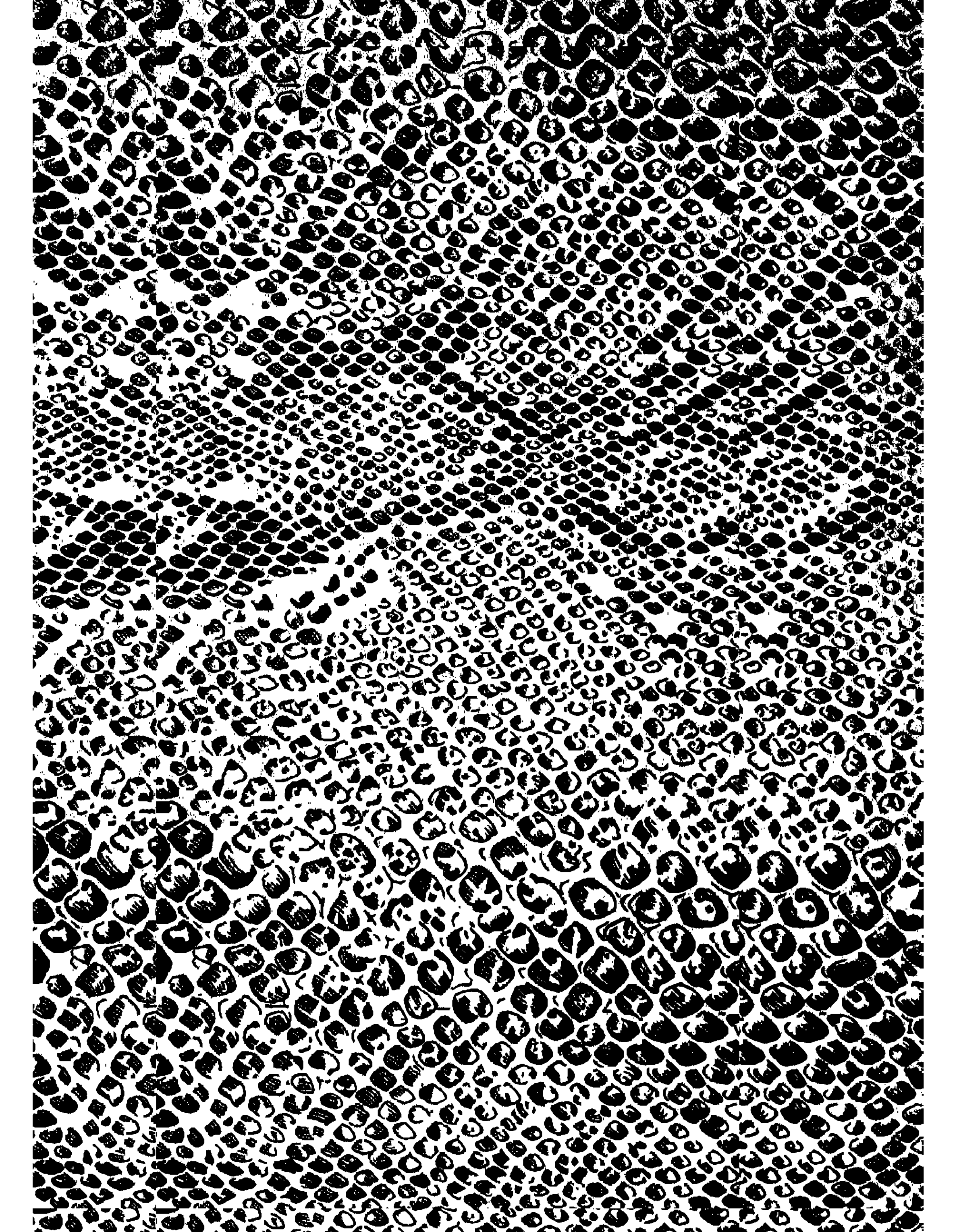
طه حسين









من بعيد

طه حسين

طه حسين

من بعيد



مقدمة

هذه فصول متفرقة لا يكاد يجمع بينها الا أنها كتبت من بعيد . كتبت من بعيد في المكان وكتبت من بعيد فى الزمان أيضا . فأكثرها كتب من باريس وبعضها كتب من أقصى الغرب الفرنسي . وبعضها كتب من فينا وقليل جدا منها كتب فى القاهرة .

وأقدم هذه الفصول عهدا كتب سنة ١٩٢٣ ، وأحدثها عهدا كتب سنة ١٩٣٠ فهى كما ترى جاءت من بعيد فى المكان والزمان جميعا .

وقد يظهر للنظرة الأولى أن بعد المكان لا يؤثر فى كتابة الكاتب ولكنك اذا قرأت هذه الفصول وما يشبهها فستتبين فى غير شك أن النأى عن الدار والتنقل فى أقطار الغربة يثيران فى نفس الكاتب من العواطف والخواطر ما لا تثيره الاقامة والاستقرار ومما يهيئان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحس ، وللتفكير والتعبير ، لا تستقيم له حين يكون مقيما مستقرا فى داره بين أهله ومواطنيه يرى فى كل يوم مثل ما كان يراه من قبل لا تكاد تختلف الظروف التى تحيط به الا اختلافا يسيرا بطيئا ، لا يكاد يحس .

فليس من شك اذن فى أن لبعد المكان أثرا فى اعداد الكاتب للكتابة ، أثرا فنيا خاصا ، غير هذا الأثر الظاهر الذى يراه الناس حين يقرءون ما يكتبه المسافر عما يرى ويشهد من الأقطار .

ومن أجل هذا جمعت هذه الفصول التى كتبت من بعيد فى سفر واحد ، وقد يظهر للنظرة الأولى أيضا أن بعد الزمان بفصل من الفصول ، أو كتاب من الكتب لا أثر له فى ذلك الفصل أو هذا الكتاب ، ولكن قليلا من التفكير أيضا يدل على أن من الخير أن نعود بين حين وحين ، الى ما كنا نكتبه فى الأعوام التى مضت ، وبعد بها العهد لنرى كيف كنا نكتب ، وكيف كنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا نرى الناس والأشياء . لنتبين فى جملة موجزة مقدار ما أدركنا من تطور الحس والشعور والتفكير والتعبير أيضا . ولست أخفى عليك أنى قد قرأت هذه الفصول التى كتبت كلها أثناء ثمانية أعوام ومضى بينى وبين آخرها أكثر من خمسة أعوام فى شىء من الحنان الى تلك العهود التى كنا نشكو فيها المشقة والجهد ونضيق فيها بالحياة والأحياء ، ثم أصبحنا الآن نود لو تعود الينا أو لو نعود اليها لا ليعود الينا معها الشباب بل لتعود الينا معها حياة هى من غير شك خير من الحياة التى نحياها الآن .

كنا فى تلك العهود أحرارا نفكر ونقول ، كما نريد أن نفكر

ونقول ، كنا نلقى ألوانا من المقاومة فلا تزيدنا الا طموحا الى الحرية وامعانا فيها . وكنا ننظر الى الجهاد فى سبيل الرأى وحرية الرأى على أنه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر ، فأين نحن من هذا الآن ؟

كنا نشكو أحيانا ظلم الحكومات وجنوحها الى الاستبداد ونصرها للجمود ، ولكنا كنا نجد الشعب دائما مواتيا لنا يمنحنا نصره ، ووده ، وعطفه ، وتأييده . أما الآن فقد اشتد عنف السلطان وأسرف فى الشدة حتى اضطر الكتاب والخطباء الى أن يفكروا ويقدروا ، ويطيلوا التفكير والتقدير قبل أن يكتبوا أو يقولوا . وقد وجد الاستبداد الرسمى المتصل لنفسه أنصارا وأعوانا من طبقات الشعب لم يكن ليظفر بهم من قبل . فوجدت أحزاب مهما تكن ضئيلة قليلة الخطر فهى أحزاب منظمة تناصر الجور والاستبداد وتدعو الى التأخر والرجوع الى وراء . وليس فى هذا شىء من الغرابة فقد كثر الاضطراب فى نظمنا السياسية وطال عهد البلاد بحكومات لم تكن تقدر الحق ولا العدل ولا القانون ، ولم تكن تقصر فى التماس الأعوان ولا الأنصار ، بألوان الترغيب والترهيب . فليس الغريب أن توجد الأحزاب التي تكره النظر الى أمام وتحب النظر الى وراء ، وانما الغريب ألا توجد ، والغريب أيضا أن تكون من الضعف والضآلة وقلة الخطر بحيث هى الآن .

وكثير من الذين سيقع فى أيديهم هذا السفر قد قرءوه حين نشر فصولا مفرقة ولكن كثيرا جدا من الذين سيقع فى أيديهم هـذا السفر لم يقرءوه ، ولم يعرفوا من فصوله شيئا . لأنهم كانوا أطفالا يدرجون وصبية يختلفون الى المدارس الابتدائية حين نشرت كثرة هذه الفصول ، ثم هم الآن شباب يتمون درسهم الثانوى أو يأخذون فى درسهم الجامعي فمن حقهم أن يروا كيف كنا نجاهد الحياة حين كانوا هم يستقبلون الحياة باسمين . فالى هؤلاء القراء الناشئين أهدى هذه الفصول سعيدا راضيا ، لأنهم سيرون حين يقرءونها أنى كنت أتحدث الى الذين سبقوهم بنفس الآراء التى أتحدث بها اليهم الآن . وأنى كنت أدعو الذين سبقوهم الى نفس المثل العليا التى أدعوهم اليها الآن . ولست أدرى الى أى حـد أتيح لى التوفيق مع الذين سبقوهم ولكن أرجو أن يكون توفيقى معهم أعظم وأقوى وأبقى أثرا .

يونيو سنة ١٩٣٥

طه حسين

القسم الأول

من باريس

الطبعة الثانية نوفمبر ١٩٥٨

١
فى السفينة

تحية طيبة زكية اليك أيها القارىء الكريم من كاتب حرم التحدث اليك حينا . وكثيرا ما نازعته نفسه الى هذا التحدث فلم يجد اليه سبيلا .

مرضت أسبوعا ، وسافرت أسبوعا ، فلم أستطع أن أتحدث اليك . ولقد كنت الى ذلك مسوقا . ولم تكن تنقصنى الخواطر التى تصلح موضوعا للأحاديث ، فان المرض والسفر كليهما ممتلئان بهذه الخواطر التى تصلح موضوعا للنجوى بين الكاتب وقارئه ، ولكنى كنت عاجزا العجز كله عن أن أملى الخواطر أو أسطرها ، وأحسب أنى لا أزال عاجزا عن املاء هذه الخواطر أو تسطيرها ، لأن بعضها قد ذهب مع المرض والسفر ، فلست أذكر منه قليلا ولا كثيرا . ولأن بعضها الآخر قد بقى فى نفسى ، ولن يذهب ولن يجد النسيان اليه سبيلا ، ولكن ليس من سبيل الى املائه وتسطيره لأن الوفاء بحقه ليس بالشىء اليسير .

وكيف أستطيع مثلا أن أفى لهؤلاء الأصدقاء الكرام البررة

الذين عادوني فأحسنوا العيادة ، وودعوني فأحسنوا التوديع ، بما أنا مدين لهم به من شكر وثناء . كيف أفي لهم بذلك وهو أجل من أن يفي به كاتب ، وأدق من أن يصل اليه واصف . ولا تظن أني أغلو أو أسرف كما جرت بذلك عادة الكتاب اذا أرادوا شكرا أو ثناء . فأنا أبعد الناس عن الغلو ، وأشدهم بغضا للاسراف ، ويكفيني اذا أردت شيئا أن أسميه باسمه ، أو أدل عليه باللفظ الذي وضع له ، ولكني كنت أريد أن أحدثك عما بعثت في نفسي عيادة العائدين ، وتوديع المودعين ، من عواطف مختلفة ، وألوان من الشعور متباينة ، تختلف باختلاف العائدين والمودعين ، وما لهم في نفسي من منزلة ، وما لي في قلوبهم من مكانة ، ففي ذلك شيء من النفع ، وفيه بنوع خاص شيء من اللذة . ولكن محاولة ذلك شاقة ، لأن هناك عواطف قد لا تجد لها أسماء ، وضروبا من الشعور قد لا تجد لها عبارات تؤديها وتفي بما لها من حق . فليس الناس جميعا سواء في حبهم لك ، وعطفهم عليك . وليس الناس جميعا سواء فيما تضمر لهم من حب ، وما تدخر لهم من مودة . واذن فتأثرك بعيادتهم وتوديعهم يختلف باختلاف منزلتك في نفوسهم ومكانتهم من قلبك . ولكن هل تستطيع أن تصف ذلك حق الوصف ؟ أم هل تستطيع أن تجهر منه بالشيء الكثير ؟ أما أنا فأعتقد أن ذلك على نفعه ولذته محال ، لأن الحياة الاجتماعية

وما تواضع الناس عليه في صلاتهم وعلاقاتهم ، تحول بيننا وبين ذلك وتأباه كل الاباء . فلأكتف اذن بما كان ينبغي أن أكتفي به منذ بدأت هذه الكلمة ، وبما يكتفي الناس به من تسجيل الشكر والثناء للعائدين جميعا والمودعين جميعا ، دون أن أفرق بينهم في اللفظ ، وان اضطررت واضطر غيري من الناس الى التفرقة بينهم في نجوى النفس وحديث الضمير . ولنحتمل اذن ، راضين أو كارهين ، هذا الظلم البين الذي تضطرنا اليه حياة الاجتماع ، فليس هو أثقل ما تضطرنا اليه الحياة الاجتماعية من ضروب الظلم والتقصير . ولو أننا ذهبنا نحلل هذه الحياة وما فيها من ظلم وبغي ، ومن افراط وتفريط ، لما انتهينا الى حد ، ولما فرغنا من القول .

ومهما يكن من شيء فان هناك شعورا لذيذا لا يستطيع أن يتقيه انسان حساس . يحدث في نفسك أثناء المرض وأوقات السفر حين ترى من حولك ناسا يعطفون عليك ويرقون لك ، ويؤثرونك بالمودة واللطف . لذيذ جدا هذا الشعور الذي ينبعث في نفسك حينئذ ، فيشعرك بأنك لست وحيدا في الحياة ، وبأن هناك قلوبا قد تخفق مع قلبك ، ونفوسا قد تشاركك في الألم وتشاركك في اللذة . ولست أعرف شعورا يفوق هذا الشعور لذة وحسن موقع في النفس . والحق أن حظي من هذا الشعور عظيم ،

وأن اغتباطى به واستعذابى اياه قد رافقانى من القاهرة الى باريس فحمدت مرافقتهما ، وألست اليهما فى أوقات الوحشة .

نعم : فى أوقات الوحشة ! فأنت اذا سافرت الى مكان بعيد فعبرت البحر وقطعت الفجاج محس شيئا من الوحشة غير قليل ، مهما تكن لذة السفر ، ومهما يكن اغتباطك بما ستلقى اذا استقر بك المقام ، ومهما يكن رفاقك فى هذا السفر الطويل اللذيذ . ولقد كان يرافقنى فى هذا السفر أحب الناس الى ، وأعزهم على ، وأرأفهم بى وأشدهم مشاركة لى فى لذات الحياة وآلامها . كانت ترافقنى زوج برة كريمة ، وطفلان هما كل ما آمل فى الحياة . ومع هذا فقد وجدت شيئا من الوحشة تسليت عنه بهذا الشعور اللذيذ الذى كان يرافقنى ، بذكرى أولئك الأصدقاء العائدين والمودعين ، بألفاظهم الحلوة ، وعباراتهم التى كانت تمتلىء رفقا وودا وايثارا .

أعبرت البحر ؟ أأحسست فى السفينة ما أجد من ضروب الحس وما أشعر به من مختلف الشعور ؟ يتحدث الناس بأن الأمد بين مصر وأوربا قصير ، وبأن عبور البحر لذيذ ، وبأنه أمن لا خطر فيه ، أو لا يكاد يوجد فيه شىء من الخطر ، وبأن المسافر ليس عليه الا أن يركب السفينة ويستسلم لما فيها من راحة ولذة وتسلية ، حتى ينقضى السفر ، ولا سيما اذا كان مثلى لا يخشى الدوار ولا يتعرض لشره . بذلك يتحدث الناس ، ولعلهم محقون ، بل

لا أشك فى أنهم محقون . ولكنى أعترف بأنى لم أشعر بذلك ولم أحس هذا الأمن وهذه الدعة يوما من الأيام منذ ألفت عبور البحر ، وانما وجدت ويظهر أنى سأجد دائما الى جانب هذه اللذة التى يحسها من يعبر البحر شعورا خفيا جدا . لا أقول انه الخوف ولا أقول انه يشبه الخوف ، وانما أقول انه يظهر الانسان على قيمته الحقيقية ، وعلى مكانته الصحيحة من هذا الوجود . نعم ليس هذا الشعور خوفا ، وليس شيئا يشبه الخوف ، ولكنه شىء ينبىء الانسان بأنه ضئيل ، ضئيل جدا لا يكاد يذكر ، وبأن حياته شىء أوهن من نسج العنكبوت ، لا قدرة له على الثبات ولا على مقاومة الأحداث . واذا أحس الانسان أنه ضئيل الى هذا الحد ، وأن أسباب حياته واهية واهنة الى هذا الحد ، ملكه شىء من البؤس والاشفاق أحسب أن وصفه عسير .

اضطرب البحر ذات ليلة اضطرابا شديدا ، واصطخبت أمواجه وعصفت الريح ، فكنت لا تسمع الا هدير البحر ، وعصف الريح ، وصوتا لأخشاب السفينة يشبه الشكوى . وكان السفر نياما . فكنت لا تسمع صوت انسان . وكان هذا المزاج المؤتلف من هذه الأصوات الثلاثة التى ذكرتها لك وحده يملك عليك سمعك ونفسك ويضطرك الى أن تحلله وتفكر فيه ، والى أن تفكر فى نفسك وتقيسها الى هذا الروع الذى يكتنفك ، والهول الذى يحيط بك .

ولم يكن فى نفسى شىء من الخوف ولا من الاشفاق ، لأنى أعلم أن ذلك شىء مألوف ، وأنك تعبر البحر كما تقطع شارعا من الشوارع ، ومع ذلك فقد شعرت حقا فى هذه الليلة بأن الانسان ليس شيئا مذكورا ، كما أنه لم يكن شيئا مذكورا ، وكما أنه لن يكون شيئا مذكورا ما دامت الطبيعة على ما هى عليه من القوة والجلال .

فى مثل هذا الوقت يذكر المؤمن ربه ويلجأ اليه ، ويتقرب اليه بضروب العبادة وفنون التقوى . وفى هذا الوقت يؤمن الملحد ان كان ضعيفا ، ويزداد عتوا ان كان ممعنا فى الالحاد ، فيسخر من الحياة كما يسخر من الموت ، يهزأ بما اشتملت عليه هذه ، ويزدرى ما عسى أن يخفيه هذا . وأعترف بأنى فى هذا الوقت أحسست شيئا قد ينكره على المؤمنون والملحدون جميعا ، أحسست أن إيمان المؤمن والحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان فى تقدير نفسه واكبار منزلتها . فان هذا المؤمن الذى يعتقد أن خالق الكون ومدبره ، خالق هذا الكون العظيم الذى لا تشعر بعظمته وأنت مستقر فى دارك ، أو لاه بالتحدث الى رفاقك ، أو القراءة فى كتابك ، وانما تشعر بعظمته حين لا تسمع الا هدير البحر ، وعصف الريح ، وشكوى السفينة . وحين تشعر شعورا واضحا جدا بأن أسباب الحياة ضعيفة واهية ، وبأن أقل شىء يستطيع أن

يحطم هذه السفينة التى تقلك ، وأن يقطع كل ما بينك وبين النجاة من سبب فتصبح نسيا منسيا ، كأنك لم تكن قط ، وكأنك لم تعرف أحدا ، وكأن أحدا لم يعرفك . أقول ان المؤمن الذى يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة ، فيعنى به ويحوطه ويحفظه من الطوارىء ، ويعصمه من الأحداث ، ويرعاه فى كل لحظة ، بل فى كل جزء من أجزاء اللحظة ، متكبر يرى نفسه شيئا مذكورا يستحق هذه العناية المقدسة العظمى مع أن فى هذا الكون ما لا يقاس الانسان اليه عظمة وجلالا .

وهذا الملحد الذى يستشعر الالحاد ويتخذه مذهبا وعقيدة ، فيعاند وينازع ويدفع عن الحاده كما يدفع المؤمن عن ايمانه ، وينكر الله كما يثبته المؤمن ، ويعتقد أن العقل كل شىء ، وأن آثار العقل وحدها خليقة بالاجلال والاكبار ، وأن نجاة الانسان فى عبادة العلم والاذعان له ، لا فى اكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه . هذا الملحد الذى يمعن فى الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما ، وبأنه قد سخر لنفسه الطبيعة فذلل الماء والهواء والبخار واتخذ الطبيعة لنفسه عبدا يأمر فتطيع وينهى فتنتهى ، مغرور متكبر . لأن عقله وعلمه وقوته وذكاءه مهما تبلغ من العظمة والسلطان ، فلن تستطيع أن تعصمه من الأحداث ، ولا أن تجعله بمأمن من أقل هذه الأحداث خطرا وأحطها مكانة . بهذا شعرت

وفى هذا فكرت. وأعترف بأنى لم ألم المؤمن على ايمانه ، ولا الملحد على الحاده . وانما أحسست شيئا من الاشفاق على هذا وذاك . وتمنيت لو أتيح للانسان أن يكون مؤمنا وعالما دون أن يغلو فى التعصب للدين أو للعلم . تمنيت للانسان لو استطاع أن يجمع بين هاتين القوتين اللتين ليس له عنهما غنى ولا منصرف . فان قوة الدين تعصمه من اليأس والهلع وتفتح أمامه أبوابا من الأمل الذى ليس له حد ، وتمكنه أن يلقى الخطوب ويتجشم الأخطار راضيا مطمئنا راجيا مستبشرا . وقوة العلم تمكنه من الحياة . ولكن أيستطيع الانسان حقا أن يجمع فى نفسه بين هاتين القوتين ، وأن يطمئن الى كلتيهما اطمئنانا بريئا من التناقض والاضطراب ، يطمئن الى الدين دون أن ينكر العقل ويطمئن الى العقل دون أن يجحد الدين ؟

يتحدثون أن كثيرا من العلماء قد وفقوا الى هـذا ، وأن « باستور » على جلال خطره وبعد أثره فى العلم كان أشد الناس تدينا وأكثرهم ايمانا ، فمتى يكثر فى الناس أمثال « باستور » ؟

على أن هذا الشعور وما استتبع فى نفسى من تفكير أو هذيان لم يكن كل شىء أحسسته فى السفينة فقد كانت هناك أشـياء أخرى لا تخلو من نفع ، كان أكثر رفاقنا فى السفينة من الانجليز ، وكنت أجهل الانجليز ، وما زلت أجهلهم ، ولكنى كنت أتصورهم

قوما أميل الى الجد منهم الى الهزل ، وأميل الى القطوب منهم الى الابتهاج وأميل الى السكون والتؤدة منهم الى الحركة والنزق ، ولعلهم كذلك ، ولكنهم لم يكونوا كذلك فى السفينة ، فلم أر جماعة أميل الى الفرح وأشد تعلقا بأسبابه ولا أكثر امعانا فى الضحك وهذه اللذة البريئة من هذه الجماعات الانجليزية التى كانت تملأ السفينة والتى كانت تقضى يومها وجزءا من ليلها فى فرح ومرح ونشاط عظيم ، وحسبك أن غرفة المائدة لم يكن يملؤها أثناء الطعام الا قهقهة عالية جدا متصلة جدا لا تعرف الهدوء ولا الانقطاع ، تمتزج فيها أصوات الرجال والنساء امتزاجا لا يخلو من لذة ولا يعجز عن أن يحملك على الضحك وان كنت أشد الناس جدا وأكثرهم عبوسا .

شىء آخر وجدته فى السفينة فأذكرنى أول يوم قضيته فى فرنسا بل أول ساعة قضيتها فى باريس سنة ١٩١٤ ، هذا الشىء أو بعبارة أصح هذا الشخص هو حلاق السفينة ، اضطررت الى غرفة هذا الحلاق ، واضطررت طبعا أيضا الى أن أسمع لحديث هذا الحلاق ، وأحاديث الحلاقين مشهورة من قديم الزمان وفى جميع البيئات ، فى بغداد والقاهرة ، فى آسيا وأوروبا ، فى العصر القديم والعصر الحديث بالثقل والسخف ، وبأنها مصدر الملل والأذى ، ولكنى أؤكد لك أن حديث حلاق « الاسفنكس » لم يكن ثقيلا ولا سخيفا

ولا مملا ، بل أؤكد لك أن حديثه كان لذيذا ممتعا ، بل أوصيك بأن تتحدث الى حلاق « الاسفنكس » اذا ركبت « الاسفنكس » .

تحدث الى حلاق « الاسفنكس » فى سياسة فرنسا وفى سياسة فرنسا من جميع وجوهها : مع ألمانيا ومع انجلترا ، فى سوريا وفى الجزائر ، وقارن لى حلاق « الاسفنكس » بين المذهبين الانجليزى والفرنسى فى الاستعمار ، وألم لى حلاق «الاسفنكس» بطرف من سياسة الأحزاب البرلمانية فى بلده ، وكان حلاق « الاسفنكس » اشتراكيا من الوجهة النظرية ، ولكنه يائس من مذهبه الاشتراكى ، فهو كغيره من الناس فى الحياة العملية ، وأؤكد لك أنى وجدت لذة جديدة عظيمة فى الاستماع الى حلاق « الاسفنكس » وذكرت أول خادم فرنسية لقيتها فى مرسيليا سنة ١٩١٤ فتحدثت الى بما يشبه هذا الحديث ، وتمنيت لو كنا جميعا فى مصر كحلاق « الاسفنكس » ! وأحسب أنا سنقطع زمنا طويلا جدا قبل أن تصل كثرتنا المطلقة من التعليم والتهذيب الى حيث وصل حلاق « الاسفنكس » .

قرأت فى السفينة قصة تمثيلية صغيرة عنوانها « الملك » وضعها الكاتبان الفرنسيان « روبير دى فلير » و « كيافيه » فضحكت لها كثيرا وأعجبت بها كثيرا ، ودعوت بالحياة للحرية كثيرا ، وكنت أحب أن أحدثك عن هذه القصة ، ولكن أخلاقنا السياسية

والاجتماعية لا تسمح بذلك . ومع هذا فليس فى القصة شىء غريب وانما يصف الكاتبان زيارة ملك خيالى لمدينة باريس ، ويتخذان هذا الوصف سبيلا الى تناول النظم السياسية والاجتماعية كلها بأشد النقد شناعة وأكثره مرارة ، يذمان نظام الملكية ، ويذمان نظام الجمهورية ، ويسخران من الديمقراطية كما يسخران من الأرستقراطية ، وكما يسخران من الاشتراكية : القصة هجاء شنيع للجماعة الانسانية فى كل مكان وفى كل زمان ، وقد اختار الكاتبان باريس موضعا لهذه القصة لأن باريس تكاد تختصر العالم الانسانى على اختلاف أزمنته وأمكنته .

لا أستطيع أن أحدثك عن هذه القصة ولكنى أستطيع أن أوصيك بقراءتها . فستجد فيها نفعا وستجد فيها لذة . ثم وصلت الى باريس ، صباح أمس ، فاذا الناس جميعا يلهجون بشىء واحد ، تنطق به أفواههم ، وتكتب فيه صحفهم ، لا يلقى أحدهم الآخر الا سأله عنه وتحدث اليه فيه أسفا مرة أشد الأسف ، معجبا مرة أخرى أشد الاعجاب ، جامعا فى أكثر الأحيان بين ذلك الأسف وهذا الاعجاب ، وهو موت الممثلة الفرنسية « ساره برنار » ولكننى قد أطلت ، فسأحدثك عن « ساره برنار » فى غير هذا المقال .

باريس فى ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣

٢
سارة برنار

تركت القاهرة يوم الأربعاء ووصلت الى باريس يوم الثلاثاء ، فاذا الناس يتحدثون بموت « ساره برنار » أو لا يتحدثون الا بموت « ساره برنار » ، واذا كثير منهم لا يكتفى بالحزن الصامت ، أو الاعجاب المقتصد . بل يتحدث ويشرح ويفصل ، ويروى ما سمع وما رأى ، ويصف ما أحس وما شعر به حين شهد « ساره برنار » تلعب فى « ذات الكاميليا » أو فى « النسر » أو فى « المجد » أو فى غيرها من القصص ، وربما تحدث عما رأى وسمع من أبهة « ساره برنار » ومجدها وافتتان الناس بها وافتتانها هى بالناس ، وعما كانت تكسب من مال لا يحصى فتنفقه وتستدين ، ثم تكسب فتؤدى الدين ثم تستدين من جديد . وعما كان بينها وبين كبار الناس وزعمائهم فى العالمين من صلات قوية أو ضعيفة ، متينة أو رثة ، وعما قدم اليها الملوك من تجلة ، وأهدى اليها العظماء من تكرمة ، وعن جمالها الباهر ، وصوتها الساحر ، وأعاجيبها وألاعيبها وافتنانها فى كل شىء : فى الهزل والجد ، فى التمثيل

والتصوير والنقش والكتابة والعبث ، وعن هذا الضعف الشديد الذى كان يلازم جسمها فيجعل حياتها فى أكثر الأحيان معلقة بين اليأس والرجاء ، أقرب الى اليأس منها الى الرجاء ، وهذه القوة المدهشة التى كانت تلازم نفسها فى كل وقت من أوقاتها ، وفى كل طور من أطوار حياتها فتجشمها الأهوال وتكلفها الأعاجيب ، وتثب بها من أوربا الى أمريكا والى استراليا ثم الى مصر ، ثم الى فرنسا ، ثم الى السويد والنرويج وغيرها من بلاد الله . وتقف الناس منها موقف الحائرين الدهشين الذين يعجبون ويعجبون الى غير حد ، وهم لا يدرون بم يعجبون ؟ بالذكاء النادر ؟ بالجمال الباهر ؟ بالصوت الساحر ؟ بالقوة التى لا حد لها ؟ بالأمل الذى لا يخشى اليأس ولا يحسب له حسابا ؟ بالنفس التى ليس لها مثيل .. ؟ بهذا كله كان الناس يعجبون سواء منهم من أحبها ، وسواء منهم من أبغضها . كل بها معجب . وكل لها مكبر فى كل وقت وفى كل طور .

بهذا كله كان الناس يتحدثون يوم نعيت اليهم « ساره برنار » ومن قبل ذلك أنبأتهم الصحف بأن « ساره برنار » مشرفة على الموت فجزعوا وهلعوا وأسرعت جماعاتهم المختلفة الى بيت المريضة فازدحمت حوله وامتلأ بها الشارع ، وكان من هذه الجماعات من يتاح له الدخول الى بيت المريضة فيسأل ويستعلم ويكتب اسمه

ثم ينصرف ، وكان من هذه الجماعات من لا يتاح له هذا الحظ فيرابط فى الشارع يتنسم الأنباء ويتصيد الأخبار ، يرى الصحفى فيسأله ، ويلمح الطبيب فيستنبئه ، كذلك قضى جمهور ضخم من أهل باريس يوم احتضار « ساره برنار » ، فلما كان الموت لم يخل الشارع ولا البيت من هذا الجمهور ، وانما ازدادا به امتلاء وازدحاما ، وما هى الا أن جهزت الميتة بجهازها الأخير حتى أذن للناس فأقبلوا على البيت أفواجا ، وأخذوا يمرون أمام هذه الجثة الهامدة التى طالما بعثت فيهم الحياة يوما كاملا ثم تشييع الجنازة ، فتقول الصحف ان ٦٠٠ ألف من أهل باريس اشتركوا فيه ، وان ألفين من الشرطة اشتركوا فى حفظ النظام ، وان أرصفة الشوارع التى مرت بها الجثة كانت مكتظة بالناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وأسنانهم ، وان الزهر كان ينثر على التابوت من أولئك الذين ثقلت بهم سطوح الدور والحوانيت وامتلأت بهم نوافذها ، ولم يكن الشعب وحده المحتفل بتشييع هذه الممثلة وانما احتفلت به الجمهورية وبلدية باريس ، وتنافستا أيهما تقوم بنفقات الجنازة ولم تكن فرنسا وحدها المحتفلة بتشييع هذه الممثلة ، وانما اشتركت فيه أوروبا وأمريكا ومن الملوك والملكات من أرسل الى أسرة الممثلة يعزيها ويعطف عليها .

كان هذا كله فى الأسبوع الماضى ، وكنت فى باريس أسمع

الناس يتحدثون به . وأقرأ ما كانت الصحف وما لا تزال تكتب فيه فكنت أسأل نفسي الى أي حد يبلغ اعجاب الناس بالنبوغ واكبارهم للنابغين اذا كان هؤلاء الناس من الرقي العلمي والخلقي بحيث يفهمون النبوغ والنابغين .. وكنت أذكر مصر في هذا كله وكيف يستطيع مصري ألا يذكر مصر وأهل مصر كلما رأى أو سمع ما يبهره ويسحره . كنت أذكر مصر وأسأل نفسي : متى يتاح لمصر نابغة « كساره برنار » أو على أقل تقدير متى يبلغ أهل مصر من الرقي العلمي والخلقي ما يمكنهم من أن يقدروا نابغة « كساره برنارد » ؟ لم تبلغ في السياسة ، ولا في الدين ، ولا في العلم ، وانما نبغت في الفن ، وفي فن هو سيء الحظ جدا عند المصريين ، نبغت في التمثيل الذي يزدريه أكثر المصريين ، ويفهمه قليل من المصريين على غير وجهه ، ولا يفهمه حقا بين المصريين الا نفر يكادون يحصون .

لم أسمع « ساره برنار » ولم يتح لي على طول ما أقمت في باريس أن أحضرها في ملعب من ملاعب التمثيل ، فلست أستطيع أن أحدثك برأيي فيها ، ولست أستطيع أن أكون لي فيها رأيا ، ولكني أستطيع أن أحدثك برأي الناس فيها ، وبرأي الناس الذين لا يتهمون ولا تستطيع أنت ولا أنا أن نضع آراءهم وأحكامهم موضع الشك ، ولكن من « ساره برنار » ؟ لا يعرف أبوها ، وانما

يقولون انها ولدت سنة ١٨٤٤ فى باريس أو فى برلين ، ولا يتفق الذين يقولون انها ولدت فى باريس على موضع ميلادها ، بل ان « ساره برنار » نفسها ذكرت لهذا الميلاد موضعين مختلفين ، وتحدثت أن تذكرة ميلادها قد مزقت أو ضاعت ، ويقول الناس ان أباها كان هولانديا اسرائيليا تنصر ، ويقول آخرون ان أباها كان فرنسيا عظيما مشتغلا بالسياسة الدولية ، ويتفقون جميعا على أن أمها « جولى برنار » لم تكن تنتسب الى أسرة مستقرة وانما كانت من هؤلاء الناس الرحل الذين يتنقلون من مكان الى مكان لا يستقرون فى وطن ولا يطمئنون الى دار ، كانت أمها يهودية وكان أبوها مسيحيا أو يهوديا تنصر ، وكان اسمها الأول « روزين برنار » ويقال ان أباها النصرانى أو المتنصر ألح فى أن تكون تربيتها دينية فنشأت فى الدير وتأثرت بحياته تأثرا شديدا حتى أظهرت الرغبة فى أن تكون راهبة ولكنها اشتركت فى تمثيل قصة دينية مدرسية فأعجب بها أحد من رآها « الدوق دى مورنى » ونصح بأن تتخصص للتمثيل ، وشملها منذ ذلك الوقت بحمايته فذهبت الى الكونسرفتوار Conservatoire (مدرسة التمثيل) ونالت فيه اعجاب أساتذتها ولكن فوزها فى المسابقة لم يكن باهرا ولا متصلا ثم اتصلت بملاعب كثيرة مختلفة فلم تنل من الفوز ما كانت ترجو ، فيئست أو كادت تيأس من التمثيل ومن فرنسا .

وليس فى هذا شيء من العجب ، فأكثر النابغين عرفه سوء الحظ قبل أن يعرف المجـد ونباهة الذكر ، وربما كان من أهم الأسباب التى حالت بين الممثلة وبين الفوز الباهر نفس نبوغها ، فقد كانت لها طرائق مختلفة ومذاهب غريبة لم يألفها الجمهـور ولم يطمئن اليها ، فلم يكن غريبا ألا يشتد اعجابه وتهالكه عليها . على أن « ساره برنار » لم تكد تبلغ الثلاثين حتى كانت عضوا شريكا فى أكبر دار من دور التمثيل فى « بيت موليير » ، وكانت تلعب القصص المختلفة على تباين عصورها ومذاهبها ، وكانت تبلغ فى هذه القصص فوزا عظيما فى كثير من الأوقات حتى كتب اليها « فكتور هوجو » سنة ١٨٧٧ يقول : « لقد كنت عظيمة خلابة . لقد أثرت فى أنا المجاهد الشيخ . ولقد كان الجمهور فى وقت من الأوقات سعيدا يملؤه الحنان فيصفق ، أما أنا فكنت أبكى » .

ربما كان من الحق أن توازن بين « ساره برنار » وبين « السيبياد » الأثينى المشهور ، كلاهما كان فتنة المدينة التى نشأ فيها وكلاهما كان يحب اعجاب الناس به وتحدثهم عنه ، ويتكلف لذلك الأغاجيب ، ويفعل فى سبيله ما لا تبيحه العادة ولا تسمح به الأوضاع المألوفة . يقال ان « السيبياد » كان له كلب فتن الأثينيين فتحدثوا عنه دهرا ، فلما انتهى اعجابهم به كفوا عن الحديث فيه

فقطع « السيبياد » ذنب الكلب ليعود الأثينيون فيذكروه . وكانت أعاجيب « السيبياد » ونفقاته أكثر من أن تحصى ، وكان لا يتكلف هذه النفقات وتلك الأعاجيب الا ليفتن الناس ويحملهم على اطالة الاعجاب به والتفكير فيه ، كان سيء السيرة وكان له زوج برة شريفة جزعت لسوء سيرته فذهبت الى « الأركون » تطلب الطلاق وبلغ ذلك « السيبياد » فأسرع الى مجلس « الأركون » فلما رأى زوجه بين يديه انهال عليها لثما وتقبيلا وملاطفة وحملها بين ذراعيه وعاد بها الى بيته ، والأثينيون من حوله يصفقون له ويهتفون باسمه وامرأته بين ذراعيه قد رضيت عنه واطمأنت اليه ، كذلك كان « السيبياد » ، وكذلك كانت « ساره برنار » ، كانت فتنة باريس وكانت تحرص على أن تظل فتنة باريس ، فكانت تفعل كل شيء يجعلها حديثا لأهل باريس .

كانت تملأ غرفتها بالهياكل العظيمة وتنام بمنظر من الناس فى تابوت مبطن بالحرير الأبيض وتستأنس كثيرا من الحيوان الوحشى كانت تدهش الناس بأزيائها المختلفة الغريبة ، تتخذ زى الرجال حينا ، وبدعا من أزياء النساء حينا آخر ، كانت تدهش الناس بأحاديثها ومقالاتها وصورها ، وكانت على اختلاف متصل عنيف مع مدير « بيت موليير » حتى كان يسميها هذا المدير « الآنسة ثورة » [1] .

---

(١) أنظر مجلة « الألستراسيون » عدد ٣١ مارس سنة ١٩٢٣ .

فلما كانت سنة ١٨٨٠ ضاقت « ساره برنار » بالحياة فى باريس وأحست أن هذه المدينة لا تسعها ، بل ان فرنسا كلها لا تسعها فاستردت حريتها وخرجت من « بيت موليير » خروجا عنيفا وقفها أمام القضاء الذى قضى عليها بغرامة ، وسافرت الى لندره ثم الى السويد والنرويج ثم الى أمريكا ، وكان سفرها الى أمريكا فخما ضخما كثر حوله الضجيج والعجيج . وقال كثير من مؤرخيها ان كثيرا من الملكات لم تظفر بما ظفرت به هذه الممثلة من الفوز والاكبار فى هذه السياحة . ولم تقف أسفارها الى هذا الحد ، بل زارت أكثر أقطار الأرض المتحضرة ونالت فيها فوزا باهرا لم يكن مقصورا عليها بل كان يتناول فرنسا معها ، ولقد ذهبت فى بلاد المجر مرة فرفعت الأعلام الفرنسية فى كل مكان ذهبت اليه رغم الأوامر التى صدرت من فينا بحظر ذلك .

ولهذا فتن المثلون بهذه الممثلة التى كانت أحسن سفير تنشر الدعوة الفرنسية فى أقطار الأرض وأحسن تمثيل العقل الفرنسى والفن الفرنسى والأدب الفرنسى ، حتى قرنها كثير من الكتاب الى نابليون ، ولست أدرى الى أى حد تصح هذه المقارنة . ولكننى لا أشك فى أن « ساره برنار » خدمت فرنسا ورفعت ذكرها الى حد لم يبلغه كثير من قوادها الفاتحين .

أما نبوغها الفنى فلست أستطيع أن أحدثك عنه ، وانما أترك ذلك للناقد الفرنسى « جول ليمتر » الذى كان بها مفتونا والذى يحدثنا بأن مصدر نبوغها وافتتان الناس بها ثلاثة أشياء : صوتها الذى سماه فكتور هوجو ومن بعده الفرنسيون جميعا : « الصوت الذهبى » يقال انها كانت تتغنى فى تمثيلها بالنثر والشعر جميعا ، وكانت ماهرة فى تصوير صوتها صورا مختلفة ملائمة ملاءمة غريبة لموضوع الحديث الذى كانت تتناوله ، فكان صوتها مرة يشبه الغدير المنساب . وأخرى يتلوى ويتهدج ، ومرة يرتفع ، وأخرى ينخفض حتى كأن الجمهور معلقا بهذا الصوت الضئيل القوى الشفاف .

الثانى حركاتها فى الملعب ، فقد يحدثنا « جول ليمتر » بأنها أحدثت فى التمثيل مالم يحدثه أحد قبلها ، فكانت تلعب بجسمها كله أى أنها كانت تحقق ما تمثله ، فلم تكن تخيل الى الناس أنها تلثم أو أنها تعانق . وانما كانت تلثم وتعانق بالفعل ، وكانت تفعل ما هو أبلغ فى الدهشة من اللثم والمعانقة .

الثالث ذكاؤها ، فقد كانت أقدر الممثلين على فهم الفصول التى كانت تلعبها ، كانت تفهم هذه الفصول كما فهمها المؤلف ، وربما فهمتها خيرا مما فهمها المؤلف ، ومن هنا خلقت « ساره

برنار » كثيرا من القصص ، وكثيرا من المؤلفين ، ولن يستطيع « فرنسوا كوبيه » ولا « ادمون روستان » أن يستأثرا بما أدركا من فوز في ملاعب التمثيل انما « لساره برنار » الحظ الموفور من هذا الفوز .

وانظر الى هذا الوصف الذي نشرته « الألستراسيون » وكتبه « ادمون روستان » فهو وحده يعطيك منها صورة خليقة بها :

« تقف عربة أمام باب ، فتسرع بالنزول منها امرأة قد التفت في الفرو الكثير ، تشق الجماعات التي اجتمعت حين سمعت جرس عربتها تاركة لهذه الجماعات احدى بسماتها ثم تصعد في خفة سلما ملتوية ، وتغير على « لوج » مزدهر شديد الدفء ، فتلقى في ناحية حقيبتها ذات الشرائط التي تحتوى على كل شيء ، وفي ناحية أخرى قلنسوتها ، تزينها أجنحة العصافير ، واذا هي قد نحفت فجأة حين خرجت من فروها فما هي الا غمد من الحرير الأبيض ، ثم تقذف بنفسها على ملعب مظلم ، فلا تكاد تصل حتى تبعث الحياة في جماعة ممتقعة تتثاءب في الظلام ، تذهب ، تجيء ، تبعث الحمية في كل ما تمس ، تأخذ مجلسها في المخبأ ، تنظم المنظر ، تشير الى ما ينبغي من الحركات ونبرات الصوت ، تقف ، تطلب الاعادة ، تزأر غضبا ، تجلس ، تبسم ، تشرب الشاي ،

تمتسح جبينها ، توشك أن يغمى عليها ، تثب فجأة الى الطبقة الخامسة من الملعب وتظهر لصاحب الأزياء مضطربة ، وتبحث فى خزائن « الأقمشة » وتؤلف الأزياء ، تنظم ، ترتب ، تهبط الى « لوجها » لتعلم النساء اللاتى يظهرن فى الملعب كيف ينبغى أن يرجلن شعورهن ، ثم تعيد منسقة طاقات الزهر ، ثم تسمع مائة رسالة وترق لبعض الاستعطافات ، تفتح غالبا حقيبتها الرنانة التى تحوى من كل شىء ، تفاوض حلاقا انجليزيا ، تعود الى المسرح لتنظم اضاءة منظر من المناظر ، تسب أدوات الاضاءة ، تقف عامل الضوء على اساءته ، يمر بها أحد العمال فتذكر غلطة اقترفها أمس فتصفعه بسخطها ، تعود الى لوجها لتتعشى . تجلس الى المائدة مستقعة فى جلال مهيئة ما ستعمل ، تأكل فى ضحك غريب ، ليس لديها الوقت لتتم عشاءها ، تلبس ثيابها للتمثيل بينما يحدثها المدير من وراء ستار ألوانا من الأحاديث ، تمثل متهالكة ، تدبر ألف شىء بين الفصول ، ينتهى التمثيل فتبقى فى الملعب لتدبر أمرها الى الساعة الثالثة صباحا ، ولا تعتزم السفر الا حين ترى الناس جميعا من حولها ينامون وقوفا احتراما لها ، تصعد الى عربتها ، تتمطى فى فروها مفكرة فيما ستجد من لذة حين تستلقى فى السرير ، ثم تقهقه لأنها ذكرت أن هناك من ينتظرها فى البيت ليقرأ عليها قصة ذات خمسة فصول ، تعود الى البيت : تسمع القصة ، تفتن بها ،

تبكي ، تقبلها ، لا تستطيع النوم ، فتنتهز الفرصة لتدرس دورا من أدوار التمثيل .. » .

كذلك وصفها « ادمون روستان » ، أما أنا فلست أدرى أالعجب بالواصف أم بالموصوف ؟ ! ولكنى أعتقد أنى بهذه الترجمة السقيمة قد أعطيتك أحسن صورة لهذه الممثلة النابغة ، ولست أريد أن أختم أنا هذا المقال ، وانما أريد أن يختمه « جول ليمتر » بهذه الكلمة الحلوة التى كتبها يودع بها « ساره برنار » وقد اعتزمت أحد أسفارها الى أمريكا .

« نتمنى لك يا سيدتى سفرا سعيدا ، آسفين أشد الأسف لأنك ستفارقيننا زمنا طويلا ، ستظهرين نفسك هناك لقوم حظهم من الفن والأدب قليل ، يسيئون فهمك وينظرون اليك كما ينظرون الى عجل ذى قوائم خمس ، ويرون فيك الشخص الغريب الصاخب لا الفنانة الخلابة الى غير حد . قوم لن يقدروا نبوغك الا لأنهم دفعوا ثمنا باهظا ليستبيحوا اليك ، اجتهدى فى أن تحتفظى بظرفك وأن تعيديه الينا كاملا ، فانى آمل أن تعودى وان كانت أمريكا بعيدة الشقة ، وان كنت قد تحملت من الخطوب وتجشمت من الأخطار مالم تتحمل ولم تتجشم أبطال الأساطير ، اذن عودى الى « بيت موليير » واستريحى الى الاعجاب والحب اللذين يدخرهما لك هذا الشعب الباريسى طيب القلب الذى يعفو لك عن كل شىء

لأنه مدين لك بكثير من لذاته الكبرى ، ثم فى مساء لذيذ موتى فجأة على مسرح التمثيل فى صيحة هائلة من صيحات الجزع فان الشيخوخة أثقل من أن تحتمليها ، واذا كان لديك من الوقت ما يمكنك من التفكير قبل أن تنغمسى فى الليل الأبدى فاحمدى كما يفعل مسيو « رينان » العلة الأولى الخفية ، لعلك لم تكونى من أشد النساء فى هذا العصر حكمة واعتدالا ، ولكنك عشت أكثر مما عاشت جماعات ضخمة وكنت من أجمل مظاهر الظرف التى أطافت بالناس فأحسنت عزاءهم فى هذا العالم المتغير ، عالم الظواهر الطبيعية ..

باريس فى أول ابريل سنة ١٩٢٣

٣
بينيلوب

لم يطل ليـــلى ولكن لم أنم ونفى عنى الـكرى طيف ألم

ولكنه لم يكن طيف هند ولا عبده ، لم يكن طيف عربية ولا مصرية ولا أوربية ، وانما كان طيف امرأة بقى اسمها فى ذاكرة الانسانية ، وذهبت بشخصيتها الغير والأحداث ، ولعلها لم توجد قط ، ولعل التاريخ لم يعرف من أمرها قليلا ولا كثيرا ، ومع ذلك فقد قضيت الليل أفكر فيها بل أسمع الى حديثها ومناجاتها ، هادئة مرة ثائرة مرة أخرى ، يملؤها الحنان حينا ، وتملكها الوحشية حينا آخر ، قضيت الليل أفكر فيها وأسمع لأحاديثها ونجواها حين كانت تتحدث الى خدمها ،وحين كانت تتحدث الى عشاقها ، وحين كانت تتحدث الى مرضع زوجها ، وحين كانت تناجى الآلهة متلطفة آنا وسخنقة آنا آخر ، ثم حين كانت تناجى خيال زوجها الغائب وتتحدث الى زوجها وقد آب بعد غياب طويل . قضيت الليـــل أفكر فيها واستمع لحديثها ، وأعجب بقدرة الفن — لا أقول على احياء من مات وتجديد ما اندثر — بل على خلق مالم يوجد

والتخييل اليك أنه قد وجد وأثر فى الحياة آثارا أبقى من أن ينالها الفناء ، لم يكن هذا الطيف طيف عربية ولا مصرية ولا أوروبية ، وانما كان طيف يونانية ، كان طيف « بينيلوب » زوج « أوليس » (Ulysse بطل « الأودسا » .

سمعتها أمس فى دار من دور الموسيقى « فى الأوبرا كوميك » (Opéra - Comique تتغنى عشقها ولوعتها وحزنها لبعد من أحبت وجزعها لقرب من كرهت ، ففتنت بها ولم أفارق صوتها ولا عواطفها طوال الليل وجزءا غير قليل من النهار .

لست أدرى أقرأت « الأودسا » أم لم تقرأ ، وأنا أسمح لنفسى بهذا الشك لأنى أعلم علم يقين وتجربة أن الأدب اليونانى سىء الحظ فى مصر ، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة الى حيث لا نستطيع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة ، نجهل الأدب اليونانى — لا أقول جهلا تاما — بل أقول جهلا فاحشا مخزيا لا يليق بقوم يحبون الحياة أو يطمعون فيها ، نجهل هذا الأدب جهلا فاحشا بحيث نستطيع أن نحصى المصريين الذين يعلمون ما « الأودسا » وما « الالياذة » ومن « أوليس » ومن « بينيلوب » ، ومع ذلك فقد كانت « الأودسا » و « الالياذة » وما زالتا وستظلان دائما ينبوع الحياة للأدب والفن : للشعر والنثر والنحت والتصوير والتمثيل والموسيقى ، بليت القرون ولم تبل «الالياذة» و «الأودسا»

فليت الأمة اليونانية وفنيت الأمة الرومانية واختلفت العصور والظروف على أوربا فى العصر المتوسط وفى العصر الحديث ، وستفنى أمم وتختلف عصور وظروف ، وتظل آيات « الالياذة » و « الأودسا » جديدة خالدة محتفظة بقوتها وبهائها ورونقها على وجه الدهر وتعاقب الأحداث ، ولا نكاد نحن نفترض وجود « الالياذة » و « الأودسا » فاذا افترضنا وجودهما فلا نكاد نعلم بشىء مما فيهما .

الى هذا الحد وصلنا من الجهل بمصدر الحياة للأدب والفن ، ويظهر أنا اذا لم نستطع أن نمعن النظر فى هذا الجهل أكثر مما أمعنا فليس وراء هذا الحد مطمع لمن يحب الجهل ويرغب فيه ، أقول اذا لم نستطع أن نمعن فى هذا الجهل أكثر مما أمعنا فيظهر أنا لا نريد ولا نحاول أن نخلص منه قليلا أو كثيرا ، يظهر انا سنظل على ما نحن فيه من جهل الأدب اليونانى والفن اليونانى ، لأنا نرى كل شىء يتغير فى مصر ، ونرى الرقى تناول كل شىء الا التعليم ، فهو بحمد الله باق حيث كان ، لأن المشرفين عليه لا يفكرون فى تغييره ، ولعلهم غير قادرين على أن يفكروا فى تغييره ، سيظل تلاميذنا يخلطون بين أتينا وصقلية كما يخلطون بين الاسكندر وهانيبال .

ولكنى بعدت عن هذا الطيف الذى أرقت له آخر الليل بعد أن طربت له أول الليل .. قلت ان « الأودسا » و « الالياذة » كانتا

وستظلان ينبوعا للحياة الأدبية والفنية ، فقد ألهمتا شعراء اليونان على اختلاف فنونهم وأساليبهم ، وألهمتا الفنيين من اليونان بل ألهمتا فلاسفة اليونان وكذلك صدر عنهما شعراء الرومان ، وكذلك صدر عنهما وما يزال يصدر عنهما شعراء الأفرنج منذ القرن السابع عشر الى ما شاء الله . ولقد كانت القصة الموسيقية التى شهدتها أمس أثرا من آثار « الأودسا » اجتمع فيه جمال الشعر وجمال الموسيقى وجمال الغناء وجمال الفن الآلى فى التمثيل فكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع أصوات الآلات الموسيقية وألحانها واختلاف نغمها الذى كان يرق حتى لا يكاد يسمع وكان يغلظ حتى يكاد يصم السامعين ، وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع هذه الأصوات الانسانية العذبة الرخيمة تمازج نغم الموسيقى متغنية بهذا الشعر الجميل الرقيق الذى يمثل أرق العواطف الانسانية وأصدقها وأدناها من الوفاء والحب والاخلاص وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع هذا كله وتنظر الى مسرح التمثيل فترى هذه الجزيرة اليونانية القديمة كما وصفتها « الأودسا » فى جمالها القديم الرائع الذى يزيده بهجة وسحرا ما اتخذ الممثلون من أزياء وما اصطنعوا من آنية ومتاع . كنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين كنت تسمع ما تسمع وترى ما ترى . ولم يكن ينغص عليك هذه اللذة الا أنها كغيرها من جميع لذات

الحياة قصيرة محدودة المدى لن تتجاوز ساعة أو ساعتين ، ذلك فيما أعتقد أخص ما تمتاز به اللذة الحقيقية التي تملك عليك نفسك وعواطفك وتسحرك السحر كله .

تمتاز هذه اللذة بأنك تشعر — حين تشعر بها — بشيء من الحزن يصاحبها ، لأنها ستنقضي بعد حين طويل أو قصير ، وأنت تحب ألا تنقضي وأنت تود لو كانت خالدة ، أو لو انقضت بانقضائها الحيــاة .

اشترك في هــذه القصة الموسيقى الفرنسي « جبرئيل فوريه » Gabriel Fauré ، والشاعر الفرنسي « رينيه فوشــو » Renée Fauchois ، ومثلت منذ عشر سنين فأعجب بها الجمهــور ، وابتهج لها الناقدون ، ولكنهم لم يجرءوا على أن يحكموا لها أو عليها ، ذلك لأن فيها شيئا من الغرابة كثيرا . فهي لاتمثل الحياة في عصر نفهمه فهما يسيرا سهلا . وانما تمثل الحياة في عصر بعيد منا كل البعد ، بل لعل هذا العصر لم يعرفه التاريخ . واذن فليس من اليسير أن يصدق تمثيلها للحياة وليس من اليسير أن نحسها نحن كما نحس الحياة التي نحياها بحيث تتأثر لها نفوسنا ، وتهتاج لها عواطفنا ، فتبعث فينا ضروب الاحساس والشعور التي تبعثها فينا الحياة الواقعة .

تردد الناس في الحكم لهذه القصة أو عليها ، ولكن كانت

الحرب العظمى فهزت النفوس والعواطف ، وسهلت على الناس فهم هذا الشعر القصصى القديم الذى مثل ما أصاب الانسان من محن فأحسن تمثيله ، وصور ما اختلف على حياة الأفراد والجماعات من إحداث فأجاد التصوير . فلما استؤنف تمثيل هذه القصة لم يتردد أحد ، ولم يشك انسان ، وانما ظهر الاعجاب صريحا قويا لا يعدله اعجاب ، فأجمع الناقدون على أن هذه القصة آية من آيات الموسيقى الفرنسية ، وكان يكفى أن ترى الجمهور أمس لتعلم أن الناقدين لم يخطئوا ولم يسرفوا .

عزيز على أن أجهل الموسيقى ، وأن يضطرنى هذا الجهل الى ألا أتحدث اليك بجمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية . ولكنى اذا جهلت الموسيقى وعجزت عن الحديث فيها ، فانى أحسها وأشعر بها وأستطيع أن أعلم أنى سمعت شيئا طربت له ، أو سمعت شيئا نفرت منه ، وأشهد أنى لم أنفر أمس بل أنى لم أطرب أمس وانما سحرت سحرا ليس فوقه سحر .. أشهد أنى لم أكن أشك حين كنت أسمع هذه الموسيقى أنى فى جزيرة « ايتاك » وأنى بمحضر من أولئك الأبطال القدماء ، بل أشهد أنى حين كنت أسمع هذه الموسيقى لم أكن فى حاجة شديدة الى أن يصف لى واصف ما يمثله المنظر من هذه الجزيرة المشرفة على البحر التى يغمرها هواء رقيق ناعم شفاف ، والتى تزدان بكثبانها وتلالها الصغيرة تهبط

الى البحر متدرجة قليلا قليلا ، نعم لم أكن فى حاجة شديدة الى أن يوصف لي المنظر ، لأن الموسيقى كانت تغنيني عن هذا الوصف فكنت أحس فى الموسيقى القرب من البحر ، وكنت أسمع فى الموسيقى أمواج البحر تضطرب وتصطخب رقيقة حينا كأنها حديث العاشقين ، غليظة حينا آخر كأنها قصف الرعد ، وكنت أجد فى الموسيقى رقة الهواء ونعومته ، وكنت أسمع هـذه الموسيقى فلا أشك فى أن الجو كان صافيا رائقا أو أنه كان كدرا يهيىء للعاصفة ، كنت لا أشك فى شيء من هذا ، وكنت لا أشك فى شيء آخر هو أجل من هذا خطرا وأعظم شأنا ، كنت لا أشك فى أن هذه القطعة الموسيقية تمثـل ما يحدث فى نفسى الآن من اضطراب العواطف واصطخابها وما يقع بينها من تنازع ومشادة ، وكنت لا أشك فى أن هذه القطعة الأخرى تمثل الضعف الذى ليس بعده ضعف ، تمثل هذا الضعف الذى يسلبك كل قوة على المقاومة ويجعلك غير قادر الا على أن تفتح جفنيك لتسقط منهما قطرات الدمع متتابعة منهمرة ! وكنت لا أشك فى أن هذه القطعة الأخرى تمثل الغيظ والحنق ، هذا الغيظ الذى تنقبض له أعصابك ، فاذا جبينك مقطب ، واذا الدم يغلى فى رأسك ، واذا أنت قد أطبقت يديك ، واذا أنت تقاوم هذا الميل الشديد الذى يدفعك الى أن تثب وتهجم على فريستك ، لم أكن أشك فى شيء من هذا لأنى

كنت أحسه وأتنقل فيه من طور الى طور ، بل هناك ما هو خير من هذا ، هناك هذه القطع الموسيقية التى تبعث فى نفسك شيئا من الحنان والرحمة ومن الطمأنينة والدعة لا أستطيع أن أصفه ، ولا يستطيع انسان أن يصفه لأن وصفه لم يتح للجمل والألفاظ ، وانما أتيح للأنغام والألحان وحدها ، ولكنى عاجز كما قلت عن أن أصف جمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية .

أفتريد أن أصف جمالها من الوجهة الأدبية ؟ لقد كنت أحب ذلك وأرغب فيه ، ولكن أليس خيرا من هذا الوصف الذى لا يمكن الا أن يكون موجزا مختصرا أن ترجع الى هذا الجمال فى أصله ، وأن تستقيه من ينبوعه ، فتقرأ النشيد الرابع والعشرين من « الأودسا » تجد فى هذا النشيد قصر الملك « أوليس » قد غاب عنه صاحبه منذ عشر سنين لأنه ذهب الى « تروادة » وانتصر فيها ، فلما أراد العودة الى بلده عبث به وبأسطوله « بوزيدون » اله البحر فأضله الطريق ، وأخضعه لطائفة من المحن ، وبينما كان الملك وأصحابه يخضعون لعبث « بوزيدون » وغيره من الآلهة ، كانت الملكة « بينيلوب » تنتظر زوجها فى لوعة وحسرة ، وفى حب ووفاء ، وكانت طائفة من زعماء اليونان قد احتلت قصر الملك وأخذت تعبث بما فيه ومن فيه فتأكل شاء الملك وثيرته ، كما تقول القصة ، وتشرب خمره ، وتعبث برقيقه وتلح على الملكة فى أن

تختار من بينها رجلا يكون لها زوجا فيخلف « أوليس » على ملك « ايثاك » .

كانت هذه الطائفة تلح وكانت الملكة تقاوم ، فلما أعيتها المقاومة أخذت تراوغ فأعلنت الى هؤلاء الزعماء أنها ستختار من بينهم زوجا اذا فرغت من نسج كفن ، أخذت نفسها بنسجه لأبي زوجها ، وقبل الزعماء منها ذلك ، فأخذت تنسج الكفن يومها حتى اذا كان الليل نقضت ما أبرمت ثم تستأنف النسج اذا أصبحت ، والنقض اذا أمست ، والزعماء ينتظرون ويعبثون بالقصر وما فيه ومن فيه .

فاذا كان الفصل الأول من القصة ظهرت خادمات القصر يغزلن ويتحدثن فيما بينهن ، وحديثهن لذيذ ، فهن يتغنين ماهن فيه من ألم وحرمان ، وهن يتغزلن بجمال الزعماء ، وترغب كل واحدة منهن في واحد منهم ، وهن يرثين للملكة وينكرن عليها غلوها في الوفاء وانهن لفي ذلك اذ يقبل الزعماء يريدون أن يتحدثوا الى الملكة ، وتأبى الخادمات انباء الملكة بمكانهم ، لأنهن لا يستطعن أن يدخلن عليها الا اذا دعين، وبينما الزعماء في حوار مع الخادمات تقبل مرضع الملك فتمانعهم ، ويكون بينها وبينهم حوار ومسابة ، ثم تقبل الملكة فيشتد الخلاف بينها وبين الزعماء ، تهينهم وتنعى عليهم وهم يتملقونها ويتلطفون بها ، تمانعهم وتأبى عليهم ما يريدون وهم يلحون عليها في أن تسرع فتختار من بينهم زوجا ، ثم يقدم شيخ

رث فان يطلب الصدقة والمأوى ، فينبذه الزعماء وتؤويه الملكة ، وهذا الشيخ هو « أوليس » قد وصل الى جزيرته وأمرته الالهة « أتينا » أن يتنكر ويحتال فى طرد الغاصبين والانتقام منهم ، لا تعرفه الملكة ولكن المرضع تعرفه وتعاهده على أن تخفى أمره ، ينصرف الزعماء وينصرف الشيخ الى طعامه ، وتبقى الملكة وحدها فتنقض ما نسجت ، ولكن الزعماء كانوا قد رصدوا لها فاستكشفوا حيلتها فيغيظهم ذلك ويعلنون الى الملكة أن الغد لن ينقضى حتى تكون قد اختارت لها زوجا ، ثم ينصرفون وتخرج الملكة ومرضع الملك ، لتذهبا الى شاطىء البحر كما اعتادتا منذ سنين ترقبان سفينة ما لعلها تقبل وعلى ظهرها الملك ويتبعهما الشيخ . فاذا كان الفصل الثانى رأيت رعاة الملك يتحدثون فيما بينهم ، ويتمنى بعضهم لبعض ليلا سعيدا ، ويتغنون جمال الطبيعة وسحرها ، ثم تقبل الملكة ومن معها فيكون بينها وبين الشيخ حديث بديع يظهر فيه ما يضمر الزوجان من حب ووفاء ، ومن لهفة ولوعة ، ولكن الملك يخفى نفسه ، فاذا سئل عن أمره أخبر بغير الحق واتخذ هذا الاخبار وسيلة الى التغزل بزوجه من طرف خفى ، ولكن فى جمال ورقة وحسن مدخل ، ثم تجزع الملكة اشفاقا من غد فيقترح عليها الشيخ أن تعلن الى الزعماء أنها ستختار من بينهم من يستطيع أن يشد قوس « أوليس » ثم تنصرف الملكة ويتعرف الملك بعد ذلك الى

رعاته ويأمرهم أن يكونوا فى القصر غدا وأن يتخذوا السلاح ليعينوه على الانتقام ، فاذا كان الفصل الثالث رأيت الملك وحده يتغنى غضبه وسخطه وحرصه الشديد على الانتقام ، ثم يكون بينه وبين مرضعه ورعاته أحاديث قصيرة ثم يقبل الزعماء وقد تهيؤا للقصف واللهو ، فيسخرون من الشيخ ويريدون طرده ، ثم يبدو لهم فيتخذونه سخرية يسقونه ويضحكون منه ، ويظهر الشيخ أنه سكران ، وتقبل الملكة فتعلن اليهم أن من شد قوس « أوليس » ورمى عنها فهو زوجها ، فيعجزون جميعا ويتقدم الشيخ الفانى الى القوس فيشدها ويرمى عنها ولكن فى صدر أحد الزعماء . هنا يظهر الملك نفسه وينتقم لشرفه وثروته وملكه ، يعينه الرعاة على هذا ، ثم تنتهى القصة بمظهر الحب والغبطة بينه وبين الملكة من جهة ، وبينه وبين الشعب من جهة أخرى .

فأنت ترى أن ليس فى القصة شىء غريب وأنها من السذاجة والسهولة بحيث تلائم القرن التاسع أو العاشر قبل المسيح أيام أنشئت « الالياذة » و « الأودسا » ولكنى آضمن لك لذة عظيمة اذا قرأت هذه القصة . ولذة لا حد لها اذا قرأتها فى « الأودسا » فأما اذا شهدت القصة الموسيقية فى « الأوبرا كوميك » فلست

أدرى ماذا أضمن لك ، وانما أحدثك صادقا بأنى قضيت ليلة سعيدة كنت أحسبنى أثناءها فى عالم آخر ، ولم أتنبه الى أنى فى الأرض الا حين سمعت ابنتى تتغنى وتصيح ورأيت ابنى يعبث بما حوله وسمعت أمه تزجره وتنهاه .

باريس فى ٤ مايو سنة ١٩٢٣

٤

شك ويقين

قوم يشكون فيغلون فى الشك ، وقوم يوقنون فيسرفون فى اليقين ، وأولئك وهؤلاء معرضون للخطأ الشديد ، ومخاصمون للعلم الصحيح ، الشاكون مخطئون ومخاصمون للعالم لأنهم ينكرون أنفسهم وينكرون العالم ، والموقنون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون التطور الذى هو قوام الحياة ، ولكن أولئك وهؤلاء معذورون لأنهم لا يختارون الشك ولا يختارون اليقين ، وأحسب أنهم انما يشكون أو يوقنون لأن أمزجتهم قد ألفت بحيث تستتبع الشك أو اليقين ، بل أحسب أن لما نأكل وما نشرب و ما نحس ، بل وللهواء الذى نتنسمه ، والجو الذى نعيش فيه ، والكتاب الذى نقرؤه ، والخطبة التى نسمعها ، آثرا فيما يعرض لنا من شك أو يقين .

زعم بعض الكتاب أن أبا العلاء انما شك لأنه أسرف فى آكل العدس والزيت ، فساء هضمه ، وتبع ذلك سوء رأيه فى الحياة ، قد يكون هذا حقا ، وقد يكون هذا باطلا ، ولكنى لا أشك فى

أننا مدينون بأطوارنا العقلية لهذه المؤثرات الكثيرة المختلفة التى تكتنفنا سواء منها المادي والمعنوى .

حدثتك فى مقال مضى بهذه المحاورة التى شهدتها فى المؤتمر حول وجود سقراط والشك فيه ، ولقد قرأت اليوم شيئا أغرب وأدعى الى العجب من الشك فى سقراط .

قرأت أن هناك عالما فرنسيا من علماء الفلك المعروفين قد كتب فى هذه الأيام الأخيرة كتابا سماه « مملكة السموات » وفى هذا الكتاب الذى يقال انه ممتع جدا فصل يبحث فيه المؤلف عن حركة الأرض ، ويثبت فيه أن من المستحيل أن تثبت بطريقة علمية قاطعة أن الأرض تدور .. اذن فنحن لا ندرى من شأن الأرض شيئا ، أدائرة هى أم ساكنة ، وكل هذه الأدلة الكثيرة المختلفة التى جمعها العلماء منذ حوكم « جاليلة » (Galilée) الى الآن ليثبتوا بها أن الأرض تدور ، كل هذه الأدلة فاسدة أو غير منتجة ، بل يذهب الأستاذ « نورمان » (Nordmann) صاحب الكتاب المذكور ، الى أبعد من هذا جدا ، فيزعم أن دوران الأرض شيء ليس الى اثباته أو نفيه من سبيل ، واذن فقد قضى علينا ان صحت آراء الأستاذ « نورمان » أن نجهل أبدا شأن الأرض فلا نعلم أساكنة هى أم دائرة ، سنقول وأى شيء يصيبنا ان علمنا بأن الأرض دائرة أو ساكنة أو جهلنا دورانها وسكونها ؟ ربما لم يصبنا شيء ،

فسنأكل ونشرب وننام ونستمتع باللذات ونتجرع مرارة الآلام سواء أكانت الأرض ساكنة أم دائرة ، ولكن ماذا تقول فى أولئك العلماء الذين يبحثون عن العلم للعلم ، لا تعنيهم نتائجه العملية والذين يموت أحدهم غما اذا ظهـر خطؤه فى رأى من الآراء أو نظرية من النظريات .

كنت أقرأ فى أعداد « السياسة » الأخيرة محاضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد بخيت فى الرد على « نورمان » ، فرأيته يبذل كل ما يستطيع من قوة وجهد وينفق علمه الواسع العميق ليثبت أن الاسلام دين العلم ، بل ليثبت شيئا آخر غير هذا وهو أن القرآن الكريم لا يناقض بلفظه ولا بمعناه أصلا من أصول العلم الحديث ، بل هو فوق هذا يشتمل على أصول العلم الحديث ورأيت الأستاذ يستنبط من القرآن الكريم كروية الأرض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الفصول واختلاف الليـل والنهار فأعجبت بهذا الجهد العنيف الذى لا مصدر له الا البر والتقوى . ومن قبل ذلك قرأت أشياء كثيرة للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله حاول فيها مثل ما حاول الأستاذ الشيخ محمد بخيت . والناس فى مصر وفى الشرق يعجبون بمثل هذه المحاولة ، لأنها تظهرهم فى منزلة من الحضارة ليست أقل ولا أدنى من منزلة الأوربيين الذين اخترعوا العلم الحديث . وان كنت أنا لا أحب

هذه المحاولة ولا أتكلفها وربما كرهتها ونفرت منها ، لأنها تفسد النصوص وتحمل على الغلو فى التأويل . كنت اذن أقرأ محاضرة الأستاذ الشيخ بخيت وأعجب بها ، فلما قرأت ما قرأت اليوم تحدثت الى نفسى بما يأتى :

لو صح ما ذهب اليه الأستاذ « نورمان » وأقره العلماء وأصبح الاجماع منعقدا على أن الأرض لا تدور كما كان منعقدا على ذلك منذ قرون وحين أنزل القرآن الكريم ، فأين يذهب هذا الجهد العنيف الذى بذله الأستاذ الشيخ بخيت والأستاذ الشيخ محمد عبده ليثبتا أن القرآن يدل على أن الأرض تدور ؟ وهل يبذل الأستاذ الشيخ محمد بخيت وخلفاء الأستاذ الشيخ محمد عبده جهدا عنيفا ليثبتوا أن القرآن يدل على أن الأرض لا تدور ؟ واذن فكيف نستطيع أن نفهم دلالة القرآن على أن الأرض تدور وعلى أن الأرض لا تدور ؟

ليس هناك من شك فى أن المسلمين فى العصور الأولى كانوا يعتقدون أن الأرض لا تدور ، وأن القرآن يدل على أنها لا تدور ، لأن الاجماع كان منعقدا يومئذ على أنها لا تدور ، ثم جاء علماء أوربا وشياطينهم فزعموا أن الأرض تدور ، وكانت حرب بينهم وبين عامة الناس وزعماء الديانات ، ثم انعقد الاجماع على أن الأرض تدور ، وجاء قسيس من دعائم « الفاتيكان » الذى حكم على

« جاليلة » فجمع أدلة لا تحصى على أن الأرض تدور ، ثم جاء الأستاذ « نورمان » وشيطانه فزعما لنا أن الأرض قد لا تدور ، وربما جاء العلمـاء وشياطينهم فأقروا صاحبنا وشيطانه على أن الأرض لا تدور أو على أنه من المستحيل أن نجزم بأنها تدور أو بأنها لا تدور ، وإذن ! وإذن فما قيمة الشك وما قيمة اليقين وما قيمة العلم وما قيمة النص وما قيمة التأويل ؟ أليس من الخير ألا نغلو فى الشك ولا نغلو فى اليقين ؟ أليس من الخير أن نكتفى بالترجيح ؟ ثم أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغـير القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين وهـذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة المتناقضة التى تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضـة والتى تنشأ عما نأكل وما نشرب وما نرى وما نسمع وما نحس ؟ أليس من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية فى حصن مقدس منيع لا تصل إليه أبخرة العدس والفول والزيت والطعمية وغير ذلك مما نأكل لنهضمه مرة ولا نهضمه أخرى ، وينشأ عن سهولة الهضم وعسره حسن تفكيرنا أو سوؤه ، اللهم انى أعتقد أن الأرض قد تدور وقد لا تدور ، وأنها قد تكون كرة أو سطحا أو كمثرى ، وأن الزمان قد يوجد وقد لا يوجد ، وأن المكان قد يوجد وقد لا يوجد وأن « نيوتن » (Newton) قد يصيب وقد يخطىء ، وأن «انستين»

(Enstein) قد يحق وقد يبطل ، كل هذا ممكن ولكن هناك شيئا لا أحب أن يحتمل أوزار هذا الامكان وهذا التناقض وهذا التردد ، وهو القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية ، انا لنحسن الاحسان كله اذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه فماذا يرى العلماء ؟

باريس في ٢٧ ابريل سنة ١٩٢٣

٥

العلم والثروة

فى مصر أغنياء كثيرون ، ولكن معظمهم أشد بؤسا من الفقراء المعوزين ، لأنهم لا يفقهون الثروة ولا يقدرونها ، ولا يفهمون ما ينبغى أن توجد هذه الثروة من صلة بينهم وبين مواطنيهم وهم أغنياء ، وكل حظهم من ثروتهم أن يأكلوا كثيرا ، ويستمتعوا بلذات مادية لا تتجاوز الحس الى القلب ، أو الى العقل . ثروتهم مقصورة على أجسامهم ، فان وصلت الى نفوسهم فهى لا تمس منها الا موضع الضعف والغرور ، تمس الفخر والتيه ، تمس العجب والخيلاء ، لكنها لا تمس الذكاء ، ولا تمس عاطفة الرحمة بالبائس ، ولا تمس عاطفة الاعانة على الخير .

فى مصر أغنياء كثيرون ، ولكنهم أشد بؤسا من الفقراء المعوزين . لا ينتفعون بثروتهم أحياء ، ولا ينتفع الناس بثروتهم بعد موتهم . هم لا يملكون الثروة وانما يحملونها على ظهورهم ، لينقلوها من جيل الى جيل ، يحملون الثروة عن آبائهم لينقلوها الى أبنائهم . ليعبروا بها النهر ، وكثيرا ما تنوء بهم هذه الثروة

فتفرق ويغرقون معها ، ولا يظفر أبناؤهم منها الا بالتعس والبؤس وسوء الحال .

في مصر أغنياء كثيرون ، ولكنهم في الحق معوزون !

وفي أوروبا أغنياء ، ولكنهم أبعد الناس عن الفقر . وأدناهم الى الغنى حقا ، لأنهم يفهمون الثروة ، ويحسنون الانتفاع بها في حياتهم الخاصة ، وفي حياة أممهم ومدنهم وقراهم وأسرهم . هم يتمتعون بالثروة حقا ، يجنون منها لذة الجسم ، ولذة القلب ، ولذة العقل . بل يجنون منها اللذة الصحيحة في الحياة وتخليد الاسم بعد الموت . ينفعون وينتفعون ، ليسوا عالة على قومهم ، وليس قومهم عليهم عالة . انما هم يفهمون أن الثروة أداة من أدوات المنفعة العامة المشتركة التي ينبغي أن يستمتع بها الناس جميعا ، كل على القدر الذي يتاح له . هم يملكون الثروة ويحسنون التصرف فيها ، لا يشترون بها الطعام والشراب واللباس فحسب ، وانما يشترون بها أيضا الحب والعطف والاجلال وحسن الأحدوثة في الحياة وبعد الموت . ليسوا أنعاما ينقلون أثقال الثروة من جيل الى جيل ، وانما هم ناس يملكون الثروة ويستثمرونها فيفيدون ويستفيدون . ليسوا عبيدا للمادة ، وانما هم سادتها ، يملكونها ويسخرونها لحياة الانسان والترفيه عليه .

اقرأ في جريدة « الطان » أن رجلا اهدى الى جامعة باريس

عشرة ملايين ، لاقامة حى خاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون في هذه الجامعة ، بحيث يتاح لهؤلاء الطلبة أن يعيشوا فى منازل صحية يجدون فيها ما يمكنهم من الدرس النافع بين ضروب الراحة والنعيم . واقرأ فى جريدة « الطان » أن امرأة أوصت بثروتها كلها لجامعة باريس وثروتها تكاد تبلغ الخمسة عشر مليونا . واقرأ فى جريدة « الطان » أن هذه المرأة قبل أن تموت أهدت الى كثير من الجامعات مقادير مختلفة من المال وأنها أهدت مرة الى جامعة باريس مقدارا من المال تنفقه فى طبع الرسائل التى يقدمها الطلبة الفقراء لنيل الدكتوراه . وأهدت مرة أخرى الى جامعة باريس ما يمكنها من انشاء درس لأدب القرن الثامن عشر وتاريخه . وأن امرأة أخرى أهدت الى جامعة باريس ثروة تغل عليها (٣٥٫٠٠٠) فرنك فى السنة لترقية البحث عن « الراديوم » فى الطب . وأن رجلا ترك لها نصف مليون . وأن أستاذا فى مدرسة ثانوية ترك ثروته التى تبلغ (٧٦٫٤٠٨) فرنكات لاعانة طلبة التاريخ الحديث، وأن امرأة تركت مليونا لاعانة المؤرخين على بحثهم التاريخى . واقرأ فى الصحف المختلفة أن دور التمثيل والموسيقى ومنازل اللهو واللعب قد خصصت جزءا من دخلها فى يوم من الأيام لاعانة العلماء على تأسيس المعامل العلمية المختلفة . بل اقرأ ما هو أغرب من هذا . اقرأ تعاون الفقراء والمعوزين واقتنائهم فى جمع المقادير المختلفة من

المال لاعانة العلماء على تأسيس المعامل وتكميلها . واقرأ فى الوقت نفسه مقالات طويلة مرة ملؤها السخط والغضب والغيظ ، لأن العلماء يشكون فقر المعامل ونقصها ويستعينون الجمهور فلا يعينهم ولا يمنحهم من المال ما ينبغى أن يمنحهم . هذا الجود وهذا البذل اللذان أشرت اليهما فى أول هذه الكلمة لا يرضيان ولا يقنعان ومع ذلك ففقر العلم فى فرنسا اضافى جدا لأن الدولة والأفراد والجماعات يخصونه بعناية عظمى ، وآية ذلك ما وصلت اليه فرنسا من الرقى العلمى الذى لا يزال مطمح أمم كثيرة فى أوربا بعد .

كتبت فى غير هذا المقال منذ أشهر أن العلم مهما اشتد غناه وعظمت ثروته فهو فقير محتاج الى المعونة لأنه يحيى ، وحاجة من عاش لا تنقضى ، فسيظل العلماء يشكون وسيظل الناس يبذلون . هذا فى فرنسا ، أما فى مصر فالثروة كثيرة ضخمة تنوء بالأغنياء ، ولسنا نستطيع أن نذكر فقر العلم أو حاجته الى المعونة لأنا لا نستطيع أن نذكر العلم فى مصر ، فليس لمصر علم وانما هى فى علمها عالة على أوربا وأمريكا تستعير منها كل شىء ، وهى لا تحسن الاستعارة ولا تستطيع أن تستعير منهما ما هى فى حاجة اليه أو جزءا موفورا مما هى فى حاجة اليه ، لأنها لا تجد من المال ما يمكنها من أن تستعير هذا المقدار العلمى الذى هى محتاجة اليه لتعيش ، أما اذا احتاجت الى السيارات والدراجات والحلى

وفاخر اللباس وبديع الأداة والآنية ، فما أكثر المال وما أيسر البذل هنا تظهر ثروة الأغنياء ويظهر سخاؤهم فتكثر في مصر هذه الأدوات المختلفة التى يفيد قليلها ويضر كثيرها . نعم ، نحن أغنياء أجواد اذا احتجنا الى متاع الدنيا ، فأما اذا احتجنا الى غذاء العقل والقلب ففقرنا لا يعدله فقر . هناك علوم مزهرة فى أوروبا وأمريكا ونحن لا نسمع بها فى مصر ، اما لأننا لا نحاول أن نسمع بها ، واما لأننا نضع أصابعنا فى آذاننا حتى لا نسمع بها فنحتاج الى أن ننفق المال فى جلبها الى بلادنا . ولكنى واثق بأن لونا من ألوان البدع فى الحلى أو الملابس أو السيارات أو الأزرار لا يكاد يظهر فى باريس أو فى نيويورك حتى نسمع به ، ونرغب فيه ، ونتهالك عليه . والنتيجة لنا فى حياتنا الظاهرة كأرقى الشعوب مدنية وحضارة ، وربما كنا أفخر لباسا وزينة من أغنياء باريس ونيويورك ولندرا فاذا رآنا الأوربى خيل اليه أننا ناس مثله نلبس كما يلبس بل خيرا مما يلبس ، ونزدان كما يزدان بل خيرا مما يزدان ، ونتصرف فى فنون الحياة المادية كما يتصرف بل خيرا مما يتصرف . يحسبنا مثله اذا رآنا ولكنه لا يكاد يمتحننا ويخبرنا حتى يشعر بأن وراء هذه الزينة وهذه المظاهر الفناء أو شيئا يشبه الفناء ، وماذا تريد من قوم يجلبون من أوربا كل ما ييسر عليهم الحياة المادية ويمكنهم من الاستمتاع بلذاتها المادية ، فاذا ذكر العلم

والأدب والفن هزوا الرؤوس والأكتاف ، بل هم يفعلون شراً من هذا ، فالعلم فى بلادهم ولكنهم يعمون أو يتعامون عنه ، لا يرونه ولا يشعرون به ، ويحسه الأوربيون والأمريكيون على بعد الشقة فيسعون اليه ويحملونه الى بلادهم ، حتى اذا لبه منا لابه فأحس كما يحس الناس ، واشتاق الى ما يشتاق اليه الناس ، وأراد أن يكون مصريا يعرف مصر كما يعرف الفرنسى فرنسا ، اضطر الى أن يبحث عن مصر فى باريس أو لندرا أو برلين ، يا للخزى ! بل قد يحتاج الى أن يبحث عن مصر فى أثينا !!!

لقد قلنا هذه الأشياء وقلناها وسنقولها ونقولها ، فلم يحفل بنا أحد ولن يحفل بنا أحد ، اللهم الا جماعة الراغبين البائسين وهم قليلون ، فأما القادرون على أن ينفعوا ، فأما القادرون على أن يفيدوا بلادهم فهم عن النفع والفائدة فى شغل . وما أنت والعلم تحدثهم به وتثقل عليهم فيه وهم أرغب فى هذا المتاع الباطل الذى يبهر العين ويخلب النظر ويحمل فلانا على أن يقول : لقد رأيت سيارة فلان فأعجبتنى ولأشترين مثلها ، رأيت ثوب فلان فراقنى ولأصنعن مثله ، فأما أن يقول الناس : لقد رأينا عالما مصريا أو أديبا مصريا أو فنيا مصريا يروقنا أن يكون لدينا مثله ، فذلك شىء لا يخطر لأغنيائنا على بال ، ولقد أكتب هذه الكلمة وأنا أثق الثقة كلها بأن كثيرا من أغنيائنا سيقرءونها وينالون كاتبها بالسخط والنعى لأنه يحدثهم بما لا خير فيه .

لدينا جامعة أنشئت منذ خمس عشرة سنة ، ولولا لطف الله بها لماتت ، على أنها ليست بعيدة من الموت ، ولقد أظهر أغنياؤنا ميلا شديدا الى تأييد هذه الجامعة واعانتها ، لأن ذلك كان بدعا يومئذ وكان فيه فخر للباذلين ، فلما انقضى البدع هبطت الرغبة ، وفتر الميل ، وحبس الذين بذلوا المال أموالهم فلم يعطوا ولم يفوا بما وعدوا أن يعطوا . لاتذكر الحرب فان الحرب لم تسىء الى مصر ، ولم تنزل الفقر بأهلها ، ولقد أساءت الحرب الى فرنسا فزعزعت ثروتها وخربت جزءا عظيما منها ، بل زعزعت نظامها الاجتماعى فلم يردها ذلك الا حبا للعلم وتشجيعا للعلم واعانة للعلماء ، ولم يضع عليها من ذلك شىء فقد أتاح لها العلم أن تنتصر ، أما أغنياؤنا فقد ضاعف الله عليهم ثروتهم أضعافا مضاعفة ، فلم يزدهم ذلك الا ضنا وحبسا للمال عن وجوه الخير ، وتهالكا على اللذات المادية ، والحكومة والأفراد فى ذلك سواء فلست أنسى الوزارة النسيمية الأولى وما أنفقت من المال لاصلاح سيارات الحكومة فقد كان ذلك يكاد يبلغ نصف المليون من الجنيهات ، أما الجامعة فكانت الحكومة تعينها بألفى جنيه قبل أن تبلغ ميزانيتها عشرين مليونا ، فبلغت هذه الميزانية أربعين مليونا ولم تزد اعانة الجامعة وانما أنذرت الجامعة مرات بقطع هذه الاعانة ! وكانت وزارة الأوقاف تمنحها معونة قدرها خمسة آلاف جنيه أيام النظام

القديم فلما أقبل النظام الجديد نقصت هذه الاعانة حتى بلغت ١٨٠٠ جنيه . ولست أدرى أفتقرت وزارة الأوقاف ولعل افتقارها كافتقار الحكومة المصرية ؟ ثم نحن نطلب الاستقلال ، نزعم أن ليس بيننا وبين أهل أوربا فرق ، وأن من حقنا أن نستمتع بنظام الحياة الذى يستمتعون به ، وقد يكون هذا حقا ولكن يجب أن نعترف بأن أهل أوربا وأمريكا لم يصلوا الى حياتهم الراقية الحرة بالتهالك على السيارات والحلى وملابس الحرير وما يشبهها ، وانما وصلوا اليها بالتهالك على العلم والرغبة فيه ، يجب أن نحمد الله على أن الدستور قد صدر فلئن يئسنا من الحكومة ومن الأفراد فلن نيأس من الأمة ممثلة فى البرلمان ، ويقيننا أن هذا البرلمان لن يغفر فى المستقبل لوزارة المعارف مثل هذه الأغلاط المنكرة ، لن يغفر لوزارة المعارف ما وصلت اليه حال التعليم فى مصر من ضعف وفساد ، ولن يغفر لوزارة المعارف أن تظل مصر من الجهل والضعف بحيث توجد علوم لا تسمع بها مصر ولا يأخذ المصريون منها بنصيب .

باريس فى ١١ مايو سنة ١٩٢٣

القسم الثاني

أسبوع في بلجيكا

١

مؤتمر العلوم التاريخية

كنا ألفا أو نزيد على الألف ، كلنا يعنى بالتاريخ أو بعلم أو فن من هذه العلوم والفنون التي يحتاج إليها التاريخ ، وقد اجتمعنا من أطراف الأرض على اختلاف أوطاننا ، وأدياننا ، ولغاتنا ، ومناهجنا في الحياة ، لا يجمع بيننا الا شيء واحد ، هو أننا نشتغل بالتاريخ أو بفن يتصل بالتاريخ .

كنا ألفا أو نزيد على الألف ، وكنا مختلفين مؤتلفين ، مفترقين متفقين ، ولقد أريد أن أحدثك عن هذا المؤتمر ، ولقد أريد أن أحدثك عن هذا الأسبوع الذي قضيته في بلجيكا ، ولكني لا أدرى كيف أحدثك ، لأني لا أدرى كيف أبدأ الحديث .

في نفسي أشياء كثيرة ، كثيرة جدا ، أريد أن أتحدث بها اليك ، ولكني أشعر بشيء من الاضطراب في تنظيم هذه الأشياء الكثيرة وترتيبها والتقديم بعضها على بعض ، كل هذه الأشياء خليقة أن تقال ، وكل هذه الأشياء جليلة الخطر ، فلأتحدث اليك كما تلهمني المصادفة على غير نظام . وفي غير ترتيب .

أشعر بأن كثيرا من المصريين سيسخرون من التاريخ والمؤرخين

وبين المؤتمر والمؤتمرين ، لأن التاريخ ليس من هذه العلوم التى تظهر فائدتها فى الحياة العملية اليومية ، وليس من العلوم التى تعين صاحبها على أن يفلسف كما يقتضى العصر الذى نعيش فيه ، وانما هو علم متواضع يزيد فى تواضعه أنه قد نزل فى هذا العصر الحديث عن ميزة قديمة كانت ترفع شأنه وتعلى مكانته ، ذلك أن النـاس كانوا يتخذون الماضى وسيلة الى فهم المستقبل ، أو بعبارة أوضح وسيلة الى الاستعداد للمستقبل ، وكانوا يتخذونه وسيلة الى فهم الانسانية وتفسير ما فى حياتها من غموض ، فكان التاريخ يختلط بالفلسفة أو كان التاريخ فنا من فنون الفلسفة ، وكان النـاس يعتقدون أن له فائدة عملية لأنه يعين على حسن الاستعداد للحياة ، وكانوا يعتقدون أن له فائدة عقلية لأنه يعين على فهم الحياة ، فكانوا يكلفون بالتاريخ ويتهالكون عليه ، وكانت للتاريخ مكانة عليا بين العلوم ، وكانت للمؤرخين مكانة عليا بين العلماء .

ولكن التاريخ تواضع ونزل عن هاتين الميزتين ، وأصبح لا يزعم لنفسه الفضل فى حسن الاستعداد للمستقبل ولا يزعم لنفسه القدرة على حل ألغاز الحياة ، بل أصبح التاريخ يحذر الناس من تلك الأساليب القديمة التى كانت تقيس غدا الى أمس وتفسر اليوم بما وقع منذ قرون ، أصبح التاريخ يحذر الناس من هذه الأساليب القديمة ويسخر من أولئك الذين يبحثون عن الثـورة الفرنسية وما أحدثت من نظم فى السياسة والاجتماع فى تاريخ

اليونان والرومان ، ثم يرثى لأولئك الفرنسيين الذين خدعتهم هذه الأساليب فى أواخر القرن الثامن عشر فظنوا أنهم يحيون بثورتهم الديمقراطية اليونانية أو نظم السياسة الرومانية ، واتخذوا لهذه النظم أسماء اقتبسوها من تاريخ آثينا وتاريخ روما . أصبح التاريخ ينكر هذه الأساليب ويحذر الناس منها ويسخر من المستمسكين بها ، بل أصبح التاريخ ينكر فلسفة التاريخ ويقنع بشيء واحـد متواضع ، ولكنه جليل الخطر ، وهو الوصول الى استكشاف الحقائق التى وقعت فى الماضى استكشافا علميا صحيحا معتمدا على البحث لا على الفلسفة .

فهو كالكيمياء لا يزعم لنفسه القدرة على تحـويل المعادن وايجاد الذهب ، وانما يزعم لنفسه البحث عن الحقائق من حيث هى حقائق لا أكثر ولا أقل .

الى هذه المنزلة وصل التاريخ ، فما أسرع ما زهد فيه الناس ورغبوا عنه ، ولا سيما فى مصر . ولقد أذكر حديثا طويلا جرى بينى وبين أحد المصريين الأذكياء ، كان ينكر فيه قيمة التاريخ وكانت حجته فى هذا الانكار أن التاريخ لا يفيد فائدة عملية ولا يمكن الناس من أن يكسبوا حياتهم أو يرفهوا هذه الحياة . أذكر هذا الحديث وأحاديث أخرى فأشعر بأن ناسا كثيرين فى مصر سيسخرون من التاريخ ، ومن مؤتمر التاريخ . ولكنى

أؤكد لك أيها القارىء أنى لا أسخر من هذا ولا ذاك ، وانما أكلف بالتاريخ ، وأعجب بمؤتمر التاريخ ، وأرجو أن يكلف كثيرون بالتاريخ ، ولكننا قد نصل الى هذه المنزلة يوم نشعر بأن العلم يجب أن يطلب لأنه علم لا لأنه يمكنك من أن تعيش أو من أن تعيش عيشة مترفة .

لا أسخر من التاريخ ، وفى الأرض ناس كثيرون لا يسخرون من التاريخ . فقد حدثتك فى أول هذا المقال بأننا كنا ألفا أو نزيد على الألف ، وكنا من جميع أقطار الأرض . ولم يكن منا من يسخر من التاريخ . ولقد كان الذين نظموا المؤتمر ودعوا اليه فى دهش وحيرة لا حد لهما . كانوا لا يطمعون فى أن يبلغ عدد المؤتمرين خمسمائة فاذا عدد المؤتمرين قد تجاوز الألف ، كانوا يطمعون فى أن يستجيب لهم الناس من أطراف الأرض ، وانما كانوا ينتظرون أن يستجيب لهم أهل أوربا الغربية ، وأهل أمريكا الشمالية ، فاذا القارات الخمس يستجبن لهذه الدعوة . واذا البرازيل والهند واستراليا ومصر وأفريقيا الجنوبية وأوربا الشمالية والصين واليابان والروسيا ترسل من يمثلها فى هذا المؤتمر . وأحب أن تلاحظ أن ألمانيا لم تستطع أن تشترك فى المؤتمر لأنها لم تدع اليه ، وأن الروسيا لم تستطع أن تشترك فى المؤتمر كما ينبغى لأنها لم تدع ، وانما اشتركت فى المؤتمر الجماعات الروسية المتفرقة فى أنحاء أوربا . وأن النمسا اعتذرت عن الاشتراك فى المؤتمر لأنها

لم تجد من المال ما يمكنها من ايفاد من يمثلها ، ومع هذا كله فقد بلغ هذا المؤتمر الخامس من الفوز مالم يبلغه مؤتمر تاريخى من قبل . زاد عدد أعضائه على الألف وزاد عدد الخطب التى ألقيت فيه والمذكرات التى قدمت اليه على ثلثمائة . ولم يستطع المؤتمر أن يجتمع للاشتراك فى البحث والمناقشة انما اضطر أن يوزع العمل ويقسم نفسه أقساما بلغت ثلاثة عشر قسما . اضطرت أقسام كثيرة الى أن تقسم نفسها وتوزع العمل فيما بينها فالقسم بعضها أربعة أقسام . ولم يكن من الممكن لعضو من أعضاء المؤتمر أن يتتبع العمل فى المؤتمر وانما كان كل عضو مضطرا الى أن يتتبع العمل فى القسم الذى هو فيه ، وربما أباح أحدنا لنفسه أن يترك قسمه ليسمع خطبة أو مذكرة تلذه أو تعنيه فى قسم آخر ، فيفعل ذلك كارها لأنه يترك فى قسمه خطبا ومذكرات كان يود لو يستمع لها ، ولقد كان أعضاء المؤتمر يلتقون فيسأل أحدهم صاحبه : هل قدمت الى المؤتمر شيئا ؟ نعم فى موضوع كذا . فيجيبه هذا شىء لا يحتمل ! لقد كنت أريد أن أسمع لك ولكنى شغلت فى قسمى بموضوع لم يكن بد من الاستماع له ». إما أنا فضيق الصدر ، فقد فاتتنى خطبة فلان ومذكرة فلان . وماذا تريد أن تصنع ؟ وقد أبت الطبيعة أن تستطيع تعديد أشخاصنا والاستماع فى وقت واحد لكل ما نحب أن نستمع له .

وكان المؤتمر يفكر فى طبع ما سيلقى فيه من الخطب أو يقدم اليه من المذكرات فألفى نفسه أمام مشكلة مالية لا قدرة له على حلها . وحسبك أنه كان يلقى فى الساعة الواحدة وفى أكثر من عشرين غرفة أكثر من عشرين خطبة . وكنا فى هذا المؤتمر كالتلاميذ فى المدرسة ، نجتمع فى الساعة التاسعة صباحا فما نزال مجتمعين الى الظهر ، ثم ننصرف للغداء ونعود فى الساعة الثانية فما نزال مجتمعين الى الساعة الخامسة . فاذا كانت الساعة الخامسة انصرفنا الى زيارات واستقبالات قد نظمت فى القصر مرة وفى البلدية مرة أخرى وعند وزير المعارف مرة ثالثة ، وفى المتاحف والمجامع العلمية مرة رابعة بحيث كان من المستحيل أن يفكر العضو فى شىء غير المؤتمر وأعمال المؤتمر اذا كان عضوا مخلصا فى عمله معنيا بفنه حقا ، وهنا يجب أن ألاحظ أن الأعضاء لم يكونوا جميعا على حظ واحد من الاخلاص للفن والعناية به . وذلك شىء حسن فى نفسه فحسبك ثلثمائة خطبة أو مذكرة وما استتبعت من البحث والمناقشة، ولو أن الأعضاء جميعا خطبوا أو قدموا المذكرات أو اشتركوا فى البحث والمناقشة لما انتهت أعمال المؤتمر فى أسبوع أو أسابيع .

كثير من الأعضاء أقبل ليسمع ويرى ويتعرف الى المؤرخين على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم . وكثير منهم أقبل للرياضة والسياحة واتخذ المؤتمر تعلة لما كان يريد .

كثيرة جدا الفوائد المختلفة التى تنتجها مثل هذه المؤتمرات فلست أذكر الفائدة الأساسية التى يستفيدها علم التاريخ وانما أذكر فوائد أخرى غير هذه ليس بينها وبين التاريخ صلة . فيكفى أن تكون فطنا دقيق الملاحظة لتجد لذات متنوعة فى ملاحظة هؤلاء الناس المختلفين فى الوطن والجنس والطبيعة والمزاج وما لكل واحد منهم من عادة أو خلق أو مزية أو نقيصة . والحق أنى قد استفدت كثيرا من الوجهة العلمية التاريخية ولكنى مع هذا ضحكت كثيرا وسخطت كثيرا ، فقد كان حولى من الناس من يضحك كما كان حولى منهم من يبعث السخط ، ولكنى سأحدثك عن هذا كله فى مقال آخر بعد أن أقص عليك طرفا من أعمال المؤتمر .

باريس فى ١٦ ابريل سنة ١٩٢٣ .

٢

لا أذكر ما كان يضطرب فى نفسى من خواطر الأسى والاعجاب ومن عواطف الأسف والأمل أثناء الطريق بين باريس وبروكسل حين كنا نعبر هذه البلاد التى دمرتها الحرب تدميرا فلم تذر فيها شيئا الا أتت عليـــه والتى كان أهلهـــا مشردين فى أقطار فرنسا ، يتكلفون ألوان المشقة ، ويستجدون ضروب الاحسان ، ليستقروا بعد تشريد وليشبعوا بعد جوع ، فأصبحت هذه البلاد ، ولما تمض على الحرب أعوام ، عامرة ومزدهرة مستكملة أو آخذة فى استكمال وسائل الحياة العاملة المنتجة الناعمة المترفة . كنت آسف وكنت آمل ، كنت آسى لقسوة الانسان على الانسان ، وكنت أعجب بقدرة الانسان على اصلاح ما أفسدت يد الانسان . ولكنى لا أريد أن أذكر ذلك أو أطيل فيه ، وانما أحدثك بما وجدت حين وصلت الى مدينة بروكسل ظهر الأحد ٨ ابريل .

كان البرد شديدا ، وكانت تعصف فى المدينة ريح قوية مثلجة ، ولكن المدينة كانت هائجة مائجة ، أو بعبارة أصح كانت فرحة مرحة ، كان الناس يتغنون ويضحكون ويفتنون فى اللذات البريئة . فكنت لا تسمع الا أصواتا صافية مجلوة ، تنبعث بألفاظ الهنـــاء

والسرور . وكنت لا ترى الا أعلاما منشورة تعبث بها الريح ، كنت لا تسمع ولا ترى الا شيئا يسر ويرضي ويبعث البهجة في النفوس . كان أهل بلجيكا ذلك اليوم في عيد . كانوا يحتفلون بميلاد الملك ألبير ، لم يكن احتفالهم رسميا فحسب ، لم يكن مقصورا على قصر الملك ودواوين الحكومة . لم يكن احتفالا تراد به المجاملة ، وانما كان احتفالا حقا . كانت القلوب تحتفل بالملك ألبير . وكانت الألسنة تنطلق بما يملأ القلوب من فرح . وكانت الوجوه تصف ما يغمر النفوس من ابتهاج . وكانت هذه الجماعات المختلفة التي تنطلق في الشوارع منها ما ينشد النشيد البلجيكي ، ومنها ما يتغنى « بالمرسيلييز » ومنها ما يتغنى بأحدث الأغاني الباريسية التي تتردد في « مونمارتر » . أقول كانت كل هذه الجماعات آية ساطعة على أن البلجيكيين يحبون ملكهم ويعجبون به ويحتفلون ببلجيكا الناهضة حين يحتفلون بعيد ألبير . لأن ألبير يمثل في نفوسهم هذا الوطن الذي تألم وأهين ولقى ضروب الذلة ثم انتصر وثأر لنفسه وهو الآن ينهض ويستأنف الحياة قويا نشيطا كأقوى وأنشط ما كان قبل الحرب .

نعم : كانت هذه الجماعات آية بينة على أن البلجيكيين يحبون ملكهم ويرونه رمز آلامهم وآمالهم حقا ، ومهما أنس فلن أنسى جماعة من الرجال والنساء صادفناها في أحد الشوارع ، وقد

تبادلت القلانس ، فلبس الرجال قلانس النساء ولبس النساء قلانس الرجال وامتلأ الشارع بهم حتى وقف الترام وانقطعت الحركة وهم يتغنون : « اصعد فوق ! اصعد فوق ! فسترى مونمارتر » .

« وكن واثقا جداً بأنك سترى شيئاً جديدا » .

« من فوق اذا كان الجو صحوا فسترى من باريس الى شارتر » .

« اذا كنت لم تر هذا فاصعد فوق ؟ اصعد فوق فسترى مونمارتر » .

بذلك كانوا يتغنون وكانت تقطع هذا الغناء من وقت الى وقت قهقهة عالية تصعد فى السماء وتحملها الريح وتفرقها فى أنحاء المدينة . وانهم ليمضون كذلك وانا لنتبعهم واذا الغناء قد انقطع واذا الأصوات قد خفتت واذا الرءوس حاسرة واذا جلال مهيب قد انبسط على هذه الجماعات الفرحة ، واذا صمت رهيب يشعرك بأن هناك شيئا جديدا . بأن هناك شيئا مقدسا ..

كان هناك شيء جديد مقدس . كانت الجماعة قد وصلت الى عمود المؤتمر وهو الذى أقيم سنة ١٨٣٠ حين استقلت بلجيكا وصدر دستورها ، وهو الذى يظل قبر الجندى المجهول الذى اتخذ رمزا لما قدمت بلجيكا من ضحايا فى الحرب الماضية . وصلت الجماعة الى هــذا العمود فتبدل فرحها ومرحها اجلالا وتقديسا لرمز الاستقلال ورمز الجهاد الوطنى !

وما أشك أن هؤلاء الناس الذين كانوا يجلون استقلالهم
يقدسون رمز ضحاياهم ، كانوا يذكرون فى هذه اللحظة نفسها
مع الاجلال والاكبار الملك ألبير الذى جاهد وتألم واحتمل كل
يمكن أن يحتمله الملك المخلص للدفاع عن وطنه أولا وعن عرشه
ثانيا ! فى هذا اليوم عرفت قيمة ما يمكن أن يوجد بين الشعوب
والملوك من صلات الحب والمودة والعطف .

الحب وحده مصدر هذا الابتهاج والاجلال ، فليس الملك ألبير
مستبدا ولا راغبا فى الاستبداد . وليس الشعب البلجيكى خاملا
لا مستعدا للخنوع ، ولعل الذين قرءوا تاريخ بلجيكا يعلمون
أن الصلة بين البلجيكيين وملوكهم قائمة على أن الملوك يتلقون
سلطانهم من الشعب ، فهم نوابه وممثلوه ، لا سادته وزعماؤه .
ومالى أذهب بعيدا وقد افتتح المؤتمر التاريخى يوم الاثنين ٩ ابريل
بمحضر من الملك والملكة وولى العهد والبرنس شارل وأخته
البرنسيس مارى جورى ، فلما قدم رئيس المؤتمر الى الملك والملكة
والأمراء تحية المؤتمر ذكر الديمقراطية ورقيها فى بلجيكا واقتناع
الملك بأن لا رقى للشعوب ولا استقرار للعروش الا اذا كانت
الديمقراطية الصحيحة الواسعة أساس الصلة بين الشعوب والعروش
فصفق الناس جميعا وابتسم الملك والملكة .

باريس فى ١٧ ابريل سنة ١٩٢٣ .

قلت فى أول هذه الفصول : ان كثرة أعضاء المؤتمر من جهة ، وكثرة مواد العمل من جهة أخرى ، قد اضطرتا المؤتمر الى أن يقسم نفسه الى لجان . ولست أرى بأسا من ذكر هذه اللجان ليرى المشتغلون بالتاريخ فى مصر كيف يتصور علماء أوربا التاريخ وكيف يقسمونه الى أقسامه المختلفة .

انقسم المؤتمر الى ثلاث عشرة لجنة وهى :

١ — تاريخ الشرق .

٢ — تاريخ اليونان والرومان .

٣ — تاريخ العصر البيزنطى .

٤ — تاريخ القرون الوسطى .

٥ — التاريخ الحديث والتاريخ العصرى ، وهذه اللجنة تنقسم الى أربع لجان جزئية .

الأولى : لجنة التاريخ الحديث التى ينتهى عملها الى الثورة الفرنسية .

الثانية — لجنة التاريخ العصرى التى يبتدىء عملها من الثورة

الثالثة — لجنة تاريخ القارة الأمريكية .

الرابعة — لجنة تاريخ الاستعمار والاستكشاف .

وأحب أن تلاحظ أن هذين القسمين الأخيرين — تاريخ القارة الأمريكية وتاريخ الاستعمار — لم يستقلا بالبحث وتخصص العلماء الا فى هذه السنين الأخيرة . وهما يوشكان أن يصبح كل واحد منهما قسما مستقلا استقلالا تاما عن غيره من بقية أقسام التاريخ .

٦ — التاريخ الدينى ، وهذه اللجنة تنقسم الى لجنتين جزئيتين :

الأولى — لجنة تاريخ الديانات من حيث هى أي من وجهتها الفكرية والعملية .

الثانية — لجنة تاريخ الكنيسة ، وهى تنقسم الى لجنتين تبحث الأولى عن تاريخ الكنيسة منذ نشأتها الى آخر القرن الثانى عشر . وتبحث الثانية عن تاريخ الكنيسة منذ أول القرن الثالث عشر .

٧ — تاريخ الحقوق — وهذه اللجنة تنقسم الى لجنتين :

الأولى — لجنة تاريخ الحقوق فى العصر القديم .

الثانية — لجنة تاريخ الحقوق فى القرون الوسطى وفى العصر الحديث .

٨ — التاريخ الاقتصادى .

٩ — تاريخ الحضارة : وقد انقسمت هذه اللجنة الى ثلاث لجان :

الأولى — لجنة تاريخ الحضارة فى العصر القديم .

الثانية — لجنة تاريخ الحضارة فى القرون الوسطى وفى العصر الحديث .

الثالثة — لجنة تاريخ الطب .

١٠ — تاريخ الفن والآثار ، وتنقسم الى لجنتين :

الأولى — لجنة تاريخ الفن .

الثانية — لجنة الآثار .

١١ — المناهج التاريخية والعلوم المتصلة بالتاريخ . وقد انقسمت هذه اللجنة الى لجنتين :

الأولى — لجنة مناهج البحث التاريخى .

الثانية : لجنة العلوم المتصلة بالتاريخ كعلم النقوش والخطوط ، وما الى ذلك .

١٢ — لجنة البحث عن مصادر تاريخ العالم أثناء الحرب العظمى .

١٣ — لجنة المخطوطات ونشر النصوص التاريخية .

وكان المنظمون للمؤتمر قد خصصوا له قصر المجامع العلمية ، فظهر أن هذا القصر على سعته وكثرة غرفه أضيق من أن يسع هذه اللجان واضطر المنظمون الى أن يقرروا لجانا كثيرة فى مواضع مختلفة قريبة أو بعيدة من قصر المؤتمر .

وكانوا قد أجمعوا أن يفتتح المؤتمر بعد ظهر الاثنين ٩ ابريل وأن يشرع فى أعماله بعد ذلك . ولكن كثرة الأعمال وكثرة ما كان يجب أن يلقى من الخطب ويقدم من المذكرات ، اضطر المؤتمر الى أن يبدأ فى عمله قبل أن يفتتح رسميا . فاجتمعت اللجان وبدأت بسماع الخطب والمذكرات صباح الاثنين ، أى قبل أن يفتتح المؤتمر رسميا .

وكنا قد ذهبنا يوم الأحد الى سكرتارية المؤتمر فوجد كل منا طائفة من الأوراق تنتظره . وقد كتب عليها اسمه . وهذه الأوراق عبارة عن برنامج أعمال المؤتمر ومختصر ما كان قد قدم من المذكرات وبطاقات الدعوة الى القصر ، وعند وزير المعارف ، وفى الجامعة ، وفى البلدية ، ثم بطاقة شخصية تثبت أن صاحبها عضو فى المؤتمر ، ثم علامة من المعدن يعلقها العضو فى صدره ليتميزه الناس ، وليستغنى بها عن اظهار بطاقته كلما أراد أن يدخل دارا من دور المؤتمر .

وعلمنا حينئذ أننا سنبدأ أعمالنا صباح الاثنين قبل الافتتاح الرسمي ، فلما كان يوم الاثنين ذهبنا جميعا الى الأماكن التي خصصت للجان التي يجب أن يشترك فيها كل منا . ذهبت الى لجنة المخطوطات ونشر النصوص التاريخية . وفي هذه اللجنة قدمت بمذكرتي صباح الاثنين ، وكان موضوعها « نص معاهدة دفاعية هجومية » عقدت سنة ٦٩٢ للهجرة (١٢٩٢ للمسيح) بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون وابن جايم الثاني ملك أراجون وأخويه وصهريه . وكلهم ملوك لاسبانيا المسيحية . وجدت نص هذه المعاهدة العربي في الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى ، وفي هذا النص اضطراب كثير ، وضروب من التحريف غريبة ، فكنت أمام صعوبتين : الأولى تصحيح هذا النص وتقويم ما فيه من الاضطراب والتحريف ، الثانية اثبات أن هذا النص صحيح من الوجهة التاريخية ، وأن هناك معاهدة عقدت حقا بين مصر وأسبانيا المسيحية في ذلك العصر .

وقد وفقت الى تذليل هاتين الصعوبتين بواسطة استكشاف النص أو الترجمة الأسبانية اللاتينية لهذه المعاهدة التي لم يكن نصها العربي معروفا للمؤرخين قبل اليوم . ولم يكن هذا البحث يسيرا ولا سهلا . فحسبك أن القلقشندي الذي روى نص هذه المعاهدة عن كتاب لابن المكرم سماه « تذكرة اللبيب ونزهة

الأديب » قد روى هذا النص دون أن يفهم قيمته التاريخية ، بل دون أن تفهمه بوجه ما فحرف وبدل ولم يصف المعاهدة الا بأنها حسنة الانشاء . وحسبك أن أسماء الملوك والبلاد كانت من التحريف بحيث كان يكفى أن تقرأها لتشك فى صحة المعاهدة . فملك أراجون جايم الثانى يسمى فى المعاهدة « دون حاكم » ولفظ حاكم لفظ عربى خالص لا يمكن أن يكون اسما لملك مسيحى من ملوك أسبانيا ، وتحريفه ظاهر سهل ولكن بشرط أن تصل الى أصله المسيحى . ولست أدرى على من تلقى تبعة هذا التحريف ، أعلى المؤلف أم على الناسخ أم على المصحح ؟ ولكنى أعلم أن هذا الكتاب الجليل الذى سأخصه بفصل أو فصلين لو أنه صحح تصحيحا علميا متينا ، وأشرف على طبعه ناس يتقنون هذا الفن ويلمون بأصوله وباللغات الأجنبية ، ويستطيعون أن يتصرفوا فى هذه اللغات كتابة وترجمة ، لخرج من المطبعة الأميرية نافعا حقا ميسرا للباحثين ، من المصريين وغير المصريين ، سبل البحث عن التاريخ . ولكن الذين أشرفوا على طبع هذا الكتاب على حسن نيتهم واتقانهم للغة العربية وما اليها ، وتصحيح الحروف ، يجهلون التصحيح العلمى وما يحتاج اليه من بحث وتنظيم جهلا تاما . وهم الى ذلك لا يعرفون لغة أجنبية ، وأحسب أنهم لم يدرسوا التاريخ ولا يستطيعون التصرف فيه ولا تأول نصوصه وتفسيرها . ولهذا

كان نفع الكتاب قليلا وعسيرا جدا بنوع خاص . وحسبك أنك لا تجد فيه ثبتا بأسماء الأشخاص والأمكنة ، فأنت مضطر الى أن تقرأ الكتاب كله أو تتصفحه على أقل تقدير لتعرف : أألم الكتاب بالموضوع الذى تبحث عنه أم لم يلم ؟ ومع هذا فأنا أعتقد أن هذا الكتاب أنفع كتاب تاريخى طبع باللغة العربية لمن أراد أن يدرس النظم السياسية فى البلاد الاسلامية عامة وفى مصر خاصة ، ولمن أراد أن يدرس العلاقات الدولية بين المسلمين من جهة وبينهم وبين غيرهم من جهة أخرى . ولكن صبح الأعشى أنسانى ما كنت فيه من قصص المؤتمر .

سمعت فى هذه اللجنة يوم الاثنين مذكرة قدمها أحد المندوبين « لتشيكوسلوفاكيا » عما كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا و « تشيكوسلوفاكيا » بمقتضى معاهدة سان جرمان بعد الحرب العظمى ، ودارت حول هذه المذكرة مناقشة قيمة اتخذت اللجنة بعدها قرارا لو عمل به لاستفادت منه مصر ، وخلاصة هذا القرار أن المحفوظات فى كل بلد تتبع هذا البلد فهى حق من حقوقه لا يصح أن يعتدى عليه معتد بحكم الفتح أو بأى سبب آخر . وانما يجب أن تبقى هذه المحفوظات ملكا للبلد ، الذى هى فيه ، وليس يتناول هذا القرار المحفوظات التى تمس الادارة أو الشئون السياسية وحدها ، وانما يتناول المحفوظات جميعا

ادارية كانت أو سياسية أو فنية أو علمية ومهما يكن تاريخها .

أقول لو عنيت الدول بهـذا القـرار الذى اتخذه العلماء لاستفادت مصر فائدة عظيمة جدا ، فنحن نعلم أن من حقنا أن نطالب تركيا وانجلترا بمحفوظات كثيرة نقلت الى قسطنطينية والى لندرا فى عصور وظروف مختلفة . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسى الدولى لمصر فى القرن التاسع عشر مضطر الى أن يذهب الى لنـدرا ويراجع محفوظات كثيرة فى وزارة الخارجية الانجليزية . وهناك أشياء نجهلها وقد نعلمها فى يوم من الأيام حين نعنى بمحفوظاتنا السياسية والادارية عناية علمية . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسى والعلمى والأدبى لمصر أيام المماليك مضطر الى أن يختلف الى مكاتب القسطنطينية ، وأن دار الكتب المصرية أوفدت منذ حين سماحة السيد محمد البيلاوى ليستنسخ فى مكاتب القسطنطينية كتبا عربية كثيرة . ولعلك لم تنس أن الترك حين فتحوا مصر حملوا الى قسطنطينية كنوزها العلمية والأدبية والفنية . فمن هـذه الكنوز ما تبدد . ومنها ما لا يزال محفوظا فى القسطنطينية . ومن الحق أن يعود هذا كله الى مصر . ولكن أتظن أن قرارا يتخذه العلماء يستطيع أن يؤثر فى رجال السياسة سواء أكانوا من الانجليز أم من الترك ؟

ثم كانت الساعة الثالثة بعد الظهر فافتتح المؤتمر رسميا .

اكتظت غرفة الاحتفالات فى قصر المجامع العلمية بأعضاء المؤتمر ، وأقبل الملك والملكة والأمراء فافتتح المؤتمر وقدم رئيسه التحية الى الملك والملكة كما ذكرت فى الفصل الماضى . وهنا لا أستطيع أن أخفى ابتهاجى حين سمعت لفظ مصر يذكر فى كلمة التحية . فقد كنت ثانى اثنين مصريين حضرا المؤتمر ، وكان الآخر جورج أفندى قطاوى العضو بالبعثة السياسية المصرية فى باريس ، كان يمثل الجمعية الجغرافية الملكية . وكنت المصرى الوحيد الذى يلبس الطربوش . ولم أكن أعلم بحضور مواطنى فى هذه الجلسة، فكنت أشعر بالغربة حقا . فلما سمعت لفظ مصر يذكر فى تحية الملكة ، بمناسبة زيارتها الأخيرة ، أحسست شيئا من الابتهاج والحنان . ولعلى لا أغلو اذا قلت انى أحسست شيئا من الكبرياء أيضا .

لِمَ أخفى عليك الحق ؟ كنت قبل هذه السياحة فى بلجيكا مقتصدا كل الاقتصـــاد فى الافتخار بمصريتى اذا تحدثت الى الأجانب أو جمعتنى واياهم المجامع . ذلك لأنى أشعر دائما بما نحن فيه من ضعف ونقص قبل أن أشعر بما كان لنا من مجد وبما يدخر لنا الزمان من رقى . أستحضر دائما ضعفنا ونقصنا الاجتماعيين ، كما أستحضر دائما ضعفى ونقصى الشخصيين . فأتواضع فى الحديث وأقتصد فى الفخر . ولست أدرى أمزية هذه أم نقيصة ، ولكنى أعلم أن هذا خلق من أخلاقى .

أما الآن وقد زرت بلجيكا ، وتحدثت الى هؤلاء الناس المختلفين . وسمعت ما ذكرت وما تذكر به مصر . وعرفت رأى كثير من هؤلاء الناس فى مصر . فقد أشعر بأن من حقى أو من الحق على ألا أسرف فى التواضع وألا أغلو فى الاقتصاد اذا ذكرت مصر وذكر المصريون . ذلك أن رأى الأجانب فى مصر حسن جدا . ولا سيما اذا كان هؤلاء الأجانب بعيدين عن السياسة وأوزارها .. نعم رأى الأجانب فى مصر حسن لأنهم يفهمون مصر خيرا مما نفهمها يقدرون مجدها القديم لأنهم يفهمونه حقا . ويقدرون مركزها الحديث لأنهم لا يتعصبون لمذهب سياسى ولا يميلون مع الهوى الى حزب من الأحزاب .

يجب أن أعترف بالحق لأهله . يجب أن أثنى على ثروت باشا وعلى تصريح ٢٨ فبراير وعلى اعلان الاستقلال فى ١٥ مارس . فالناس فى مصر يزدرون هذا كله ، ويسخرون منه ، ويرون أنا غير مستقلين . وقد يكون من الحق أنا غير مستقلين بالفعل وأنا لن نستقل بالفعل الا يوم يجلو الانجليز . ولكن من الحق أيضا أن الأجانب الذين لا يشتغلون بالسياسة والذين يشتغلون بها ينظرون الى مصر كما ينظرون الى انجلترا . أى أنهم يعترفون بأن مصر مستقلة كما أن انجلترا مستقلة وكما أن بولونيا مستقلة ، وهم يعجبون بمصر قديمها وحديثها . يعجبون بقديمها لأنه خليق

بالاعجاب . ويعجبون بحديثها لأنه يدهشهم ويملك عليهم أهواءهم ولقد سمعت أكثر من عشرين أجنبيا منهم البلجيكى والفرنسى والبولونى والأمريكى يذكرون مصر الحديثة فيعجبون بها لأنها تتطور فى سرعة مدهشة . ولأن نهضتها الحديثة فذة فى التاريخ .

سمعت اسم مصر اذن فابتهجت وامتلأ قلبى حنانا وشعرت بشىء من الكبرياء ، لأنى كنت أو لأن طربوشى كان رمزا لمصر بين هذه الرءوس الحاسرة التى كانت تزيد على الألف .

ولكنى بعدت عن المؤتمر وغلوت فى الاستطراد . وبماذا تريد أن أحدثك عن هـــذه الجلسة الرسمية ، التى هى كغيرها من الجلسات الرسمية : ثناء على الملك والملكة . وتحية من الحكومة البلجيكية للمؤتمر . ثم خطبة مطولة من رئيس المؤتمر ألم فيها ببحث تاريخى قد أذكره فى غير هذا الفصل ثم تلاوة قرارات اتخذت لحسن نظام الأعمال ، ثم ينصرف الأعضاء . اتصلت هذه الجلسة ساعتين. وسمع الملك والملكة والأمراء كل ما قيل وانصرفوا مع الناس دون أن يظهر عليهم ملل أو ضجر . أكانوا حقا مغتبطين بهذا الحديث الطويل الكثير الثقيل على آذان الملوك ؟ أم كانوا متجاملين ؟

باريس فى ١٨ ابريل سنة ١٩٢٣ .

٤

كان لذيذا جدا ذلك اليوم الثانى من أيام المؤتمر . كان لذيذا وكان مفيدا . لم نكد نبدأ أعمالنا فى ذلك اليوم حتى سمعت فى لجنة المحفوظات مذكرة نافعة قدمها مدير المحفوظات فى بلجيكا عن نظام ادارة المحفوظات ، وما يجب أن يتخذ من ضروب الحيطة، حتى لا تضيع هذه المحفوظات ولا تتعرض للخطر . وسأحدثك عن هذه المذكرة فى مقال آخر أصف فيه دار المحفوظات فى بروكسل وألم فيه بالموضوع الماما مفيدا .

سمعت هذه المذكرة ثم تركت لجنتى وذهبت الى لجنة أخرى مجاورة هى لجنة تاريخ الحضارة فى العصر القديم ، أو بعبارة أصح لجنة التاريخ العقلى فى العصر القديم . فى هذه اللجنة كان ينتظرنى دهش عظيم ولذة أعظم . لأنى سمعت محاورة ما كنت أظن أنى سأسمعها فى يوم من الأيام . وكانت هذه المحاورة بين عالمين خطيرين : أحدهما فرنسى والآخر بلجيكى . كان موضوع هذه المحاورة غريبا ، وكانت المناقشة فيه حادة طويلة ، حتى صرفت اللجنة عن أعمالها صباح الثلاثاء . ذلك أن أحد الفلاسفة البلجيكيين الأستاذ « دوبريل » ألف منذ حين كتابا فى تاريخ الفلسفة اليونانية ؛

وزعم فى هذا الكتاب أن البحث التاريخى الصحيح ينتهى بالباحث الى أن سقراط شخص خرافى لم يوجد ولم يعرفه التاريخ ، وأن خلاصة حكم التاريخ فيه كخلاصة حكم التاريخ فى هوميروس . كلاهما شخص آمن به القدماء وأنكر التاريخ أنه لم يوجد قط ، وكلاهما شخص اتخذ رمزا لنوع من الآداب ، فاتخذ هوميروس رمزا لكل الشعر القصصى الذى عرفه اليونان وتناقلوه قبل القرن السابع ، واتخذ سقراط رمزا لهذه الفلسفة التى عرفها اليونان وافتنوا فيها منذ أواخر القرن الخامس وطول القرن الرابع قبل المسيح .

أعترف بأنى دهشت الدهش كله حين قرأت عنوان هذه المحاورة قبل الذهاب الى المؤتمر . فما كنت أظن أن وجود سقراط يصل فى يوم من الأيام الى أن يكون موضوع بحث ، فضلا عن أن يكون موضوع شك ، بل فضلا عن أن يكون موضوع انكار . ذلك لأن سقراط لم يعش فى عصر جهل وبداوة ، ولا فى أيام خرافة وأساطير ، وانما عاش فى عصر علم وحضارة ، وفى أيام تحقيق وتاريخ . والناس مجمعون منذ أوائل القرن الرابع قبل المسيح على أن هنالك آتينيا كان اسمه سقراط . وكان معروفا طول حياته بالميل الى الفلسفة والكلف بها . وكان ممتازا بأطوار حياته الغريبة ، ومناهج بحثه الجديدة . كان يمشى حافيا فى الشوارع ويتلكأ فى الميادين ، متحدثا الى الشيوخ والشبان ، متلطفا مع هؤلاء ، محاورا مناقشا

سائلا مجيبا ، حتى استحدث فى الأدب اليونانى فنا جديدا ، هو فن الحوار الفلسفى . وحتى رسم للعقل الانسانى طريقا جديدة لم يقطعها العقل الانسانى بعد . الناس مجمعون على ذلك ، ومجمعون على أن سقراط هذا كان له خصوم وأنصار ، وعلى أن خصومه حاربوه فسخروا منه ، ثم اتهموه أمام المحكمة ، وعلى أنه أساء الدفاع عن نفسه عمدا ثم سخر من القضاة فقضوا عليه بالموت ثم انتظر الموت شهرا ثم شرب السم وظل يحاور تلاميذه فى خلود النفس حتى مات ثم تفرق تلاميذه فأنشأوا المدارس والمذاهب الفلسفية المختلفة فى بلاد اليونان على اختلافها وتباعد أطرافها . وعاش من هذه المذاهب مذهب واحد هو مذهب أفلاطون الذى أخذ يتطور ويستحيل حتى أنتج فلسفة أرسطاطاليس ، وكثيرا من المذاهب الفلسفية الأخرى التى لا تزال متاعا عاما للنوع الانسانى الى الآن .

الناس مجمعون على هذا كله ، ولديهم أدلة ظاهرة تبيح لهم هذا الاجماع . فليس من شك فى وجود أرستوفان الممثل اليونانى المضحك . وليس من شك فى أن أرستوفان قدم الى الملعب الآتينى نحو سنة ٤٢٤ قبل المسيح قصة السحاب التى يتداولها الناس ، والتى تدور حول سقراط وتتخذه وسيلة الى تسلية الجمهور الآتينى واضحاكه ، وليس من شك فى أن كتب التاريخ اليونانية

والرومانية ذكرت موجزة أو مطنبة قضية سقراط وموته والمذاهب الفلسفية التى نشأت عن حواره ومناقشته ، ليس من شك فى هذا كله ، ولكن الأستاذ « دوبريل » وجد طريقا الى الشك ، وفى الحق أنه لم يخترع هذه الطريق ، فهى موجودة من قبل ، وفيها ما يبعث على الدهش والحيرة ، فمن الواضح أن أحدا لم يشك فى وجود سقراط قبل الأستاذ « دوبريل » ولكن من الواضح أيضا أن المحدثين من مؤرخى الفلسفة عاجزون الى الآن كل العجز عن تحقيق فلسفة سقراط ، وبيان ما كان له من مذهب فى الأخلاق أو فى غير الأخلاق . فهم يؤمنون بوجود سقراط وبأنه أبو الفلسفة . ولكنهم لا يستطيعون أن يبينوا فلسفته . بل هناك ما هو أغرب من هذا : لا يستطيعون أن يصفوا سقراط ولا أن يتميزوا شخصيته المعنوية . فلسقراط شخصيات كثيرة تختلف باختلاف تلاميذه . فأفلاطون يعطى من سقراط شخصية تخالف تلك التى يعطيها « كسنوفون Xénophon » وهذه الشخصية تخالف ما يمكن أن يستخلص من « فيدون «Phédon» » ، وكل هذه الشخصيات تخالف ما نجد فى قصة السحاب . واذا كان الأمر كذلك فما الذى يمنع من الشك فى وجود سقراط ؟ وكيف نستطيع أن نتصور شخصا وجد من غير شك وكان أبا الفلسفة وملهم الفلاسفة ، وأحدث فى العالم اليونانى خاصة والانسانى عامة ضجة هائلة أعدت العالم

للضجة التى أحدثها المسيح ، دون أن تتميز شخصيته أو أن تتبين أصلا واضحا جليا من أصول فلسفته ؟

نعم قد يجاب على هذا بأن سقراط لم يكتب شيئا ، وانما تحدث فاختلطت أحاديثه وعبث بها تلاميـذه ومن هنا اختلطت شخصيته الفلسفية ، وأصبح تميزها شيئا عسيرا . ولكن فلاسفة كثيرين وجدوا قبل سقراط ولم يكتبوا ومع هـذا فقد تميزت شخصياتهم ، مع أن فلسفتهم فشلت ولم تظفر من الفوز ببعض ما ظفرت به الفلسفة التى تضاف الى سقراط . هذا مصدر الشك فى وجود سقراط . وقد افتن فيه الأستاذ « دوبريل » ولم يكتف بتسجيله ، بل ذهب الى ما هو أبعد من هذا فأثبت أو حاول أن يثبت شيئين : الأول أن شخص سقراط شخص خرافى كشخص « جحا » كان موضوع العبث والسخرية فى قصص الممثلين وأن الفلاسفة الذين جاءوا فى أواخر القرن الخامس وفى القرن الرابع قد اتخذوا هذا الشخص الخرافى ، الذى هو موضوع السخرية والعبث ، مثالا للجد .ولكن للجـد الحلو الذى هو أقرب الى الفكاهة منه الى الجد الخالص ليحببوا فلسفتهم الى الناس . ثم أخذ هذا الشخص الهزلى قديما الجدى حديثا ، يتطور فى جده ويمعن فى فلسفته ، حتى أصبح مثالا للجد الخالص ، وأبا للفلاسفة، ورمزا للفلسفة وحتى نسجت حوله هذه الأسطورة الغريبة التى

جعلته بطلا من أبطال الانسانية . الثانى أن فلسفة سقراط ليست جديدة ولم تنشأ كما يعتقد المؤرخون لمحاربة السوفسطائية ، وانما هى طور من أطوار الفلسفة اليونانيـــة القديمة ، لم يستحدثها فيلسوف بعينه فى عصر بعينه . ويثبت الأستاذ « دوبريل » نظريته هذه بالرجوع الى نظريات الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط وما يوجد فيها من أصول الفلسفة السقراطية . هذه نظرية الأستاذ «دوبريل» أوجزتها ايجازا شديدا أخشى أن يكون قد أفسدها وانتقص من أطرافها .

نهض لنقض هذه النظرية أستاذ فرنسى هو الأستاذ « لفيفر » من علماء مدينة « ليل » وأعترف بأنى كنت معجبا بهذا الأستاذ حين كان يتكلم . ولم أكن منفردا بهذا الاعجاب وانما كان أعضاء اللجنة جميعا ومنهم الأستاذ « دوبريل » نفسه يشاركوننى فيه . ولم يكن مصدر هذا الاعجاب فيما أظن اقتناعنا بردود الأستاذ ، وانما كان مصدره قبل كل شىء حبنا لسقراط وحرصنا على أن يكون شخص سقراط شخصا حقيقيا تاريخيا ، وشعورنا بأن الأستاذ « لفيفر » يحاول أن يثبت لنا وجود هذا الشخص الذى نحبه ونكلف به . الحق أن الوقت لم يسمح للأستاذ « لفيفر » بمناقشة خصمه كما ينبغى . فهناك نصوص يونانية ولاتينية لم يكن بد من تحليلها ومناقشتها . وذلك يحتاج الى كتاب لا الى محاضرة . والى أشهر

لا الى ساعة . ولكن هناك شيئا يظهر أنه لا يقبل الشك وهو أن الأستاذ « دوبريل » غلا فى نظريته وسلك فيها مسلك الفيلسوف لا مسلك المؤرخ . فيجب أن نلاحظ أن سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف ، وقد تضادها مضادة كاملة فتذهب احداهما الى الشمال وتذهب الأخرى الى الجنوب . ذلك لأن الفيلسوف يخضع فى فلسفته لقواعد معينة مرسومة فى ذهنه . فمن المعقول جدا أن ينتقل من مقدمة الى مقدمة حتى يصل الى النتيجة التى يسعى اليها ، سواء أكان بحثه صحيحا أم غير صحيح فى نفسه . فاذا رأى الأستاذ « دوبريل » أن فلسفة سقراط تكاد تكون موجودة برمتها عند الفلاسفة الذين تقدموه ، وأن شخصية سقراط غامضة متناقضة عند تلاميذه وفيما تركوا من الأسفار ، وأن شخص سقراط كان موضوع العبث والسخرية عند الشعراء الممثلين كان من اليسير عليه أن يصطنع المنطق فينظم مقدماته ويرتبها حتى يصل الى هذه النتيجة ، وهى أن سقراط شخص خرافى . هذه النتيجة مطمعة خلابة ، لأنها تخرق الاجماع أولا . ولأنها تخيل الى صاحبها أنه قد رد الأمر الى نصابه فأثبت اتصال الفلسفة ونفى انقطاعها . ولأنها بعد هذا وذاك ان أفلحت كانت خليقة أن تخلد اسم صاحبها فى تاريخ الفلسفة كما خلد اسم « ولف » فى تاريخ الأدب اليونانى. هذه سبيل الفيلسوف . أما سبيل المؤرخ فمخالفة كل المخالفة لهذه

السبيل ، فهى لا تتبع قوانين منطقية معينة ، وانما تتبع الحياة الانسانية العملية . والحياة الانسانية العملية لا تزال تظهر لنا الى الآن مختلفة مضطربة متناقضة . لأننا لم نوفق بعد الى استكشاف قوانينها الخفية . فمن المعقول جدا أن يظهر للفيلسوف شىء يراه منتظما منتجا ولا يقره التاريخ . ومن المعقول أن يرجح المؤرخ شيئا لا يقره الفيلسوف . وليس فى هـذا شىء من الغـرابة . فالفيلسوف بطبيعته منكر لحياة الناس العاديين يزدريها ويستخفها. والناس العاديون منكرون لحياة الفلاسفة يزدريها بعضهم ويكبرها أكثرهم ، ولكنهم جميعا يرون أنها تخالف أطوارهم وعاداتهم . ومن هنا وجد التناقض بين حياة الناس وفلسفة الفلاسفة . وسبيل التاريخ أن يبحث عن حياة الناس كما يحيونها لا كما يتصورها الفيلسوف . فليس غريبا أن يؤمن المؤرخ بوجود سقراط ، ويعجز فى الوقت نفسه عن شخصيته وازالة ما حولها من الغموض . أضف الى هذا أن هناك أشياء يخرج الشك فيها عن طور المعقول . فالعصر القديم والقرون الوسطى والعصر الحديث لا تعرف قبل المسيو «دوبريل» نصا يشير الى الشك فى وجود سقراط . بل هناك شىء آخر ذكره الأستاذ « لفيفر » وعجز الأستاذ دوبريل عن دحضه ، وهو أن قصة سقراط تصم الآتينيين بجناية منكرة ، هى قتل هذا البطل العظيم ظلما وفى غير انصاف . والتاريخ يثبت أن الآتينيين

كانوا يغارون على شهرتهم وحظهــم من حسن الذكر . فكيف نتصور أن هؤلاء الناس وصموا أنفسهم بهذه الوصمة ؟ أو سكتوا عن الذين وصموهم بهذه الوصمة : عن أفلاطــون وكــسنوفون وغيرهما من تلاميذ سقراط . ألم يكن معقولا أن يغضب الآتينيون لهذه التهمة المنتحلة التى كان يستغلها أعداؤهم الكثيرون ؟ هناك شيء آخر وهو أننا اذا استبحنا لأنفسنا الشك من غير حساب ، لم ندر الى أى حد ينتهى بنا الشك فى التاريخ . فما الذى يمنع الأستاذ « دوبريل » من أن يشك غدا فى وجود أفلاطون وبعد غد فى وجود أرسطاطاليس ؟ ومن يدرى لعل شخص نابليون بعد زمن قليل أو كثير يصبح عند بعض الباحثين شخصا خرافيا كشخص هوميروس أو كشخص سقراط عند الأستاذ « دوبريل » . قلت لك ان سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف ، وان الأول يستطيع بل يجب عليه أحيانا أن يقر ما ينكر الفيلسوف وأن ينكر ما يقر الفيلسوف . ولقد انتقلت من هذه اللجنة الى لجنة أخرى هى لجنة تاريخ الديانات وكنت غير مقتنع برأى الأســتاذ « دوبريل » فسمعت فى هذه اللجنة الثانية أحد أساتذتى وهو الأستاذ «جينيبير» يتكلم ورأيت الناس من حوله فى هرج ومرج . ووددت حين سمعت ما كان يقول لو حضر الأستاذ « دوبريل » . ذلك لأن الأســتاذ « جينيبير » كان يعلن مبتسما ساخرا أن أعداء التاريخ ثلاثة : عالم

الدين ، ورجل القانون ، والفيلسوف . ضحك ناس وسخط ناس واحتج آخرون . أما أنا فضحكت ولم أسخط ولم أحتج ، وانما هنأت الأستاذ . وهنا أعتذر الى علماء الدين والى رجال القانون ، وأسأل صديقى منصور عن رأيه فى هذا : أحق أن الفيلسوف عدو للتاريخ ؟

باريس فى ٢٠ ابريل سنة ١٩٢٣ .

فكرت فى مصر ، وفى نص الدستور على السودان ، وفى وزارة الشعب ، وفى الوزارة القائمة يوم الثلاثاء ١٠ ابريل حين كنت أسمع بعد الظهر فى جلسة عامة للمؤتمر خطبة قيمة دقيقة ممتعة كان يلقيها الأستاذ الفرنسى « بريمون » كانت الخطبة قيمة ممتعة ، لأنها كانت تفسر لنا لغزا من ألغاز التاريخ — الفرنسى الانجليزى — وتوضح لنا ألقابا وعنوانات نجدها فى نصوص السياسة الخارجية الفرنسية والانجليزية قبل الثورة الفرنسية . وكانت دقيقة لذيذة لأنها كانت تلقى بمحضر من قوم مختلفين يمثلون أمما مختلفة . وبمحضر كثير جدا من الانجليز وكثير جدا من الفرنسيين . وكان الذى يلقيها فرنسيا . وكان رئيس المؤتمر حينئذ انجليزيا . والناس يذكرون ما بين فرنسا وانجلترا من خلاف ومشادة ومنافسة فى الشرق والغرب فلم يكن بد للأستاذ الفرنسى من أن يصطنع الدقة والتلطف وحسن المدخل حتى لا يؤذى أولئك ولا يهيج هؤلاء . ولا تقل كان المؤتمر علميا والعلماء فوق السياسة . فسأحدثك فى غير هذا المقال بما يثبت لك أن العلماء ليسوا فوق السياسة . وأنهم كغيرهم من الناس يخضعون للعاطفة الوطنية ويندفعون معها والفرق

بينهم وبين العامة أنهم يجتهدون فى أن يزنوا هـذا الاندفاع وألا يضحوا بالعلم فى سبيل السياسة وقلما يوفقون . ولكنى أثنيت على الخطبة وأطلت الثناء ولم أحدثك بموضوعها .

كان موضوع هذه الخطبة لقبا من ألقاب ملك انجلترا . فقد كان ملوك انجلترا يلقبون أنفسهم بهذا اللقب وهو « ملك فرنسا » وكانوا يصطنعون هذا اللقب ويحرصون عليـه الحرص كله فى علاقاتهم السياسية بملوك فرنسا . ولم يكن ملوك فرنسا يستطيعون أن يصطنعوا هذا اللقب . فكانوا يلقبون أنفسهم بأصحاب الجلالة المسيحية جدا . وحاول لويس الرابع عشر أن يحمل ملوك انجلترا على أن ينزلوا عن هذا اللقب فلم يفلح . ولم يفلح بعده لويس الخامس عشر . وغريبة جدا الحيل التى كان يتخـذها المندوبون السياسيون للويس الرابع عشر وللويس الخامس عشر ، ليمحوا هذا اللقب من ألقاب ملك الانجليز ، أو ليخفوه دون أن يوفقوا حتى لقد حاول بعضهم أن يمحو هذا اللقب من النص الفرنسى لمعاهدة بين البلدين على أن يبقى فى النص اللاتينى . لأن الجمهور يقرأ النصوص الفرنسية ولا يقرأ النصوص اللاتينية فلم يفلح . وحتى لقد كان أحد ملوك انجلترا منفيا مخلوعا . وكان يأوى الى فرنسا ،وكان ضيفا على لويس الرابع عشر وكان لويس الرابع عشر يحميه ويدفع عنه . وكان مع ذلك يلقب نفسه ملك فرنسا . ولم

يوفق الفرنسيون الى محو هذا اللقب من ألقاب ملوك الانجليز الا أيام الثورة ، أو بعبارة أصح أيام القنصلية . فقد اشتد الخلاف بين مفوضى الجمهورية الفرنسية ومفوضى المملكة الانجليزية حول هذا اللقب . وكانت حجة الفرنسيين أن الثورة قد ألغت الملكية من فرنسا فهى لا تعترف بلقب يخيل أن لفرنسا ملكا ، كائنا من كان ، سواء أكان هذا الملك فرنسيا أم غير فرنسى ، وسواء أكان ملكا حقا أم لفظا ، وأن الانجليز الذين يريدون أن يعترفوا بالجمهورية يجب عليهم — ليكونوا منطقيين مع أنفسهم — أن يمحوا هذا اللقب من ثبت الألقاب الملكية . وأبى الانجليز ذلك فانقطعت المفاوضات واستؤنف الجهاد بين البلدين . فلما كانت القنصلية وظهر الميل الى الصلح بين الانجليز والفرنسيين . وأخذ الساسة فى البلدين يوطئون لمعاهدة « أميان » (Amiens) أحس الانجليز أنهم اذا لم ينزلوا عن هـذا اللقب فستنقطع المفاوضات وأحسوا فى الوقت نفسه أنهم ان نزلوا عن هذا اللقب بمقتضى مفاوضات بينهم وبين فرنسا ، كان هذا النزول انتصارا لفرنسا وخزيا وطنيا للانجليز . فانتهزوا فرصة ضم ارلندا الى المملكة الانجليزية ، وصدر آخر ديسمبر سنة ١٨٠٠ مرسوم ملكى يعلن أن ملك انجلترا سيلقب من أول يناير سنة ١٨٠١ ملك « بريطانيا العظمى وارلندا » ولم يذكر اللقب الذى كان عليه الخلاف ، وهو

ملك فرنسا . وبهذا محى هذا اللقب ولم يحتج الفرنسيون إلى أن يفاوضوا فى محوه . ولم يحتج الانجليز الى أن ينخذلوا فى المفاوضة. ولكن هذا لم يمنع المؤرخين الانجليز من أن يعترفوا فى أواسط القرن الماضى بأن هذا النزول كان خزيا وطنيا وامتهانا لكرامة التاج.

ذكرت مصر وذكرت نصوص الدستور على السودان . وذكرت تلقيب ملك مصر بأنه ملك السودان ، وذكرت هذه السهولة التى أظهرتها وزارة مصرية فى النزول عن هذا اللقب ، ولو الى أجل . ذكرت ذلك فاستخذيت لوزارتنا . ومن ذا الذى يذكر هذا ولا يستخذى ؟ جاهدت انجلترا قرونا لتحتفظ بلقب لا خير فيه فلم يكن ملك انجلترا ملكا لفرنسا أيام لويس الرابع عشر . بل كان ملك انجلترا يخشى ملك فرنسا . ومع هذا كان يلقب نفسه ملك فرنسا . لم يكن هذا اللقب مفيدا ، بل كان مضحكا . ومع ذلك لم تنزل عنه انجلترا الا حين اضطرت اضطرارا شديدا الى النزول عنه أما نحن — أستغفر الله — ! — أما وزارتنا فقد نزلت عن هذا اللقب : « ملك السودان » . وهى تعلم أنه ليس لقبا لفظيا . وهى تعلم أنه لقب يمثل الحق والعدل والقانون . وأن الاحتفاظ به احتفاظ بحق مصر ، والتفريط فيه تفريط فى حق مصر . نزلت عنه ولما تضح فى الاحتفاظ به بالقليل ولا بالكثير . نزلت عنه لأن ممثل انجلترا قطب جبينه ولوى وجهه . ذكرت هذا كله وذكرت جهاد

الانجليز فى الاحتفاظ بلقب سخيف ثم اصرارهم على ألا تحتفظ مصر بلقب هو كما قلت مثال الحق والعدل والقانون . استخذيت لوزارتنا وسألت الله أن يمنح مصر ساسة يستطيعون أن يقاوموا ساسة الانجليز !!! ثم سمعنا خطبتين : احداهما عن نقوش يونانية استكشفت فى آسيا الصغرى ألقاها عالم انجليزى . والأخرى عن أثر الخرافات والنبوات فى سياسة الجمهورية الرومانية ألقاها عالم بولونى . ثم انصرفنا الى القصر وكانت الساعة الخامسة من هذا اليوم قد ضربت موعدا لمثول أعضاء المؤتمر بين يدى الملك والملكة. فرأيت فى هذا القصر أشياء كثيرة تركت فى نفسى آثارا قوية . رأيت قبل كل شىء مظهرا من مظاهر حب العلم والتهالك عليه والافتنان فى نصره . ومظهرا من مظاهر الوطنية الصادقة القوية . ومظهرا من مظاهر اجلال أوربا لعلمائها واكبارها لمكانتهم ، ومفاخرتها بهم ؛ وكان الذى يمثل هذه المظاهر رجلا شيخا فانيا قد تجاوز السابعة والثمانين وانحنى على العصا فما يستقيم له ظل ، وانحلت قواه فما يمشى الا متثاقلا . وما يكاد يستقل بنفسه فهو محتاج أبدا الى من يعتمد عليه . وكان مبتسما . وكان فرحا . وكان يتلطف فى الحديث الى كل من ذهب يحييه ، وقد ذهبنا كلنا نحييه . وكان وحيدا ، أى لم يكن يمثل بلده سواه . وكان جالسا على كرسى فى ناحية من نواحى البهو الذى كنا ننتظر فيه وقوفا أن يؤذن لنا بتحية

الملك . هذا الشيخ الذى كانت تحوطه بلجيكا والذى كان يرعاه
المؤتمر كله ، هو الأستاذ « شميت » (Schmidt) أقبل من كوبنهاجن
يمثل الدانمرك فى المؤتمر . وألقى فى لجنة الشرق خطبة عن مقدار
علم المصريين القدماء بتاريخ مصر القديم ، فكان لخطبته فوز
وتحدثت بها صحف بلجيكا . ذهبت الى هذا الرجل فحييته
وشكرت له عنايته بتاريخ مصر . فما أشد ما أثرت فيه تحيتى
وشكرى . وما أحسن ما أظهر ميله الى مصر واعجابه بمصر وأمله
فى مستقبل مصر .

اذن لنا فى الدخول ، ورتبنا حسب أحرف الهجاء . فدخل
أعضاء المؤتمر البلجيكيون ، ثم ممثل البرازيل ، ثم الشيخ الفانى
ممثل الدانمرك وكنا اثنين يمثلان مصر . وكانت زوجى تصحبنى .
وكنا وراء هذا الشيخ ، فسمعنا تحية الملك له وسمعناه يتحدث
بكلام كثير الى الملك لم نفهم منه شيئا ، ولم يفهم الملك منه شيئا .
لأن الرجل متقدم فى السن فهو لا يكاد يبين اذا تكلم الفرنسية .
ثم أراد الرجل أن ينصرف فزلت قدمه وكاد يسقط ثم صافح الملكة
وأراد أن ينصرف وكاد يسقط ولولا أن كبير الأمناء كان يسنده
لهوى الى الأرض .

مررنا أمام الملك والملكة فصافحنا الملك وأعلن الينا أنه سعيد
برؤية مصرى وأن الملكة كانت سعيدة جدا بما أظهر المصريون لها

من الكرم وحسن الضيافة . وصافحتنا الملكة فأعلنت الينا اغتباطها بهذه السياحة البديعة التى ساحتها فى هذا البلد الذى ليس له مثيل. ثم مرت بعدنا انجلترا فذكرت أنا مستقلون وأنا لا نتبع تركيا وأنا لا نتبع انجلترا وأن تصريح ٢٨ فبراير ليس لغوا ولا حديثا من الأحاديث . وانما هو حقيقة واقعة ليست عبثا بالعقول كما يظن كثير منا فى مصر .

خرجنا من غرفة الاستقبال وكنت أظن أن لم يبق لنا الا أن ننصرف . ولكنى دهشت حين وجدت نفسى فى غرفة قد مدت فيها الموائد ووقف خدم القصر يقدمون الى أعضاء المؤتمر الشاى وأنواع الحلوى والأشربة (التى يبيحها الاسلام) وانا لفى شاى وحلوى وبرتقال يتبع بعضنا بعضا ، كلما فرغت طائفة من تحية الملك تقدم اليها الخدم فسألوها عما تشتهى حتى انتهت المقابلة . أقول انا لفى هذا كله واذا بالملك والملكة والأمراء قد خرجوا من غرفة الاستقبال واختلطوا بالناس ، وانبثوا فى أنحاء الغرفة يتحدثون الى المؤتمرين مع شىء من السذاجة وارتفاع الكلفة غريب . وكان الرئيس البلجيكى للمؤتمر الأستاذ « بيرين » (Pirenne) يتتبع كبار العلماء وذوى المكانة منهم فيقدمهم الى الملك مرة ، والى الملكة مرة أخرى ، وكان المؤتمرون البلجيكيون يتتبعون بقية الأعضاء فيقدمونهم حينا الى ولى العهد وحينا آخر الى أخيه

وحينا آخر الى أخته وقد قدمت أنا وزوجي الى هـذه الأميرة الصغيرة ، وهي فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، مشرقة يتحدث وجهها بما يملؤها من قوة الشباب وبما لا يزال يملكها من سذاجة الطفولة ونعومتها ، في زي ساذج عادي ، كالذي تصطنعه الفتيات في أسر الطبقات الوسطى في أوربا وفي مصر . قدمنا اليها على أننا نمثل مصر . وقال مقدمنا اننا نمثل بلدا غريبا لا لما تتكشف عنه المباحث العلميـة من عجائب تاريخه القديم بل لما يبهـر عقول الأوروبيين من حركته المدهشة ونهضته السريعة التي بدأت منـذ سنين فقطعت في زمن قصير ما أفنت أوروبا في قطعه طوال الأعوام. فسألت الأميرة زوجي عن المرأة المصرية ومقدار رقيها ، وان زوجي لتصف لها سرعة رقي المرأة المصرية اذ أقبلت سيدة بولونية عالمة مؤرخة من أعضاء المؤتمر ، فاندفعت الى الأميرة دون أن تقـدم اليها ، ودون أن تستأذن . ثم أسرعت الى يد الأميرة فهزتها هزا عنيفا وسألت الأميرة بصوت غليظ : أتحبين التـاريخ ؟ أجابت الأميرة في استحياء : نعم ياسيدتي ، وأي فرع من فروع التاريخ تحبين ؟ بهتت الفتاة لحظة ثم قالت : اني لم أحسن درس التاريخ ولا أعلم منـه الا قليـلا ، فلا أستطيع أن أوثر فرعا من فروعه دون الآخر . ضحكت السيدة ضحكا عاليا ثم هزت يد الأميرة هزا عنيفا وقالت في صوتها الغليظ : ادرسي تاريخ الفن فهو سـهل

والناس جميعا يستطيعون أن يفهموه . ثم مضت لشأنها . وقدم الى الأميرة ناس آخرون . ولبثنا كذلك ساعة . ثم انصرف الملك والملكة والأمراء فانصرف كل منا الى مأواه .

عرفت فى هذه المرة أيضا لم يحب البلجيكيون ملكهم وملكتهم وأمراءهم . وكيف لا أفهم ذلك وقد أقبل من قدمنا الى الأميرة فصاح بى : مسيو حسين ، تعال أقدمك الى أميرتنا الصغيرة . وكيف لا أفهم ذلك وقد سمعت الأستاذ « بيرين » يصيح بأعلى صوته : « برنس ليو بولد ! أين البرنس ليوبولد ؟ أين ذهب ؟ انى أريد أن أقدم اليه ... » فيجيبه أحد البلجيكيين : « ها هو ذا يتحدث الى فلان » فيذهب الأستاذ بيرين ويمهل الأمير حتى اذا فرغ من حديثه أخذ بذراعه ومضى حتى يقدمه الى أحد العلماء . والملكة تتنقل بين صفوف المؤتمرين فتتحدث الى هذا وتسأل ذاك وتبسم لهذا وتصافح ذاك .

كيف لا أفهم حب البلجيكيين لملكهم وملكتهم وأمرائهم وهم على هذا الحظ من الديمقراطية ؟

ألا اننا فى عصر تنتصر فيه الديمقراطية انتصارا مدهشا . لا تستقر فى مجالس النواب ولا فى مجالس الشيوخ ، وانما تتجاوز هذه المجالس الى قصور الملوك ، فينزلها هؤلاء الملوك من قصورهم احسن منزل لانهم يفهمون أن عروشهم لا تستطيع أن تقوم الا

عليها . لأنهم يفهمون أن نظام الملك قد أصبح لا يلائم هذا العصر لأنه أثر قديم لا معنى له الآن الا اذا لم يكن بين الملوك ورؤساء الجمهوريات فرق ما . الا اذا اعتمدت عروش الملوك على قلوب الشعب لا على قوة الجيش ولا على قوة السنة القديمة .

فهم بعض ملوك أوربا هذا فاستقرت عروشهم ويظهر أنها تريد أن تستقر أبدا . ولم يفهمه بعضهم الآخر فهم الآن يذوقون مرارة النفى على شواطىء بحيرة « ليمان » (Léman) فى سويسرا .

باريس فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٣ .

أصبحنا يوم الأربعاء ١١ ابريل فتفرقنا لا فى أنحاء بروكسل بل فى أنحاء بلجيكا . ذلك أن الذين أشرفوا على تنظيم المؤتمر لم يفكروا فى جمع المؤرخين من أقطار الأرض وايجاد الصلة بينهم وتمكينهم من أن يعلم كل منهم ما عند صاحبه من التاريخ . وانما فكروا مع ذلك فى شيئين آخرين ، وان شئت فقل فى أشياء أخرى : فكروا فى أن البحث العلمى الجاف ثقيل حتى على أنفس العلماء ولا بد من أن يتخلل بحثهم العلمى شىء يسر ويرضى ويفيد ، دون أن تكون الصلة منقطعة بين هذا الشىء وبين البحث العلمى الذى يشتغل به العلماء . وأى شىء ألذ وأنفع وأشد صلة بالتاريخ من زيارة الآثار التاريخية المختلفة التى تنبث فى جميع أنحاء بلجيكا بكثرة مدهشة ؟ ولا سيما اذا لم تكن هذه الآثار تاريخية فحسب ، بل كانت مع ذلك آيات بينات من آيات الفن الجميل على اختلافه . فكر البلجيكيون فى ذلك ، وفكروا فى شىء آخر وهو أن بلدهم يخرج من حرب ضروس قد أخضعته لضروب من المحن والحرمان لم يعرفها قبل هذه الأعوام الأخيرة وهو الآن يجتهد فى اصلاح ما أفسدت الحرب ، وهو محتاج فى هذا الاصلاح الى عطف الأمم

على اختلافها ، ومن هنا كان محتاجا الى نشر الدعوة وبعث عواطف الاعجاب والاجلال والاشفاق . والفرصة سانحة فالمؤتمر يمثل أكبر أمم الأرض . وأعضاء المؤتمر من خيرة الذين يمثلون الأمم ، لأنهم علماء وكلهم أستاذ أو مؤلف . واذن فكلهم قادر على نشر الدعوة ، ماهر فيه ، واذن فلا بد من التأثير فى هؤلاء العلماء واحياء هــذه العواطف المختلفة فى نفوسهم ، وأى سبيل أهدى الى ذلك من زيارة الآيات الفنية البينة ؟! أضف الى هذا أن تفرق المؤتمرين فى أنحاء بلجيكا لا يخلو من فائدة اقتصادية فى بلد ساء القطع فيه واشتد فيه غلاء الحياة . فكثير جدا من المؤتمرين قد وفدوا من بلاد غنية مثرية فهم يستطيعون أن ينفقوا عن ســعة ، دون أن يخسروا كثيرا ، وبلجيكا فى حاجة الى أن ينفقوا وليس ينبغى أن يقتصر انفاقهم على مدينة بروكسل فهناك مدن بلجيكية أخــرى تحتاج الى هذا الانفاق . واذن فيحسن أن يتفرق المؤتمرون فى أنحاء بلجيكا لينتفعوا هم ولتستفيد بلجيكــا من الوجهــة المادية والمعنوية ؛ لهذا كله خصص الذين نظموا المؤتمر يوم الأربعاء ١١ ابريل لسياحات تاريخية أو أثرية أو فنية . وعينوا مدنا مختلفة يختارها من شاء من المؤتمرين . وندبوا فى كل مدينة أستاذا أو أساتذة يقودون المؤتمرين ويرشدونهم ويفسرون لهم ما يرون ، فذهب بعض المؤتمرين الى المدينة « بروج » (Bruges) وبعضهم الى

« جان » (Gand) وبعضهم الى « ليبج » (Liéeg) وآخرون الى « انفرس » (Anvers) وكثير الى المدينة الشهيدة المعذبة مدينــة « لوفان » (Louvin)

وكنا بين الذين ذهبوا الى « بروج » فوصلنا الى هذه المدينة فى الساعة الثامنة من صباح يوم صحو قد صفت فيه الســماء وأنتشرت فيه الشمس الفاترة على هذه المدينة المشرفة على الموت ، والتى أزهرت فى القرون الوسطى ازهاراً لم تعرفه مدينة بلجيكية أخرى . والتى لا تكاد تقع فيها العين على شىء حديث وانما كل شىء فيها قديم . كل شىء فيها يرجع عهده الى القــرن العاشر والحادى عشر ، وأحدث مافيها يرجع عهده الى القرن السادس عشر . مدينة هادئة مطمئنة لا تكاد تحس حركة ولا اضــطرابا الا ما يحدثه الترام على هذه الأرض التى لم يصطنع فيها «الأسفلت ولا المكدام » وانما حجرت على طريقة القرون الوسطى . فالمشى فيها شاق متعب مهلك للأحذية . وللترام والعربات فيها ضجيج شديد . مدينة هادئة مطمئنة فقيرة جدا ولكنها غنية جدا . فقيرة لأن الحياة الاقتصادية الحديثة صرفت عنها الحــركة التجارية والصناعية ، وغنية بما فيها من آثار الفن وبما فيها من مصــادر التاريخ ، فقيرة غنية فأهلها يعيشـون من الأجانب كما حدثنا الأستاذ الذى كان يرشدنا الى الآثار فى هذه المدينة . مدينة هادئة مطمئنة

لا تكاد تشعر بأنها تعيش فى القرن العشرين لأنك لا تنظر فيها الا الى شىء قديم . فهى مدينة خليقة حقا بأن يعيش فيها من يكلف بالتاريخ ومن يكلف بالفن على اختلاف ضروبه بنوع خاص . كل شىء فى هذه المدينة يحببها الى المؤرخ ويحببها الى الفنى ويحببها الى الشاعر . لأنها كلها آثار ولأنها كلها فن ولأنها كلها شعر . وهى الى هذا كله من الهدوء والطمأنينة والدعة بحيث يستطيع المؤرخ والفنى والشاعر أن يستمتع فيها بتاريخه أو فنه أو شعره دون أن تصرفه عنها يحب جلبة الحياة أو ضوضاء الأحياء .

تلقانا فى هذه المدينة مدير المحفوظات وعالم آخر من علماء الآثار . وكنا نحو الخمسين فقضينا اليوم كله على أقدامنا واقفين أمام مشهد من المشاهد ، أو منطلقين من هذا المشهد الى مشهد آخر ، نخرج من كنيسة الى كنيسة ، ومن دار الى دار ، ومن متحف الى متحف ونحن عجلون لأننا لن نجد من الوقت ما يمكننا من أن نشهد كل شىء ، أو أن نحقق النظر فى شىء . وانما نمر سراعا أمام الأشياء كأننا فى دار الصور المتحركة ، الا أننا نحن الذين يتحركون بينما الصور هادئة مستقرة فى أماكنها . قضينا اليوم كله على الأقدام الا ثلاث ساعات قضينا احداها فى الفندق للغداء . وأؤكد لك أن أصحاب هذا الفندق عرفوا أننا أجانب وعرفوا كيف يستفيدون من هؤلاء الأجانب . وأؤكد لك أنهم

حمدوا للذين نظموا المؤتمر هـذه الفكرة التى حملتهم على أن يرسلوا بعض المؤتمرين الى مدينتهم .

يظهر أنه لم يكن هناك ماء للشرب . فكنت مضطرا الى أن تشرب النبيذ أو الجعة أو الماء المعدنى . وكل هذا يباع ويشرى . وأؤكد لك أن ثمنه ليس بالبخس ولا بالقليل . فزجاجة الماء المعدنى لم تكلفنا أقل من ثلاثة فرنكات . ولم نخرج من الفندق حتى أنفقنا أنا وزوجى خمسة وأربعين فرنكا . ولم يكن الطعام رديئا ولكنه لم يكن من الجودة بحيث يستأهل هذا الثمن الباهظ . قضينا ساعة فى الفندق وقضينا ساعتين أخريين أحسبهما من أسعد ساعات الحياة، قضيناهما فى زوارق صغيرة طافت بنا حول المدينة . ذلك أنى أنسيت أن أنبئك بأن « بروج » تسمى « فينيس » الشمال لأن الماء يتخللها فى جميع أنحائها ، ولأنك تصطنع فيها الزوارق كما تصطنع العربات فى مدينة أخرى ، ولست أدرى ماذا تنتج المقارنة بين مدينة « فينيس » ومدينـة « بروج » فكلتا المدينتين غنية بآثارها ، وكلتا المدينتين غنية بجمـال منظـرها وحسن موقعها الطبيعى . ولكنى أحسب أن الذى يبحث عن الهدوء والدعة ، ويريد أن يستمتع بالجمال والفن فى غير اضطراب ، انما يجد ذلك فى هذه المدينة الشمالية الميتة أو التى توشك أن تموت . فى هذه المدينة التى لا تمنحها الشمس حظها من الضوء الا بمقدار . والتى

يكاد الضباب يجللها دائما فيمنحها شيئا من الروعة والجلال ما أحسب أنك تجدهما فى « فينيس » وان وجدت مكانهما هذا الجمال المبتهج المشرق الذى تمتاز به مدن الجنوب .

لقد أريد أن أحدثك عما فى هذه المدينة من الآثار ومن آيات الفن ، ولكننى عاجز كل العجز عن هذا ، وأحسبك لا تجهل مصدر هذا العجز ، وبم أحدثك ؟ لقد زرنا آثارا كبيرة وسمعنا دروسا قيمة . ولو أنى ذهبت أحدثك بما سمعت أو بما وصف الى فى أثر من الآثار أو صورة من الصور ، لاحتاج ذلك الى مقال طويل وأنا بعد أريد أن أجتزىء وأن أفرغ من نبأ المؤتمر .

فى هذه المدينة أجمل ما فى بلجيكا من نماذج العمارة فى القرون الوسطى ، وفيها أجمل ما فى بلجيكا من نماذج التصوير فى القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، وفيها الى هذا آثار مختلفة تمكن المؤرخ من أن يتصور كيف كان يعيش أهل بلجيكا فى القرون الوسطى . زرنا قصرا قديما يسمى قصر « جريتوس » فاذا القصر نفسه أثر من أبدع آثار القرون الوسطى . ولكن ما فى القصر أبدع وأجمل ، فقد اجتهدت المدينة فى أن تحول قسما منه الى متحف نظمت فيه الأدوات المنزلية كما كانت منظمة فى القرون الوسطى . فاذا زرت هذا المتحف عرفت كيف كان أهل البيت يجتمعون الى طعامهم ، وكيف كانوا يعدون هذا الطعام . وكيف

كانوا يجتمعون الى سمرهم ، وماذا كانوا يتخذون فى حياتهم من أداة ومتاع . وأجمل ما فى هذا القصر من المعروضات « الدنتلا » فقد عرضت منها ضروب غيرى أقدر على أن يصفها . ولكنى أعلم أنها بهرت المؤتمرين جميعا . ولم يكن اعجاب السيدات بها أشد من اعجاب الرجال .

ذكرت الزوارق والطواف حول المدينة ، ولكنى لم أذكر — ويظهر أنى لن أستطيع أن أذكر — أثر هذا الطواف فى نفسى وفى نفس غيرى من المؤتمرين . يكفى أن تتخيل هذه الأقنية الضيقة تخترق المدينة فى جميع أرجائها وقد قامت على جنباتها هذه الأبنية الجميلة الجليلة واصطفت على شواطئها الخضراء أشجار طوال تكاد أغصانها تقبل الماء من مكان الى مكان وانبعث على هذه الشواطىء وخلال هذه الأشجار أطفال كثيرون يلعبون ويمرحون ويبسمون للحياة ، وقد عقدت على هذه الأقنية من مكان الى مكان جسور بديعة قديمة لم يغير منها شىء . وما أنس لا أنس صوت الملاح يصف لنا ما كنا نمر به من الأبنية والعمارات ثم يقطع وصفه من حين الى حين بهذه الكلمة : « رءوسكم أيها السادة » ذلك لأنا كنا نقارب جسرا من الجسور فكان يجب أن نحنى رءوسنا حتى لا تصطدم بالعقد .

أشد شىء أثر فى نفسى هو اعجاب أهل « بروج » بمدينتهم

ومفاخرتهم بما فيها من جمـال ، وحرصهم على أن يظهروا دقائق هذا الجمال للأجنبى حتى لايفوته منه شىء وابتهاجهم حين يرون اعجاب الأجنبى وحين يسمعون ثناءه وتقريظه . وهم فى ذلك كله سواء . ليس هناك فرق بين الأستاذين اللذين كانا يصحبانا وبين الملاحين الذين كانوا يطوفون بنا حول الدينة . بل ماذا أقول ؟ لقد كنا فى أحد المتاحف وكان الأستاذ يصف لنا بعض الآثار ، ولست أخفى عليك دهشى واعجابى حين رأيت الأستاذ يخطىء فى تاريخ من التواريخ أو فى شىء من الأشياء فينبهه الى خطئه حارس من حرس المتحف ويقبل الأستاذ منه ذلك راضيا شاكرا . ولقد كنت أذكر أثناء هذا متحفنا المصرى وجهل المصريين بما فى ذلك المتحف ولقد كنت أقارن مع شىء من الاستحياء كثير بين حرس المتاحف البلجيكية وزمـلائى من الأسـاتذة المصريين . فلم تكن المقارنة مرضية ، ويظهر أنها لن تكون مرضية قبل زمن طـويل ، قبل أن يمن الله على مصر برجال فى وزارة المعارف يفهمون العلم والتعليم ويقدرونهما ويقدرون الحاجة اليهما ويشعرون بأن مناصبهم ليست مقصورة على تدبير الأموال وتدبير الألعاب الرياضية .

شىء آخر دهشت له وأعجبت به هو وطنية هـؤلاء الناس ، كنت لا أكاد أشك فى أن أحد الأستاذين اللـذين كانا يصحبانا مجنون أو قريب من الجنون . ذلك لأنه كان لا يتحدث الينا الا

متأثرا تأثرا شديدا فرحا مرة حتى يبلغ الضحك ، ومحزونا مرة أخرى حتى يبلغ البكاء . ولست أغلو فقد كان الأستاذ يضحك ويبكي . وكنا في عجب من أمره ثم علمنا أنه عاش في مدينته أثناء الحرب وأنه كان بطلا من أبطال هذه المدينة ، وأنه جاهد جهادا عنيفا ليحتفظ بآثار هذه المدينة وآياتها من غارات الألمانيين الذين كانوا يريدون أن يستأثروا بكل شيء . ولقد أثر في نفسي صوت هذا الرجل حين كان يقول لنا : « تعالوا أيها السادة الى الميدان الكبير فستسمعون فيه صوت جرسنا العتيق الذي لا يجهله مؤرخ . واذكروا أيها السادة حين تسمعون صوت هذا الجرس أني أنقذته في آخر لحظة حين كان الألمان يريدون أن يرسلوه الى المسبك » ذهبنا الى الميدان الكبير وسمعنا صوت الجرس : صوتا يملأ المدينة . وليس في ذلك غرابة فهو قد أنشيء لذلك ، سمعنا صوت الجرس يوقع ألحانا موسيقية مختلفة ، واننا لكذلك واذا الرءوس حاسرة لأن الجرس كان يوقع النشيد البلجيكي واذا الأستاذ ينتحب ويقول في صوت متهدج : « معذرة أيها السادة فاني بلجيكي » ولم يكن الأستاذ يبكي وحده وانما بكى معه بعض المؤتمرين .

باريس في ٥ مايو سنة ١٩٢٣

٧

عدنا الى العمل صباح الخميس ١٢ ابريل فسمعت محاضرات كثيرة مختلفة لا أعرض لها لأن الصحف السيارة لا تتسع لمثلها . ولكنى أذكر محاضرة واحدة سمعتها فى لجنـــة تاريخ الديانات ، لأن الذى ألقاها صديق لكثير من المصريين وهو الأستاذ « لويس ماسينيون » (Louis Massinion) ولأن هـــذه المحاضرة أثارت مناقشة طويلة حادة ، ولأن موضوع هذه المحاضرة يمس الاسلام وهو « أثر التصوف فى تكوين العقائد الدينية عند المسلمين » .

والحق أنى لم أفهم الغرض الذى رمى اليه المحاضر وان كنت قد اشتركت فى المناقشة ، لم أفهم هذا الغرض لأنه لم يكن بينا ، ولأن أساس البحث الذى ذهب اليه المحاضر خطأ فيما أعتقد ، فكثير من المستشرقين أمثال الأستاذ « لويس ماسينيون » على مهارتهم وحسن بلائهم فى فهم اللغة العربية وخدمتها ، يخطئون فى فهم هذه اللغة أحيانا ويقيمون على أغلاطهم نظريات طويلة عريضة عميقة ، ولكنها ليست بذات غناء ، لم أفهم الغرض الذى رمى اليه الأستاذ، وأحسب أن كثيرا من الأعضاء لم يفهم هذا الغرض ، ومع هذا فقد تناقشنا كثيرا ، ولكن موضوع المناقشة لم يكن ماأراد الأستاذ أن

يثبت من تأثير التصوف فى تكوين العقائد الدينية عند المسلمين .
فلم يحفل أحد من الأعضاء بهذه النظرية وانما كان موضوع المناقشة
هو أن التصوف العربى أثر خالص من آثار العرب أو شىء للعرب
فيه حظ ، ولكن معظمه موروث عن الأمم الأخرى . أما الأستاذ
« ماسينيون » فكان يعتقد أن هذا التصوف عربى خالص أو يوشك
أن يكون عربيا خالصا ، وأن ما يمكن أن نجد فيه من موافقة لما
عند الأمم الأخرى لم يؤخذ عن هذه الأمم وانما هى المصادفة ،
وتوارد الخواطر ووحدة النظام العقلى فى التفكير مهما تختلف الأمم
ومهما تختلف البيئات . فليس حتما اذا فكر العربى كما فكر اليونانى
أن يكون العربى قد أخذ عن اليونانى ؛ ولكن من المعقول جدا
أن يكون اليونانى والعربى قد فكرا بطريقة واحدة فاهتديا الى
نتيجة واحدة واذن فيجب ألا نغلو فى القول بأن العرب قد أخذوا
عن غيرهم هذه النظرية أو تلك .

هنا اشتدت المناقشة فمن الظاهر أن توارد الخواطر ممكن .
بل انه واقع . بل ان هناك نظريات تشترك فيها أمم مختلفة دون
أن تكون احداها قد أخذتها عن الأخرى . ولكن امكان الشىء غير
وجوده بالفعل ، وليس يستطيع التاريخ أن يكتفى بالامكان
والفرض فذلك شىء قد يكتفى به الفلاسفة والمفكرون . فأما
المؤرخون فيريدون الحقائق الواقعة ولا يلجأون الى الافتراض

الا لتفسير هذه الحقائق تفسيرا مؤقتا حتى يتاح لهم استكشاف الحقائق الواقعة التى تفسر ما لديهم . فاذا رأينا عند العرب فكرة صوفية أو غير صوفية توافق ما رأينا عند اليونان أو عند الفرس كان لنا أن نفترض توارد الخواطر ، وكان لنا أن نفترض أن العرب قد أخذوا عن اليونان أو عن الفرس . كان لنا أن نفترض الأمرين جميعا وأن نبحث عما يرجح هذا الفرض أو ذاك ، وهنا تظهر قيمة المؤرخ وتظهر قيمة التاريخ . وليس يجب أن نجد النص التاريخى الذى لا يحتمل الشك على أن العرب قد أخذوا عن اليونان أو عن الفرس لننفى توارد الخواطر ؛ فكثيرا ما تضيع النصوص دون أن يكون ضياعها مصدرا لضياع الحقيقة . وليست النصوص كل شىء فى التاريخ فهناك الصلات التى تختلف قوة وضعفا وتتفاوت متانة ووهنا بين الأمم . وهذه الصلات اذا ثبتت ثبوتا تاريخيا كافيا أباحت للمؤرخ أن يرجح تأثير الأمم بعضها فى بعض . وليس يجب أن يكون هذا التأثير ظاهرا يعلمه الناس جميعا ، يعلمه من أثر ومن تأثر فأشد أنواع التأثير عملا فى الحياة الاجتماعية بل فى الحياة الدولية — ان صح هذا التعبير — هو ما كان خفيا يجهله مصدره كما يجهله قابله . فاذا ثبت أن اليونان مثلا كانوا يرون هذا الرأى بعينه وكان فلاسفتهم يشرحونه ويفسرونه ويدرسونه فى المدارس المختلفة ، وأن اليونان قد وصلوا الى الشرق ونقلوا اليه علمهم

وفلسفتهم وتركوا فيه عادات وضروبا من التفكير ليس الى انكارها من سبيل . واذا ثبت أن هذه الآراء أو هذا الرأى لا يلائم ما نعرفه عن بداوة العرب ولا عن صدر الاسلام ، كان من الحق أن يرجح المؤرخ أن ظهور هذا الرأى أو هذه الآراء فى الفلسفة العربية أو فى التصوف العربى — بعد أن اختلط العرب بالأمم التى خضعت لتأثير اليونان . وبعد أن تعربت هذه الأمم فكتبت علمها وفلسفتها بالعربية ، بعد أن كانت تكتبهما باليونانية — أثر من آثار الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى لا نتيجة من نتائج الابتكار العربى . وقل مثل هذا فى الفقه ، فنحن نعلم أن العرب لم يترجموا فقه الرومان ولم يدرسوه درسا منظما ، ولكنا لا نشك فى أن الفقه الاسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى قليلا أو كثيرا سواء أعلم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا . ذلك لأن البلاد الاسلامية قد خضعت لحكم الرومان وقوانينهم دهرا ، ولأن هذه القوانين قد درست درسا مزهرا فى الشام والجزيرة ومصر . فيجب أن يترك حكم الرومان وقوانينهم ودرس هذه القوانين آثارا قوية فى حياة الشعوب التى خضعت لها وأن تتكون من هذه الآثار الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب ، والعرب لم يهدموا كل شىء ، وانما صبغوا أكثر الأشياء التى وجدوها بالصبغة الاسلامية ، فليس غريبا بل ليس من شك فى أن كثيرا من أحكام الفقه الرومانى قد اصطبغت بالصبغة الاسلامية

دون أن يشعر الفقهاء بذلك . فنحن نحسب هذه الأحكام اسلامية خالصة حين هى اسلامية رومانية . لا يغضب العلماء فأنا أذكر الفروع لا الأصول ، ولعلهم لا ينكرون أن الفقهاء يعتبرون العرف فى كثير من مسائل الفقه ، وأن هذا العرف انما يكون من النظام اليونانى والرومانى والفارسى ، هذه النظم التى تعاقبت على الشام ومصر والجزيرة واذن فهناك تأثير خفى قد يكون أشد وأقوى من التأثير الواضح الذى تحدثه الأمم بعضها فى بعض ، ومن الاسراف أن نقطع بأن هذا الرأى أو هذه النظرية أثر عربى خالص أو أثر يونانى خالص ، وانما سبيل القصد فى ذلك — اذا لم توجد النصوص — هو ترجيح تأثير الأمم بعضها فى بعض حتى يظهر ما يبين خطأ هذا الترجيح .

حول هذه النقطة دارت المناقشة ولم يستطع الأستاذ « ماسينيون » أن ينكر صحة هذا الاستدلال . ولكن الذى أعجبنى فى هذا كله أن خمسة أو ستة اشتركوا فى هذه المناقشة غير الأستاذ « ماسينيون » وغيرى . وكان منهم الفرنسى والانجليزى وكانوا جميعا يلمون بتاريخ الدين الاسلامى الماما حسنا يمكنهم من المناقشة والاستدلال ببعض النصوص ، بل ان أحدهم كان يستدل بنصوص لا نستطيع نحن فى مصر أن نستدل بها مع أنها نصوص اسلامية لأنها نصوص فارسية ولأن علماء الدين الاسلامى فى

مصر يكتفون بدرس شيء من الكتب العربية . وليس منهم من يتخصص بدرس تاريخ الدين الإسلامى عند الفرس أو عند الهنود وبقراءة ما كتب الفرس أو ماكتب الهنود فى الدين . وحسبك أن المئات من علماء الاسلام فى مصر لا يعرفون الا اللغة العربية ، ولست أطالب العلماء بدرس اللغة الفرنسية والانجليزية فقد يكون ذلك واجبا محتوما ، وانما أطالبهم بشيء آخر أشد من هذا وجوبا وهو أن يدرسوا الدين الاسلامى كما ينبغى . والدين الاسلامى عربى ولكن أمما غير العربية قد اعتنقته ودرسته وكتبت فيه ، وأؤكد للعلماء أن الدين الاسلامى قد أثر فى هذه الأمم كثيرا وتأثر بها كثيرا ، واذن ؟ واذن فمن الحق على علماء الاسلام أن يدرسوا تاريخ الاسلام لا فى مصر والشام وحدهما ، بل فيهما وفى بلاد الاسلام الأخرى . ولو أنى من علماء الاسلام ، ولو أن لى كلمة مسموعة بين علماء الاسلام ، لاقترحت وألححت فى الاقتراح أن تدرس اللغات الأجنبية الاسلامية فى الأزهر الشريف وأن تكون هناك فصول تتخصص فى درس الفارسية وأخرى فى درس التركية وأخرى فى درس اللغات الاسلامية التى ليست تركية ولا فارسية. فمن المؤلم ومن المخزى أن تدرس كتب الدين التى كتبت بالفارسية أو بالتركية أو بلغة أخرى من لغات الهند مثلا فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وأمريكا وأن يجهلها علماء الاسلام فى الأزهر الشريف .

والأزهر الشريف بعد هو الجامعة الاسلامية الكبرى !!!

هلموا أيها السادة العلماء طالبوا بأن تدرس اللغات الاسلامية فى جامعتكم الاسلامية درسا مفصلا نافعا فانكم ان لم تفعلوا أضعتم على الأزهر حقه فى أن يكون الجامعة الاسلامية الكبرى. وليس ينبغى أن تكون مدرسة اللغات الشرقية فى باريس أنفع من الأزهر الشريف .

أليست المطالبة بهذا والالحاح فيه أوفق بعلماء الدين وأجدى عليهم وعلى الدين من مطالبة من كان يطالب بأن تكون المعاهد الدينية فوق الدستور ؟

أما مساء الخميس فقد كان لذيذا لأنا قضينا شطرا منه نستمتع بلذة الموسيقى وقضينا الشطر الآخر فى بيت وزير المعارف . اجتمعنا الساعة الثانية فى كنيسة أثرية كبرى فى بروكسل هى كنيسة « سانت جودول » وكنا قد دعينا الى هذا الاجتماع لا للصلاة ولا للتقديس ، ولكن للدرس والتاريخ فى لذة ومنفعة . هنا خطبنا قسيس فلم يتحدث الينا فى دين المسيح ولم يفسر لنا اصحاحا من الانجيل أو آية من التوراة . وانما تحدث الينا فى الفن، وتحدث الينا فى الآثار ، ذلك أن هذه الكنيسة قديمة بعيدة العهد بالتاريخ، بدىء فى انشائها فى القرن الثانى عشر واختلفت عليها أطوار الفن

والعمارة الى آخر القرن السابع عشر . فخطبنا هذا القسيس ساعة وبعض ساعة مبينا لنا هذه الأطوار المختلفة التى مرت بها الكنيسة مقارنا بين هذه الكنيسة وبين ما يشبهها من كنائس فرنسا والمانيا من الوجهة الفنية الخالصة ، مناقشا آراء بعض الفنيين والأثريين من الألمان والفرنسيين ، لأن هذه الكنيسة لاتزال تشغل الباحثين الى اليوم والى الغد ، أعترف بأنى لم أكن أفهم شيئا كثيرا من خطبة القسيس لأنى لست أثريا ولا فنيا ولا أكاد أتصور فن العمارة ، ولكنى مع هذا كنت أعجب بهذا القسيس اعجابا شديدا لا يعدله الا اعجابى بقسيس آخر خطبنا فى المؤتمر خطبة ليس بينها وبين الدين صلة لأنها كانت تتناول نسخة قديمة يختلف العلماء فى تحديد العصر الذى نسخت فيه ، فيرى بعضهم أنها نسخت فى القرن العاشر وبعضهم قبل ذلك وبعضهم بعد ذلك ويحكم القسيس بين هؤلاء العلماء المختلفين . كنت اذن أعجب بهذين القسيسين ، ولعل مصدر اعجابى بهما لايخفى على السادة العلماء . وأنا أعتذر الى السادة العلماء ، فلست أريد أن أغضبهم وما أبغى بهذا الحديث الا الخير لهم ولنا . ذلك لأن علماءنا لايستبدون بملك أنفسهم فلنا عليهم بعض الحقوق لأننا نريد أن يكون علماء الدين فينا أئمة وفخرا فى وقت واحد . ويؤلمنى جدا أن أقارن بينهم وبين رجال الدين فى أوربا ، لأن هذه المقارنة لاتسرهم ولا ترضيهم

كما أنها لاتسرنا ولا ترضينا وكما أنها تدل على أن الفرق عظيم جدا بين علماء الدين اليوم وبينهم منذ قرون .

هذا قسيس قد درس دينه فأتقنه وهو يؤدي واجبه الديني . وأؤكد لك أن الواجب الديني الذي يؤديه القسيس أشق وأعسر وأشد استغرقا للوقت من الواجب الديني الذي يؤديه العالم المسلم لأن الاسلام دين هين لين سهل لا كلفة فيه ولا تعقيد . وحسبك أن صلاة المسلم تستغرق دقائق ، وأن صلاة القسيس المسيحي لاتقاس بالدقائق . وحسبك أن العالم الديني عندنا اذا صلى وأدى واجباته الدينية الشخصية وألقى درسه أو درسيه فهو حر . وأن القسيس ليس له من الحرية مثل هذا المقدار العظيم . ومع ذلك فالقسيسون في أوروبا لايكتفون بدرس الدين وأداء واجباتهم الدينية ، وانما كثير منهم رجال دين ورجال علم ، وكثير منهم رجال دين ورجال فن ، وكثير منهم يستطيع أن يناهض العلماء والفنيين الذين اختصوا بالعلم والفن فينهضهم ويتفوق عليهم . وهذان القسيسان اللذان ذكرتهما قد اختص أحدهما بفن العمارة واختص الآخر بعلم من علوم التاريخ . وأؤكد لك أن لجنة من لجان المؤتمر لم تكن تخلو من قسيس وأن اللجنة التي كنت فيها كان يرأسها قسيس ، وأنه أظهر عناية شديدة بصبح الأعشى وما يشتمل عليه صبح الأعشى، وأؤكد لك شيئا آخر وهو أن الفلاسفة

اذا ائتمروا فسيشترك معهم القسيسون ، وأن علماء الكيمياء اذا ائتمروا فسيشترك معهم القسيسون ،وقل مثل ذلك فى الأطباء وقل مثل ذلك فى علماء الحياة ، وقل مثل ذلك فى علماء الرياضة . ومالى أذهب بعيدا وفى مصر مدارس اليسوعيين ومدارس الفرير ، وفى فرنسا جامعات تقوم على رجال الدين ويدرس فيها أبناء الأرستقراطية المحافظة ، فاذا تقدموا الى الامتحانات العامة فى الجامعات الحكومية لم يكونوا أقل نجاحا من غيرهم وربما كانوا أكثر منهم فوزا .

فأحب الآن أن تحدثنى عن علمائنا فى مصر ، مع من يستطيعون أن يأتمروا ؟ أمع المؤرخين وهم يجهلون جهلا تاما تاريخ أوروبا وأمريكا بل تاريخ الشرق بل تاريخ اليونان والرومان . وأستحيى أن أذكر تاريخ الاسلام ؟ أمع الجغرافيين أم مع الرياضيين أم مع علماء الحياة ؟ سينعقد فى مصر مؤتمر جغرافى بعد سنتين ، فهل يشترك فيه علماء الدين ؟ ذلك لأنى لقيت فى بروكسل أسقفا فرنسيا سألنى عن جمعيتنا الجغرافية الملكية وعلمت منه أنه سيشترك فى مؤتمرنا الجغرافى ، وثق بأنه لن يكون الوحيد من رجال الدين المسيحى فى هذا المؤتمر .

أليس يحسن ؟ أليس يجب على علماء الاسلام فى مصر أن يبذلوا ما يملكون من جهد وقوة ليكونوا كغيرهم من رجال

الدين ؟ ليكون منهم المؤرخ والجغرافى وعالم الكيمياء وعالم الطبيعة والفلكى (وانما أريد الفلكى الحديث) كما أريد اذا ذكرت المشتغل بالطبيعة من لا يكتفي بدرسها فى اشارات ابن سينا .

أيشعر علماء الدين عندنا بهذا البون الذى يباعد بينهم وبين علماء الدين فى أوربا ؟ أيشعرون بأنهم يحسنون الى أنفسهم ان أزالوا هذا البعد ؟ ويحسنون الى أمتهم أيضا لأنها تستطيع يومئذ أن تعتز بهم حقا وأن تأتم بهم حقا فى دينها ودنياها ؟

سمعنا خطبة القسيس ، ثم سمعنا بعدها ضروبا من الموسيقى الدينية القديمة التى أحدثها يرجع الى القرن الخامس عشر ، وأشهد أنى أعجبت بهذه الموسيقى وأشهد أنى طربت لهذا الغناء اللاتينى الجميل . ولكنى لا أطالب بأن أسمع موسيقى أو غناء فى مساجدنا ، فأنا أعلم أن مساجدنا انما أنشئت لذكر الله ، ولذكر الله فى سذاجة وسهولة . لا أطالب بذلك ولا أفكر فيه ، وحسبى أن التذكر فى المسجد بترتيل القرآن الكريم . وانما أطالب بشىء وألح فيه الالحاح كله ، أطالب بأن يكون من بين علمائنا من يستطيع أن يحدثنا عن تاريخ الأزهر الشريف ، وجامع قلاوون وجامع برقوق ، من الوجهة الفنية كما استطاع قسيس بروكسل أن يحدثنا عن كنيسة « سانت جودول » .

سمعنا الموسيقى وطربنا لها ، ثم أردنا أن ننصرف فاذا اكليل

من الزهر ضخم بديع قد وضع ناحية فى الكنيسة . واذا قوم من جماعة المؤرخين قد تقدموا فحملوه ومضوا فتبعهم المؤتمرون فى وقار واجلال ، وما هى الا دقائق حتى وصلنا الى قبر الجندى المجهول ، فاذا هذا الاكليل يمثل تحية مؤتمر العلوم التاريخية لأبناء بلجيكا الذين قضوا فى الدفاع عن وطنهم .

أما ليلتنا عند وزير المعارف فلا أحدثك عنها الا بشىء واحد وهـــو أن جميع المؤتمرين كانوا فى قصر الوزير ، وكان معهم سفراؤهم أو وزراؤهم المفوضـون الا مصر ، فلم يكن لها سفير ولم يكن لها وزير مفوض ، ولم يكن لحكومتها مندوب وانما كان هناك طربوش حائر بين هذه الجماعات . ولولا أن وزير المعارف كان قد أنبىء بمكان هذا الطربوش لما شعر به أحد . ولكن الوزير أقبل ومعه رئيس مكتبه فحيانى تحية حسنة ودعانى مندوب مصر فلم أصلح خطأه . ثم لقيت أثناء السهرة مؤرخا شابا بولونيا تعرف الى لأن زوجه تعرفت الى زوجى ودعاها الى هذا التعرف الطربوش ، وكان هذا العالم البولونى الشاب مندوب عصبة الأمم فى مؤتمر العلوم التاريخية . لأن عصبة الأمم قـــد مثلت نفسها فى مؤتمر العلوم التاريخية وكيف لا تفعل وقد أنشأت لجنة علمية سمتها لجنة التعاون العلمى ؟

صافحنى هذا الشاب وقال : هناك مسألة تحـــيرنى ولعلك

تجيبنى عليها ، ما بال مصر لم تمثل فى عصبة الأمم ومتى تطلب هذا التمثيل ؟ هنا أعترف أيها القارىء بأنى كذبت ولم يكن مصدر الكذب الا الحياء ، ذلك لأنى أجبت سائلى على الفور : « ستطلب مصر الانضمام الى عصبة الأمم فى هذه السنة » . قال صاحبى : اذن فسيرد طلبها قبل انعقاد الجمعية العمومية ؟ قلت : أعتقد ذلك .

فهل لرئيس الوزراء أن يعفينى من خزى هذه الكذبة التى لم يضطرنى اليها الا تقصير حكوماتنا وتفريطها فى الاستمتاع بما لنا من حق ؟

باريس فى ٧ مايو سنة ١٩٢٣ .

كان يوم الجمعة ١٣ ابريل يوم الشرق فى المؤتمر وبعبارة أخرى يوم مصر . ولم يكن يوم الشرق أو يوم مصر فى المؤتمر وحده بل كان فى بروكسل كلها .. فقد اشترك كثير جدا من أهل هذه المدينة رجالا ونساء فى جلسة المؤتمر العامة التى عقدت بعد الظهر لسماع خطيبين تكلم أحدهما عن استكشافات فرنسية على شاطىء الفرات ، وتكلم الآخر عن مقبرة توت عنخ آمون ، وكان كلا الخطيبين يصطنع الفانوس السحرى لعرض صور مما استكشف على شاطىء الفرات أو فى مصر ، وكانت الصحف قد أعلنت هاتين الخطبتين وتحدثت بهما ، فأسرع المؤتمرون وغير المؤتمرين الى استماعهما ، وما أشك أننا كنا آلافا من الساعة الثانية الى الساعة الخامسة بعد الظهر . على أن صباح هذا اليوم قد أنفق فى أعمال هادئة فاجتمعت اللجان وسمعت ما ألقى فيها من الخطب وما قدم اليها من المذكرات . وسمعت أنا فى صباح هذا اليوم مذكرات ثلاثا ممتعات : احداها فى نقد بعض الطبعات لمحفوظات رسمية فرنسية تتصل بما قبل الثورة ، والأخرى فى اظهار تزوير كتب رسمية نشرها أحد السفراء الرسميين للويس

الرابع عشر عن أعمال قام بها فى انجلترا وهولندا باسم لويس الرابع عشر ، والثالثة فيما كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا وبولونيا بعد الحرب الكبرى . ولكنى لا أطيل فى ذكر هذه المحاضرات وقيمتها فقد لا تصلح الصحف السيارة لمثل هذه المباحث العلمية الجافة التى ليس بينها وبين مصر صلة ما .

عدنا الى الاجتماع اذن بعد الظهر وكأن رئيس المؤتمر كان يشعر بشوق الناس الى استماع هاتين الخطبتين ، وكان يجد لذة شيطانية فى ممانعة هذا الشوق ؛ فقدم الى الخطابة عالما روسيا تحدث عن التاريخ الرومانى وعما كان من الأزمة الاجتماعية فى الامبراطورية الرومانية أثنـاء القرن الثالث بعد المسيح وكانت خطبته لذيذة مفيدة ، وكان الناس يستمعون لها فى شىء من الضجر والسأم لأنهم لم يحضروا لاستماعها وانما حضروا لشىء آخر ؛ ومع أنه أطال فلم يكتف رئيس المؤتمر بخطبته بل قدم أمريكيا تكلم عن أخلاق « كاترين دى ميديسيس » وكان يتكلم بالانجليزية فلم يفهمه الا قليلون ، ثم قدم الرئيس خطيبا ايطاليا تكلم عن نقوش مسيحية استكشفت فى ايطاليا وعن جمعيـة ايطالية أسست للبحث عن النقوش المسيحية التى نقشت بعد انتهاء عصر التاريخ القديم ، وقدم الى المؤتمر مجلدات نشرتها هذه الجمعية مشتملة على بعض هذه النقوش . ثم قدم الأستاذ

« كيمون » فتحدث عن الاستكشافات الفرنسية على شاطىء الفرات ، هنا ابتهج الناس وأظهروا سرورا ما أظن الا أنه ساء الخطباء الأولين . وكانت خطبة الأستاذ « كيمون » ألذ ما سمعت في المؤتمر ، بل أعترف بأنها لذتني أكثر من الخطبة التي تلتها عن مقبرة فرعون .

ذلك لأن هذه الخطبة التي تناولت استكشاف الفرات كانت تتناول موضوعا أفهمه وأستطيع أن أستفيد منه فائدة ما . ولم يكن هـذا الموضوع ضئيلا ولا قليل الخطر وانما كان عظيم الخطر جـدا . وحسبك أن هذه المدينة التي استكشفت وهي مدينـة « دورا » كانت من أعمـال « تدمر » وكانت ملتقى لحضارات ثلاث ،كلها تعنينا ، وكلها نستطيع أن نفهمها ونستطيع أن نبحث عنها ونخرج من البحث بشيء من الفائدة . كانت ملتقى الحضارة السامية والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية . وقد استكشفت هذه المدينة أثناء الحرب ولكن استكشافها والبحث عنها لم يتما الا في ديسمبر الماضي . فاذا الآثار اليونانية والسامية والرومانية متجاورة يفسر بعضها بعضا ويضيف بعضها الى بعض ، واذا نقوش سـامية ويونانية ولاتينية توجـد في المعابد وعلى الجدران . واذا الفن اليوناني والسامي يمتزجان ويؤثر كلاهما في صاحبه . واذا الساميون يتعلمون اليونانية ويصطنعون الفن

اليونانى ويتسمون بالأسماء اليونانيــة ويؤدون العبادة لآلهتهم الســامية فى ضروب ليست بالسامية الخالصــة ، ولا باليونانية الخالصة ، وانما هى مزيج مما ألف الجنسان . واذا الساميون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخلون فى فنهم شيئا من رقة الفن اليونانى . واذا اليونانيون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخـلون فى فنهم شيئا من غلظة الفن السامى . وكان أجمل ماعرض ، فأعجب الناس صورة فوتوغرافية لتمثال الزهرة الهة الحب . فاذا هى صورة سامية ، واذا الالهة تمثل امرأة شرقية تمتاز بما كان يمتاز به مثال الجمال الشرقى فى هــذه القرون الأولى للتاريخ المسيحى من الضخامة والفخامة وكثرة الحلى والميل الى شىء من النعومة والاسراف فى الترف ، يخالف ما ألف الناس فى الفن اليونانى من صور « افروديت » الهة الحب والجمال التى كانت — على أنها مصدر الفتنة — لا تخلو من قوة وشهامة توشك أن تكون حربية . واذا هذه المدينة الصغيرة التى لم يتم درسها بعد تمثل ما كان من الجهاد بين الامبراطورية الرومانية وبين الامبراطورية التدمرية . فقد نرى أن الساميين واليونانيين قد وجد بينهم اختلاط شديد ، بل امتزاج شديد فكان بينهم الاصهار والتزاوج . وأثر هذا الامتزاج فى فنيهم فأخذ من جديد يوجد فن ليس هو بالسامى القديم ، ولا باليونانى القديم. ولكن الآثار

الرومانية منفصلة أو تكاد تكون منفصلة انفصالا تاما عن الآثار اليونانية السامية .

أعجبت بهذه المحاضرة لأنى ألم بشىء من التاريخ اليونانى ، وبشىء من التاريخ الرومانى ، وبشىء من الجهاد بين « تدمر » ورروما ، ولأن اسم تدمر يذكرنى الزباء وما روى عنها فى أمثال العرب من هذه الأساطير اللذيذة التى تفيض حكمة وتملؤها الأمثال السائرة . ولكنى لما سمعت خطبة الأستاذ « كابار » الذى رافق ملكة بلجيكا فى مصر لم أجد ما كنت أنتظر أن أجد من اللذة . وبينما كان الناس يعجبون ويصفقون كنت أنا هادئا مطمئنا . ولعلى أعرف سبب هذا الهدوء والاطمئنان . فأنا أولا أجهل التاريخ المصرى القديم ، ولا أعرف منه أو لا أكاد أعرف منه شيئا . فاذا سمعت أخبار توت عنخ آمون أو غيره من فراعنة مصر لم تحدث هذه الأخبار فى نفسى هذه الحركة العلمية التى تحدثها أخبار اليونان والرومان والعرب فتمكننى من أن اصل شيئا بشىء وأنتقل من شىء الى شىء ، أن تمكننى من أن أستفيد فائدة علمية ما . ومثل هذا يستطيع أن يقوله الذين يعلمون تاريخ مصر القديم ويجهلون تاريخ الرومان واليونان والعرب ، وان كان هؤلاء الناس لا يكادون يوجدون . فاذا وجد مصرى يجهل تاريخ مصر فقد لا يوجد أجنبى يجهل تاريخ اليونان والرومان . فاذا

أضاف اليهما تاريخ مصر استطاع أن يعجب بمحاضرة الأستاذ « كيمون » وبمحاضرة الأستاذ « كابار » فاذا سألت عن مصدر هذا النقص الذى يجده المصرى فى نفسه حين يشعر بجهل تاريخ مصر ، وحين يسمع محاضرة فى تاريخ مصر فلا يلذ لها كما يلذ لها الانجليزى والفرنسى فالجواب يسير وهو تقصير الحكومة المصرية أو وزارة المعارف المصرية فى نشر التاريخ المصرى . فلو أن التاريخ المصرى القديم يدرس فى مصر كما ينبغى لكان لكل مصرى متعلم حظ من الاعجاب بما استكشف اللورد كارنارفون. ولكن ماذا تقول وفى مصر أساتذة فى الأدب والحقوق والفلسفة والطب يجهلون تاريخ مصر ولا يعرفون من أمر توت عنخ آمون الا مايقرءون فى الصحف وكثير منهم لايقرءون ماتنشره الصحف. يجب أن نحمد الله على صدور الدستور فلن يغفر البرلمان فى المستقبل لوزارة المعارف المصرية مثل هذه الجرائم .

وهناك سبب آخر حال بينى وبين الاعجاب بخطبة الأستاذ « كابار » وهو أن الأستاذ لم يقل شيئا جديدا أكثر مما نشرته « التيمس » و « السياسة » . فكان من المعقول وقد قرأت هذا وذاك ألا يشتد اعجابى به حين يعاد . وهل أستطيع أن أضيف سببا ثالثا أعترف بأنه لا يليق بعضو فى مؤتمر علمى وهو أن الأستاذ « كابار » كان شديد الميل فى محاضرته الى الانكليز

وكان يسرف فى الثناء عليهم وعلى مابذلوا من جهد وما أدوا الى مصر والى العلم من خدمة . وكنت أحب أن تذكر مصر بشىء من الخير وان لم تكن أهلا له فى هذا الموضوع لأنها لم تعمل شيئا فى استكشاف مقبرة توت عنخ آمون . ومهما يكن من شىء فقد خرجت عن طور العلماء وضاق صدرى بهذا الثناء الكثير يهدى الى الانجليز كنت متأثرا بالسياسة أكثر مما كنت متأثرا بالعلم .

كان اعجاب الناس شديدا جدا بهذه الصور الفوتوغرافية التى عرضها الأستاذ « كابار » ولا سيما السيدات ، فقد كانت هذه الصور وصور الجواهر بنوع خاص تفتنهن فتنة شديدة فيصفقن ويتهامسن ويجتهدن فى أن يملأن أعينهن بهذه الصور التى لن تلبث أن تلهم الصاغة وأصحاب الفن فتعرض جواهر على مثالها فى الأسواق والمحال التجارية . ولعل كثيراً من هؤلاء السيدات كن يتحدثن الى أنفسهن باليوم الذى يستطعن فيه أن يتخذن من الحلى والآنية ما يشبه الحلى والآنية التى وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون .

كانت هذه الجلسة جلسة مصر أعجب فيها الناس اعجابا شديدا بمصر القديمة وذكروا فيها مصر الحديثة . وكانت هذه الجلسة آخر الجلسات العلمية للمؤتمر . فنستطيع أن نقول أن

هذا المؤتمر ابتدىء بذكر مصر فى تحية الملكة وختم بذكر مصر فى خطبة الأستاذ « كابار » .

ذهبنا بعد ذلك الى قصر البلدية فتناولنا هناك الشاى . وكنت أحب أن أصف لك ما فى هــذا القصر من آيات الفن ولكنى مع الأسف قاصر عن هــذا كل القصور ثم كان يوم السبت فانقسم قسمين : أما الصباح فخصص لزيارة دار المحفوظات (الدفترخانة) وأما المساء فخصص للتفرق فى أنحاء بلجيكا القريبة من بروكسل والتى تمثل فائدة تاريخية ما . أريد أن أذكر دار المحفوظات هذه وأريد أن أقارن بينها وبين دار المحفوظات فى مصر . ولكن أصول المقارنة تنقصنى لأنى أجهل نظام الدفترخانة المصرية ولا أعلم من أمرها الا أن زيارتها مستحيلة على العلماء والباحثين الا بعد عناء ومشقة واذن من وزير المالية قلما يظفر به من يطمع فيه . فالدفترخانة المصرية ديوان من دواوين الحكومة تنتفع به الحكومة وحدها فى أعمالها الرسمية ولا ينتفع به العلماء والمؤرخون . بل لست أدرى علام تشتمل الدفترخانة المصرية ؟ وهل فيها حقا ما يفيد المؤرخ اذا أراد أن يبحث عما قبل العصر الحديث الذى نعيش فيه ؟ والى أى عصر من عصور مصر التاريخية يرجع أقدم ما فى الدفترخانة المصرية من المحفوظات . لا أعلم من هذا شيئا كما أنى لا أعلم شيئا من النظام الذى يصطنع فى الدفترخانة المصرية ولا مما يتخذ فيها

من وسائل الاحتياط لوقاية الأوراق والمحفوظات القديمة ،
ولا شيئا من النظام الذى يتخذ لتسجيل هذه المحفوظات واتخاذ
فهارس وأثبات تسهل البحث على من يريد أن ينتفع بها . أجهل
اذن مقدار المحفوظات المصرية وقيمتها ونظم حمايتها والانتفاع بها .
ولكنى أعلم أن قسما واحدا من أقسام الدفترخانة البلجيكية يشتمل
على أكثر من ٥٠٠٠٠ دفتر من دفاتر الحساب والقرارات التى
كانت تتخذها الحكومات المختلفة منذ القرن الثالث عشر الى الآن.
وأعلم أن هذه الدفترخانة البلجيكية كغيرها من دور المحفوظات فى
أوربا مباحة العلماء والباحثين . قد اتخذت فيها كل الوسائل التى
تمكن العلماء من البحث وتسهل عليهم أسبابه ، فاتخذت فيها
الأثبات المتقنة والفهارس البديعة واختص بكل قسم من أقسامها
نفر لا أقول من الموظفين وانما أقول من العلماء النابهين يقومون
على حفظه وتنظيمه والاستفادة منه وتسهيل الاستفادة على من
أرادها سواء أكان بلجيكيا أم أجنبيا . ولكن فى دار المحفوظات
البلجيكية شيئا أعجبت به حقا وأتمنى على الحكومة المصرية أن
توجد لنا مثله فى مصر لأنه يفيد فائدة لا تقدر سواء فى ذلك
الدفترخانة ودور الكتب المختلفة . وجدت فى دار المحفوظات
البلجيكية معملا واسعا فيه كثير من العمال يشتغلون فى أشياء
مختلفة غريبة ، يشتغلون مثلا فى تنظيف الأوراق القديمة التى

بعد بها العهد وأفسدها الزمان فطمست الأحرف التى فيهـا ، ويشتغلون بتقوية الأوراق التى بعد بها العهد وأفسدها الزمان فوهنت ورثت حتى أصبحت لا تحتمل لمس الأيدى ، ويشتغلون بما يشبه هذا مما يمكن من الاستفادة بكل ورقة قديمة مخطوطة مهما تكن أعراض البلى التى أصابتها . ولقد رأينا العمال يشتغلون فى ذلك .رأيناهم قد أخذوا أوراقا قذرة لا تكاد تقرأ بل لا تقرأ : فما زالوا بها فى غسل وتنظيف حتى زال عنها الدنس وبدت أحرفها جلية واضحة للقارىء ، ورأيناهم يتخذون أوراقا بالية لا تكاد تمس فما يزالون بها يسلطون عليها بعض مواد الكيمياء حتى تقوى وتثبت وتستطيع أن تتناولها وتقلبها كما تقلب ورقة صنعت أمس . أليس مثل هذا المعمل مفيدا فى مصر ؟ أليس الأستاذ لطفى بك السيد محتاجا الى مثله فى دار الكتب المصرية ؟

شىء آخر أعجبنى هو استفادة دار المحفوظات البلجيكية استفادة تجارية بما يوجد فيها من المحفوظات . ففيها نماذج لاتكاد تحصى لأختام الملوك والأمراء والقواد والامبراطرة والرؤساء على اختلافهم منذ القرون الوسطى . فهى تنتفع بهذه النماذج فتتخذها على المعدن أو على الجبس أو على غير ذلك وتعرضها للبيع . وأؤكد لك أن تهافت الناس عليها شديد ، ولا سيما العلماء وأصحاب الفن والآثار الذين يريدون أن يدرسوا هذه النماذج كل من وجهتـه

الخاصة . فهم لا يطلبون الدفاتر والأوراق وهم ان استطاعوا أن ينظروا الى هذه الدفاتر والأوراق لا يستطيعون أن ينقلوها ولا أن يستعيروها ولا أن يخرجوها من دارها فضلا عن بلجيكا . بينما هذه النماذج المصنوعة مباحة لهم يصنعون بها ما يشاءون ، وهذه النماذج ليست سهلة ولا يسيرة فلا بد من أن تتخذ بطريقة علمية . ولا بد من أن تنظم وترتب وتتخذ لها الفهارس والأثبات . ولست أنسى محاضرة ألقتها علينا فى دار المحفوظات فتاة بلجيكية هى القائمة بالقسم العلمى من ادارة هذه النماذج . ولست أنسى مناقشة كانت بينها وبين عالم فرنسى فى نظام « الفيش » الذى يجب أن يتخذ لهذه النماذج . لا أنسى هـذه الفتاة ولا أنسى محاضرتها ولا مناقشتها . وأتمنى على الله أن أجد بين فتياتنا بل بين كهولنا من يستطيع أن يقـوم فى دار المحفوظات المصرية أو فى دار الكتب المصرية مقام هذه الفتاة البلجيكية .

تفرقنا بعـد الظهر فاخترت الذهاب الى « واترلو » ولكن لا أستطيع أن أذكر لك من أمرها شيئا . فقد تغيرت فيها المعالم ، ومحيت فيها آثار هذا اليوم العظيم الذى اندك فيه عرش نابليون. وكل ما هو قائم فيها الآن صناعى متكلف الا القليل .

ولكنى لاحظت شيئا له قيمته فى هذه الأيام وهو أن الذين ذهبوا الى واترلو كانوا جميعا من الانجليز ولم يكن منهم فرنسى

واحد الا زوجي ، أما الفرنسيون فتفرقوا الى الجهات الأخرى حول بروكسل .

ثم اجتمعنا يوم الأحد فى الجلسة الأخيرة للمؤتمر فاتخذت قرارات مختلفة أهمها هذا القرار الذى أتمنى ألا تهمله مصر ، وهو تأليف جمعية تاريخية دولية دائمـة تشترك فيها الأمم على اختلافها الا ألمانيا طبعا . اتخذ هذا القرار وظل مجلس ادارة المؤتمر باقيا بعد انحلال المؤتمر لوضع نظام هذه الجمعية ، فهل تتصل بها مصر ؟ وهل تقوم بما عليها وبما لها من الحق فى خدمة التاريخ ونشر التاريخ ؟

الكلمة فى ذلك الى وزارة المعارف .

باريس فى ١٠ مايو سنة ١٩٢٣ .

القسم الثالث
خواطر سائح

١

في الطريق

كانت السفينة تجرى فى بحر هادىء مطمئن . وكانت نفوس السفر هادئة مطمئنة أيضا ، وكان قد شمل السفينة ومن فيها شىء من الدعة والأمن لا يكاد يوصف كأنما اشترك فى تكوينه هدوء البحر وجماله ، وصفو السماء واشراقها ونزوع المسافرين جميعا الى هذا الأمل الذى كانوا يترقبونه منذ حين والذى هم مشرفون عليه الآن وهو الراحة بعد تعب والهدوء بعد اضطراب وكنت أشد الناس اطمئنانا وأكثرهم دعة وأعظمهم اغتباطا بالحياة ، أفكر فيما تركت من ألم وأتمثل ماأستقبل من لذة وأعبث من حين الى حين مع هذين الطفلين المبتسمين اللذين لا يعرفان من الحيــاة الا صفوا وابتهاجا . كنت أقص على ابنتى ألوانا من أحاديث « هوميروس » فى « الأودسا » فأجد منها ابتهاجا للقصص واستعذابا للحــديث فأمضى فى القصص والحديث وتغرق هى فى اللذة والابتهاج ، ثم تسألنى أحق هذا الحديث أم أنت تمزح ؟ فلا أجد لهذا السؤال جوابا . لست أمزح وانما أقص شيئا قرأته وابتهجت له ، وقرائه

الأجيال من قبلى وابتهجت له ، وسمعته أجيال قبل هذه الأجيال فابتهجت له وآمنت به واتخذته يقينا بل اتخذته دينا . وهل كان يخطر لأحد من أولئك اليونان الذين كانوا يستمعون لأقاصيص الأودسا وأعاجيبها أن يسأل المنشد : أحق هذا الحديث أم أنت تمزح ؟ كلا ! لقد كان هؤلاء الناس يؤمنون بأعاجيب الأودسا وأساطيرها كما تؤمن أنت وأنا بالبخار والكهرباء . وكانوا يتخذون من أحاديث الأودسا وأعاجيبها مقاييس للخير والشر ونماذج ينظمون عليها حياتهم الخاصة والعامة كما نبحث نحن عن هذه المقاييس والنماذج فى علم الأخلاق والاجتماع الآن . ثم تتابعت الأجيال واتصلت العصور وتطور العقل الانسانى حتى أصبحت هذه الطفلة فى السابعة من عمرها تسألنى حين أقص عليها أحاديث الأودسا وأعاجيها وأخبار السندباد البحرى : أحق هذا الحديث أم أنت تمزح ؟ وكنت أترك ابنتى تلاعب أخاها وتلهو مع أترابها وأنصرف الى قرينتى فنأخذ فى ألوان من الحديث منها الجد والهزل وربما انتهزنا غفلة الطفلين فقرأنا فصلا من كتاب أو مقالا من صحيفة حتى اذا أقبل الليل جلس السفر بعضهم الى بعض يتحدثون وانصرفت طوائف منهم الى « البيانو » فمنهم من يعزف ومنهم من يرقص وانصرفت طوائف أخرى الى ألوان من اللعب بين نرد وشطرنج وورق حتى يتقدم الليل . وعلى هذا النحو

قضينا أربعة أيام وبعض يوم لم تخل من بهجة لا تعدلها بهجة حين ظهرت السواحل الايطالية وحين مضت السفينة بنا فى مضيق « مسينا » فالناس جميعا ينظرون ، منهم من يعجب بالساحل وجماله ومنهم من يذكر كوارث مسينا ومنهم من يمضى فى الذكرى الى عهد بعيد فيتمثل الحياة اليونانية والرومانية والفينيقية على هذه السواحل وفى هذا البحر ويذكر ما امتلأت به هذه الحياة القديمة من لذة وألم ومن جمال وكآبة ويذكر ماتغنى به الشعراء القدماء من ألوان هذه الحياة . ثم تحدث الناس أننا سنصبح فى مرسيليا وانصرف الناس عن حديثهم ولهوهم الى حقائبهم يحزمونها والى متاعهم يعدونه . ولكن السفينة التى كانت هادئة مطمئنة أخذت تضطرب قليلا قليلا وماهى الا ساعات حتى كان اضطراب البحر قد انتهى الى أقصاه وحتى كان الناس لا يكاد يسمع بعضهم بعضا اذا تحدث بعضهم الى بعض . فالموج مصطخب والريح تعصف عصفا ، والسفينة لا تتمايل وانما يتقاذفها الموج وقضينا الليل فى هذا الهول وأصبحنا وقد أشرفنا على الساحل الفرنسى بل بلغناه ، فهذه أبنية مرسيليا يراها الناس ويشيرون اليها وليس من شك فى أننا سنترك السفينة بعد ساعة أو ساعتين . كلا ! لن نترك السفينة بعد ساعة أو ساعتين ولا ساعات . لماذا ؟ تستطيع أن تبحث وأن تتكلف العناء فى البحث دون أن تجد جوابا على هذا السؤال ، فيحسن أن أجيبك أنا .

كان بين أهـل السفينـة شرقى أخذه حر شديد بينما كانت السفينة تجتاز القناة فما هى الا أن رأى بطيخ مصر فاندفع اليه اندفاعا وأكل بطيخة بأسرها ثم كأن البطيخة لم تنقع غلته فعمد الى ماء مثلج فشرب منه ما أذن الله له أن يشرب . ولم تكد السفينة تتجاوز مصرحتى أخذ صاحبنا قىء ومشاء ودعى الطبيب فلم يؤمن للبطيخ ولا للماء المثلج ولا سيما وقد حسنت حال صاحبنا بعد يوم وليلة فلم يبق من قيئه ومشائه الا بطن منتفخ ولم يشك الطبيب فى أن الرجل مطعون ... وكان هذا الرجل فى الدرجة الرابعة فلا أحدثك عن عناية الطبيب به واشفاقه عليه . فانظر اليه تحوطه عناية الطبيب والخدم وانظر اليه فى سرير نظيف نقى وانظر اليه تقدم اليه ألوان الطعام مختارة منتقاة وانظر اليه يحمل من حين الى حين الى حيث يتنسم هواء البحر وكأن الرجـل قد استعذب هذه الحياة واستلذها فتمارض وأمعن فى الشكوى وشك الطبيب وأمعن فى الشك فأبرق الى مرسيليا أن قد ظهر الطاعون فى السفينة وكتم الطبيب وربان السفينة الخبر عن المسافرين حتى لا يأخذهم وهم ولا وجل . فلما أشرفت السفينة على مرسيليا أنبئنا أن السفينة ملوثة وأن لا بد من الحجز الصحى وأننـا سنمكث على بعد من الساحل خمسة أيام نرى الأرض ولا نستطيع أن نطأها . تستطيع أنت أن تتمثل نفسية المسافرين كما يقولون عند ما وقع عليهم هذا

النبأ وقع الصاعقة ولكن المسافرين ولا سيما الذين أبحروا من مصر ليسوا شيئا الى جانب البحارة والذين أبحروا من أقصى الشرق فقدكان هؤلاء الناس قد قضوا فى البحر شهرين أو أكثر من شهرين وكانوا يتحرقون شوقا الى فراق البحر واذا هم يقضى عليهم أن يحجزوا فى السفينة خمسة أيام وقضينا ساعات فى هذا الاضطراب . ثم أقبلت زوارق تحمل الأطباء وذاع النبأ أن هؤلاء الأطباء قد أقبلوا ليمتحنوا المسافرين واحدا واحدا فمن رأوه بريئا أذن له بترك السفينة ومن رأوه مريضا أو كالمريض حجروه . ولكن الأطباء لم يمتحنوا أحدا وانما قضوا ساعات يدفعون الى المسافرين جوازات صحية ، ويكلفونهم أن يقدموا هذه الجوازات فى أن لا يتجاوز خمسة أيام الى عمدة المدينة أو القرية التى يقصدون اليها ليتحقق هذا العمدة من أمر المسافرين أمطعونون هم أم بارئون من الطاعون ؟ وكانوا كلما دفعوا الى مسافر جوازا كتبوا كتابا الى عمدة المدينة أو القرية ينبئونه بأن فلانا قادم الى مدينته أو قريته وأن حالته الصحية تدعو الى الحذر والاحتياط فلا بد من امتحانه والاحتياط لأمره ، وانقضى أكثر النهار فى هذا العبث الصينى كما يقول الفرنسيون . وأذن للمسافرين جميعا أن يطئوا الأرض الا البحارة وعمال السفينة فقد قضى عليهم بالحجر خمسة أيام وبلغنا القرية التى كنا نقصد اليها وذهبنا فى اليوم الخامس الى العمدة وكنت أتحدث بأن لا نذهب ولكن

الجواز الصحى الذى دفع الينا كان يشتمل على طائفة من مواد القانون الصحى تبين العقوبات أو الغرامات التى نتعرض لها اذا أهملنا . فذهبنا ولم نر العمدة وانما رأينا سكرتير العمدة ، وسكرتير العمدة فى معظم القرى الفرنسية هو معلم القرية وهو يشبه فقية الكتاب عندنا . رأينا هذا المعلم وقصصنا عليه قصتنا فلم يكد يسمع أول الحديث حتى أظهر عناية ؛ لأنه تسلم كتاب الأطباء منذ أيام وأخذ يبحث عن هؤلاء المسافرين الذين يوشكون أن يحملوا الطاعون الى قريته دون أن يوفق اليهم ، فلما رآنا خيل اليه أن قد ظفر بطلبته . وأؤكد لك أننا قد تكلمنا كثيرا لنقنعه بأنه ليس فى حاجة الى احالتنا على الطبيب . على هذا النحو انتهت رحلتنا وما كنت لأقص عليك هذا القصص لولا أن فيه عبرة لا بأس بالتفكير فيها . أرأيت الى مئات من المسافرين يضطربون ويحزنون يوما كاملا ؟ أرأيت الى مصلحة الصحة فى مرسيليا تضطرب وتعنى هذه العناية وتتكلف هذه النفقات ؟ أرأيت إلى مئات من العمد فى قرى فرنسا يضطربون ويشفقون من الطاعون أن يصيب قراهم ؟ كل ذلك لأن رجلا ظمىء فأكل بطيخة وشرب أقداحا من الماء المثلج !!

أشهد أن هذه الحياة لا تخلو من عبث ، بل أشهد أن هذه الحياة كلها لون من ألوان العبث وفن من فنون المزاح ، تضحك حينا وتحزن حينا آخر ، وهى مضحكة حين تحزن ومحزنة حين

تضحك ، هى عبث كلها . نعم ! انى لأفكر فى أمر هذه البطيخة
التى استتبعت ما استتبعت من الأحداث فلا أضحك ولا أمزح ؛
وكثيرا ما ضحكت ومزحت حين كنت أفكر فى أمرها ، ولا أضحك
الآن ولا أمزح وانما أفكر فى هذا الأمر مع حزن شديد لأنى أرى
أن الحياة كلها تجرى على نحو ما جرى أمر هذه البطيخة . ذلك
أن أنباء مصر قد وصلت الى فقرأت فيها ماقرأت وابتسمت فيها
لأشياء وبكيت فيها لأشياء أخرى ولم يبق لى من هذا البكاء وذلك
الابتسام الا أنى تركت أصدقاء كنت أتمنى لقاءهم بعد عودتى
وأتحدث بما سأجد من لذة حين ألقاهم وأستأنف معهم صلات
الصفاء . وتركت كذلك خصوما كنت أفكر فى أنى سأعود الى
خصومتهم وسألقى منهم شرا وسيلقون منى شرا ، فاذا أنا الآن
مقتنع بهذه الحقيقة المؤلمة وهى أنى لن أجد هؤلاء الأصدقاء ولن
أجد هؤلاء الخصوم . لن أصافى أولئك ولن أخاصم هؤلاء ، لأن
الله قد آثرهم بالحياة فى تلك الدار التى لا تجرى فيها الأمور على
نحو ما تجرى عليه فى حياتنا من اللهو والعبث .

* * *

انتهى بنا سفر طويل لم يخل من مشقة الى هذا البلد الصغير
الذى قضينا فيه أسابيع ما أظن أنى قضيت مثلها فى بلد قبله . ليس
بالقرية ولا بالمدينة ، ولكنه شىء بين بين ، فيه حضارة المدن ولا سيما

فى الصيف حين يأوى اليه الناس من كل صوب يلتمسون الراحة ، ويستمتعون بالطبيعة التى تريك فنونا من الجمال قلما تظفر بها فى غير هذه البيئة من فرنسا ، فيه حضارة المدن وفيه سذاجة القرى فأنت تجد فيه من العادات والخصال ما يذكرك بما كنت تقرأ من تاريخ هذا القسم من فرنسا قبل أن تبلغ أوروبا ما بلغت من هذا الرقى الحديث . تجد قوما يحتفظون بأزيائهم القديمة ويتحدثون لهجتهم الخاصة التى لا يفهمها الفرنسيون من غير هذا الاقليم ، فاذا تحدثوا الفرنسية فلهم فيها لهجة تميزهم من غيرهم من الناس . ولهم عاداتهم فى عباداتهم وفى غير عباداتهم من مظاهر حياتهم العامة . ولكنى لم أكتب لأحدثك عن هؤلاء الناس ، ولا لأحدثك عن هذا البلد فلست أكتب رحلة وانما هى خواطر خطرت لى أتحدث بها اليك من حين الى حين .

لا أعرف مكانا كهذا المكان يدعو الى التفكير والتأمل ويبعث فيك نشاطا نفسيا غريبا ينطقك بالشعر ان كنت شاعرا ويحبب اليك قراءة الشعراء ان لم يكن لك حظ من الخيال . لا أغلو ولا أبالغ فأنت لا تكاد تخطو فى هذا البلد أو حوله خطوة الا سمعت هذه الأنغام الموسيقية اللذيذة التى تختلف لينا وعنفا وتتباين نحافة وضخامة والتى تتغنى بها هذه الغدران المتدفقة من أعلى الجبل . فى كل مكان غدير ينحدر أو نهير يجرى أو سيل يتدفق . هنا غدير

هادىء يسعى فى لين ورقة فيسمعك نغما رقيقا عذبا ، وهنا نهير ليس بالهادىء ولا بالثائر تسمع له فلا تستنيم ولا تضطرب وانما تقف وقد استعذبت الحياة وودت لو تستزيد منها ، وهنالك سيل ثائر ينحدر فى عنف ويدفع بين يديه صغار الأحجار وضخامها ويسمعك هديرا كقصف الرعد يأخذ عليك سمعك ثم يأخذ عليك نفسك ثم يبهرك فاذا أنت لا تسمع من حولك ، واذا أنت كلك اعجاب بهذا الجلال الذى لا حد له . وكل هذه الغدران والنهيرات والسيول تسعى وتجرى وتتدفق شاقة غابات تختلف كثافة ونحافة وتأخذ جوانبها من كل مكان وقد اختلفت فيها الأشجار وانبثت فى أرضها أنواع من العشب والزهر لا يبلغها الاحصاء ولا ينالها العد، وامتلأ الجو من عبير هذه الأزهار وأنفاس هذه الأشجار وريح هذه الأعشاب بشىء من العطر لا تستطيع أن تميزه ولا أن تحلله الى أجزائه ولكنك تستمتع به استمتاعا غريبا وتكاد تلمس بيديك ما يبعث فى جسمك من الحياة . والى هذا النغم المائى ، والى عبير هذه الغابات تضيف الطير ألحانها المختلفة التى تصل الى أذنيك فى سهولة ويسر اذا كنت الى غدير هادىء أو نهر غير ثائر والتى لا يصل الى سمعك منها الا أطراف خفية دقيقة مختلفة اذا كنت الى سيل ثائر مضطرب . ثم أنت لا تسعى فى هذه الأرض على مكان سهل منبسط وانما أنت مصعد أبدا أو منحدر أبدا . ويظهر

أن الذين يبصرون يجدون فى هذا التصعيد والانحـدار روعة لا تعدلها روعة ، يشرفون فيروعهم منظر ثم ينحدرون فيروعهـم منظر آخر . ويظهر أن هذه المناظر المختلفة الرائعة تتباين الى غير حد باختلاف الجو صفوا وكدرا وباختلاف ما ترسل الشمس من أشعتها على هذه القمم المحيطة بك والتى يجللها الثلج أبدا والتى تقدم اليك من مختلف الألوان نماذج ساحرة .

وأجمل ما يكون هذا المكان وأشد ما تكون فيه تأثرا وشعورا بضآلة الانسان وجلال الطبيعة حين يظلم الجو وتكفهر السماء وتتكاثف السحب بعضها فوق بعض منها ما هو فوقك ومنها ما هو تحت قدميك ومنها ما يكاد يحاذيك . ثم يضطرب هذا كله ويصطدم فاذا رعد يقصف قصفا رائعا مهيبا ، واذا برق يأخذ أنحاء الجـو واذا الجبال المحيطة تردد أصداء هذا الرعد القاصف واذا هذه السحب قد انشقت فانهمر المطر انهمارا واذا هى ساعة أو بعض ساعة وقد هدأ كل شىء واستنار كل شىء وظهرت الشمس ساطعة بهية ومر بهذه الغابات والأزهار والأعشاب نسيم عليل بليل يحمل اليك عطرا نديا .

فى هذا البلد « أرجليس » « جازو » قضينا ثلاثة أسابيع ، وفيه فكرت كثيرا وتأملت كثيرا وددت كثيرا لو استطعت أن أكتب ولكن الله أراد ألا أكتب ، وكنت قد أردت ذلك أيضا .

نعم كنت قد بلغت من التعب حظا عظيما قبل أن أترك مصر ، وكنت قد انتهيت من ذلك الى أن كرهت القراءة والكتابة وكل ما يقرأ وكل ما يكتب ، فاعتزمت اذا أتاح الله لى السفر أن أقضى شهرا كاملا لا أقرأ فيه ولا أملى ولا أسمع بقراءة ولا املاء . وقد تم لى ذلك . وأقسم لقد كنت به شقيا كل الشقاء ، ذلك أنا نخطىء الخطأ كله فى تقدير آلامنا وفى تقدير لذاتنا وفى تقدير حاجاتنا . يبلغ بنا الألم أقصاه أحيانا فيخيل الينا أنه قد بلغ بنا أقصاه حقا ، وأنا لن نستطيع أن نحتمل ألما فوق ما احتملنا ، ثم نتمنى الراحة ونطمح الى اللذة فنقيس الراحة التى تتمناها واللذة التى نطمح اليها بمقياس التعب الذى لقيناه والألم الذى احتملناه ، نتمنى راحة مطلقة ولذة لا حد لها ، فاذا أتيح لنا أن نستريح فما أسرع ما نمل اللذة وما أسرع ما نتمنى الألم ، كذلك كنت فى « ارجليس » ضيق الذرع بهذه الراحة التى اضطررت نفسى اليها ، شديد السأم لهذه اللذة التى طالما طمعت فيها عظيم التمنى لذلك الألم الذى طالما شكوت منه ، وكانت زوجى تضحك منى وتتخذنى سخرية ، وربما رقت لى فقرأت على فصلا أو فصولا من كتاب ولكنها كانت قد آلت كما آليت أن أستريح فلا أحدثك عن هذه الراحة الثقيلة .

هناك خاطر يخطر لى فى كثير من الأحيان ، ولست أدرى

أيخطر لغيرى من الناس أو هو مقصور على لأن حالى الطبيعية هى التى تضطرنى اليه .. ذلك أنى أبغض نفسى أشد البغض وأبغض معها الحياة وأرى كل شىء سيئا مرذولا فأسأم كل شىء وأزهد فى كل شىء ، وانما تعرض لى هذه العلة اذا اتصلت خلوتى الى نفسى كما اتصلت فى هذه الراحة التى أكرهت نفسى عليها . اذا اتصلت خلوتى الى نفسى فلم أقرأ ولم أكتب ولم أشترك فى الحياة العامة ، وانما أنقطعت الى نفسى أحيا هذه الحياة الخاصة الفاترة التى تكاد تنحصر فى الحياة الجسمية ، فى هذا الطور من أطوار الحياة يخلو الانسان الى نفسه حقا واذا كان العقل الانسانى لا يعرف الراحة ولا يستطيعها وانما هو مفكر أبدا مشتغل أبدا فان العقل فى أول هذه الخلوة يمضى فى عمله وتفكيره معتمدا على ما بقى له من المادة الفكرية أثناء العمل وقبل الراحة . فاذا فرغ من هذه المادة بحثا وتفكيرا احتاج الى تجديدها ، احتاج الى الغذاء المعنوى كما يحتاج الجسم الى الغذاء المادى . ولكنه قد أكره نفسه على الراحة وأخذ نفسه بألا يقرأ ولا يعمل وهو مع ذلك مضطر الى التفكير بطبيعته ، وهنا الشر كل الشر ، فهو يبدأ فى أن يفكر تفكيرا خطراً ، يبدأ فى أن يتخذ نفسه موضوعا للتفكير كما تبدأ المعدة الخالية فى هضم نفسها . يفكر الانسان فى نفسه فيحللها ويبالغ فى تحليلها ويدرس الدقائق من عواطفه ومشاعره وأهوائه درسا مفصلا دقيقا فلا يرى من هذا كله الا ما يشعره بأنه ضئيل ضعيف ، بأنه ليس

شيئا يذكر ، بأنه ليس شيئا يستحق الحياة ، وربما فكر فى الحياة فرأى أنها ليست شيئا يستحق العناية ، واذن فالسأم يقوى شيئا فشيئا حتى ينتهى الى السخط والى ســوء الخلق والى التشاؤم وما أظن الا أن كثيرا من هؤلاء الفلاسفة المتشائمين قد اتخذوا مذهب التشاؤم دينا لهم لأنهم فكروا فى أنفسهم وحللوها ودرسوها أكثر مما ينبغى . لا أميل الى أن يفكر الانسان فى نفســه كثيرا فالانسان لا يستحق هذا التفكير ، وانما أميل الى أن يشغل الانسان نفسه عن نفسه بالقراءة والحديث والعمل والاستمتاع بلذات الحياة التى أباحها الله والأخلاق . ولولا هذه اللذات التى قدمت لك وصفها فى أول الكلمة ، ولولا أنى كنت أشغل بها نفسى عن نفسى كلما أحسست الحاجة الى التفكير لأصابنى شىء من سوء الخلق غير قليل . لذلك تعبت فى « أرجليس » ولم أسترح . فلم أقض يوما هادئا ولعلى لم أقض ساعات متصلة فى اطمئنان وهدوء وانما كنت طوال الوقت أضــطرب فى الأرض وأهيم فى أنحائها متنقلا من غابة الى غابة ومن شاطىء الى شاطىء ومن قرية الى قرية ، أترك هذا المرج لأسعى الى مرج آخر وأدع هــذه القرية لأزور قرية أخرى . وكذلك قضيت هذه الأسابيع لم يحس عقلى جوعا ولم يستمتع جسمى براحة . وكان من بين القرى أو المدن التى قضيت فيها يوما وفكرت فيها كثيرا مدينة « لورد » .

(البوليجين) فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

٢

مدينة لورد Lourdes

يجب أن نعدو مع الطير لندرك القطار الأول ولنبلغ « لورد » فى مبتدأ النهار . وغدونا مع الطير فاذا جو بارد يلفح الوجه زمهريره وينسيك أنك فى أواخر شهر يولية . واذا الحاجة ماسة شديدة الى المعطف ، واذن لابد من اخفاء اليدين ومن ستر العنق والوجه . ولكنا أبينا أن نصطنع من ذلك شيئا عنادا لهذا الجو ولهذه الطبيعة التى تريد أن تغير الأشياء فتقر الشتاء مكان الصيف . أبينا الا أن نحتفظ بلباس المصطافين ومضينا فى طريقنا لا نحفل بهذا الهواء البارد ولا نحفل بهذا المطر الذى أخذ ينهمر بعد حين والذى ما أسرع ما اخترق ثيابنا الصيفية وبعث فينا اضطراب العصفور بلله القطر . ولكننا مضينا فى عنادنا ولم نحفل بهذا الاضطراب وأبينا الا أن نعتبر أنفسنا فى الصيف . ولم لا ؟ ألم نتعود فى مصر ضروبا من الصبر والمقاومة وألوانا من الجلد والاحتمال ؟ ومضى القطار بنا حتى بلغنا « لورد » قبل الساعة التاسعة صباحا . فاذا مدينة كأحسن ما نعرف من المدن الفرنسية موقعا ، يشرف عليها

الجبل ويجرى من تحتها النهر ، يتردد فيها هـواء خفيف ولكنه
ممتلىء حياة ونشاطا لا يكاد يمسك حتى يجعلك حياة ونشاطا ؛
فاذا أنت أقدر ما تكون على الحركة وأرغب ما تكون فيها ، واذا
أنت أقدر ما تكون على التفكير وأشوق ما تكون اليه . ولم نكد
نترك المحطة ونندفع فى الشارع الذى ينتهى الى المغارة حتى أحاطت
بنا جموع من الرجال والنساء كلهم يعرض بضاعته وكلهم يلح فى
عرضها وكلهم يتملقك ويترضاك وما هذه البضـاعة الا الفنادق
والا الغرف فى منازل بعض السيدات اللاتى نزلن فى هذا الفصل
عن بعض حجرهن وغرفهن واتخذنها تجارة ومصدرا للكسب .
يتقدم اليك هذا السائق ليأخذ متاعك الى سيارته الفخمـة التى
ستنتهى بك ان شئت الى فندق كذا ، وهو ليس غاليا ولا مسرفا
فى الشطط ، على أن فيه كل ما تحتاج اليه من أسباب الراحـة
ووسائل النعيم . ويتقدم اليك هذا السائق ليأخذ متاعك الى عربته
التى ستنتهى بك الى فندق كذا ، وهو فندق حسن الموقع تشرف
منه على مناظر بديعة ، وليس بينه وبين الغار الا دقائق ، أما الأجر
فقليل . وتتقدم اليك هذه السيدة باشة مبتسمة تعرض عليك غرفة
جميلة واسعة حسنة الأثاث تشرف منها على الغار ، أما الأجـر
فنستطيع أن نتفق عليه ، وثق بأن ستكون مسرورا . ولكننا نجتهد
فى أن نخلص من هؤلاء الناس جميعا ، فلم نأت « لورد » لنأوى

الى فندق أوخان ، ولا لنمكث فيها أياما ، وانما أتيناها لنمكث فيها ساعات ثم نعود أدراجنا فقد زرنا « لورد » وزرناها وأكثرنا من زيارتها . ولولا شيء سمعناه أمس لما فكرنا هذه السنة فى أن نراها . ولكننا نتحدث فيما بيننا ونحن نشق صفوف هذه الجموع المزدحمة أمام المحطة بأن الفصل سيء هذه السنة فى « لورد » وأن تجار هذه المدينة سيشقون بهذا الصيف . فقد كانت «لورد» دائما شديدة الغلاء ولا سيما فى شهرى يولية وأغسطس حيث يزدحم عليها الحجيج من كل صوب ، وحيث تضيق بالأجيال المختلفة التى تؤمها من أقطار الأرض المسيحية كلها . نعم ! الفصل سيء فى هذه السنة فالحجيج قليل والفنادق بعيدة كل البعد عن أن تسترد شيئا من نفقاتها الضخمة وهذه الحوانيت الكثيرة التى لا تكاد تحصى والتى تكتظ بألوان البضائع المختلفة ولا سيما هذه البضائع التى تخصص للتقوى والعبادة . هذه الحوانيت محزونة كئيبة تحس الكساد وتألم له ، فالناس لا يزدحمون عليها ، وهم لا يستبقون الى الصلبان والسبح والتمائم ، وانما يمرون بهذا كله معرضين عنه زاهدين فيه . وما مصدر هذا الكساد ؟ وما علة هذا الاحجام عن الحج فى هذا العام ؟ أما أنا فضحكت وعللت ذلك بانتصار حزب الشمال فى الانتخابات الفرنسية الأخيرة . فأنت تعلم أن حزب الشمال الفرنسى ملحد مسرف فى الالحاد الى حد أنه يتخذ الالحاد

دينا . واذ قد انتصر هذا الحزب وانتصر بالطـرق الديمقراطية الصحيحة أى برضا الفرنسيين وارادتهم فلا بد من أن يكون هنالك اتصال بين انتصار الالحاد وكساد التجارة فى « لورد » واحجام الناس عن الحج اليها . وأما زوجى فضحكت وسخرت منى ومن حزب الشمال ومن أحزاب اليمين أيضا وأخذت تلتمس العلة لهذا الكساد واحجام الناس عن الحج الى « لورد » فى ظروف الحياة الاقتصادية التى ارتفعت لها حاجات الناس ارتفاعا شديدا . ألم ترتفع أجور السكك الحديدية ارتفاعا فاحشا أحجم له الناس لا عن الحج الى « لورد » وحدها بل عن الحج الى هذه المواقع الطبيعية البديعة فى الجبل وعلى سواحل البحر . فالفصل ليس سيئا فى « لورد » وحدها وانما هو سىء فى هذا الاقليم كله وما أحسب الا أنه سىء فى جميع مواضع الراحة فى فرنسا . ومن هم الذين يحجون الى « لورد » ؟ألم تكن كثرتهم المطلقة من الفقراء والذين يشبهون الفقراء والذين يحتاجون الى الحساب والتدقيق فى الحساب ليعيشوا فضلا عن أن يستمتعوا بشىء من اللهو والراحة ، أو أن يبيحوا لأنفسهم سياحة من السياحات . الظروف الاقتصادية اذن هى التى صرفت الناس عن « لورد » لا الظروف الدينية ولا الظروف السياسية ، ومهما يكن من شىء فقد زرنا « لورد » ومضينا فى شوارعها وانتهينا الى الغار والى الينبوع ، فاذا حولهما

جماعات من الناس لا تذكر بالقياس الى تلك الجماعات التى كنا نراها من قبل ، ولكنها مع ذلك كثيرة ولكنها مع ذلك بائسة ، ولكنها مع ذلك تملأ القلوب حزنا وحسرة ، ولكنها مع ذلك تدعو العقل الى التفكير وتبعث الانسان اذا كان جافيا غليظ الطبع على أن يسخر من الانسان ، وتبعثه ان كان رقيقا حساسا على أن يعطف على الانسان . انظر الى هؤلاء الناس الذين انبثوا حول الغار والينبوع حاسرين يصلون ويضرعون ويتوسلون ويتمسحون بالأحجار ويغمسون أيديهم فى الماء ويشربون منه وفيهم المكفوف وفيهم المقعد وفيهم من أصابته ضروب الشلل وفيهم من ألح عليهم الجذام وفيهم من أنهكتهم العلل المتباينة ، وفيهم الأصحاء أقبلوا يتضرعون لأبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم واخوانهم وأخواتهم ، كل هؤلاء منبثون حول الغار والينبوع لا يضحكون ولا يلهون ولا يحفلون بجمال الطبيعة ولا يستمتعون بروعة المنظر ولا يكترثون لهذا الجو الذى قد يبرد حتى يبعث الرعدة وقد يسخن حتى يتصبب له العرق وهم منصرفون عن هذا كله الى صلاتهم يبتهلون الى العذراء التى ظهرت فى هذا المكان سنة ١٨٥٨ للفتاة « برناديت » وأوحت اليها أن تأمر الناس باقامة كنيسة لها فى هذا المكان وأثبتت ظهورها باخراج هذا الينبوع الذى تفجر عنه الصخر أمام هذه الفتاة الراعية فرآه الناس وآمنوا له ، وصدقوا الفتاة ، وتحولت له

هذه القرية التى كانت خاملة الى مدينة ضخمة فيها من أسباب الترف وألوان النعيم ما لم تبلغه مدن كثيرة قديمة العهد بالنمو فى هذا الاقليم . يبتهل هؤلاء الناس الى هذه العذراء أن تشفى مرضاهم وينتظرون الساعة المعينة التى يقوم فيها رجال الدين بحركاتهم اليومية فيغمسون المرضى فى الماء المقدس ، ماء الينبوع ، ويصلون ويبتهلون وينتظرون المعجزة فتواتيهم حينا وتخلفهم حينا. ومن سوء حظ « لورد » ورجال الدين فى هذا العام أن العذراء لم تحدث معجزة منذ ابتدأ الفصل وهم يبتهلون ويتضرعون ويلحون فى الابتهال والتضرع ويغمسون المرضى فى الماء ويخرجونهم منه ثم يردونهم اليه ويخرجونهم منه ، والأساقفة يترددون على المدينة ويشرفون على هذه الحفلات والصلوات ، ولكن العذراء عنهم معرضة لاتسمع لهم ولا تلتفت اليهم ، وكانت قدعودتهم أن تحدث لهم فى كل عام معجزة أو معجزات ، فما لها هذا العام قد تركت مدينتها وأعرضت عن عبادها ؟ أما أنا فضحكت هذه المرة كما ضحكت فى المرة الأولى وقلت ان العذراء مغضبة لأن حزب الشمال قد انتصر فى الانتخاب ولو قد انتصر حزب اليمين لما تصرم يوم من أيام هذا الفصل دون أن تحدث العذراء معجزة تضطرب لها أرجاء الأرض ، ولو قد انتصر حزب الوسط الذى ليس هو بالمؤمن ولا بالملحد ولكنه على كل حال قد استأنف العلاقات السياسية

مع « البابا » لما رضيت العذراء أن يتصرم الفصل أو جزء عظيم منه
دون أن تحدث معجزة أو معجزات . ولكن زوجى زجرتنى زجرا
شديدا وهى تقول ما يصلح هذا الموضع لمثل هذا الهذيان فأرجئه
الى حيث تخلو الى نفسك فلا تؤذ به أحدا .. فسكت ولكنى لم
أحدثك الى الآن عن السبب الذى من أجله فكرت فى أن أزور
« لورد » هذا العام ، وهو سبب لا يحتاج الى أن يكون موضوعا
للحديث ولكنه مع ذلك كلفنى هذه السياحة القصيرة وأزعجنى
عن مضجعى ولما تشرق الشمس . ذلك أنى سمعت القسيس يخطب
الناس فى « ارجليس » ويقرأ عليهم منشورا أصدره « البابا »
رفع به « برنديت » هذه الفتاة الراعية التى ظهرت لها العذراء فى
« لورد » الى منزلة السعداء التى ليس فوقها الا منزلة واحدة فيما
أظن هى منزلة القديسين . قرأ القسيس هذا المنشور ثم انتقل منه
الى حياة « برنديت » فذكرها مفصلة حتى اذا بلغ ظهور العذراء
لهذه الفتاة الراعية أخذ يلح فى اثبات ذلك بالأدلة المختلفة ثم أخذ
يسرد المعجزات أو طائفة من المعجزات التى أحدثتها العذراء فى
« لورد » فان هذه المعجزات لا يمكن أن تحصى . وأخذ يذكر لنا
معجزات قائمة بين أيدينا لاسبيل الى جحودها فهذه السيدة التى
تتردد فى الكنيسة لتجلس الناس وتتقاضى منهم أجور الكراسى
وتتقاضى منهم الصدقات ، هذه السيدة التى ترونها جميعا فى حركتها

ونشاطها وخفتها ، هذه السيدة انظروا اليها تسعى بينكم . ليس بينها وبين أشدكم قوة فرق . انظروا اليها لقد كانت مقعدة فأطلقت العذراء ساقيها فى « لورد » وأنتم أهل هذه المدينة تعرفون فلانة وتعرفون علتها التى أعيت الأطباء أعواما لقد شفتهـا العذراء فى العام الماضى وماأظن أن منكم من يجرؤ على انكار هذه الواقعة .. وفى الحق أن أهل المدينة لا ينكرون هذه الواقعة ولا الواقعة التى سبقتها ولكن فى الحق أيضا أنى رأيت امرأتين احداهما بدالة تبيع ألوان البقل وضروبا من المتاع وهى عرجاء أصابها ألم فى القـدم منذ سنين وعجز الأطباء عن شفائه ولم تغن فيه المياه المعدنية المختلفة شيئا وهذه المرأة تتردد كل عام الى « لورد » فتشرب من ينبوعها وتستحم فى أحواضها كما كانت تتردد الى المدن والقرى التى تمتاز بمياهها المعدنية الحارة والباردة وتصلى الى العذراء وتبتهل دون أن تحدث العذراء فيها معجزة وهى غير يائسة ولا قانطة ، بل هى تعتزم السفر الى لورد بعد أيام . والأخرى امرأة عرجاء أيضا ، ولدت معوجة الساقين فهى لا تمشى وانما تحجل وتجد فى ذلك مشقة شديدة . رأيتها فى بعض الرياضات لأنها مكلفة أن تحرس ممر القطار فى طريق مسلوكة ، وكنا قد أخطأنا الطريق الى المدينة فما زالت معنا حتى اهتدينا ، وقد قطعت بنا طرقا مجهولة شاقة فتحدثنا اليها أكثر من نصف ساعة وعرفنا علتها وعرفنا أنها ألحت

على العذراء وشربت كثيرا من ينبوع « لورد » وانغمست كثيرا في أحواض « لورد » ولكن العذراء لم تلتفت اليها فيئست من العذراء وجحدت « لورد » وسخرت منها ورضيت علتها واطمأنت اليها. رأيت هاتين المرأتين ولكنهما فيما يظهر لا تصلحان حجة على أنصار « لورد » فالعذراء ليست مكلفة أن تشفى كل مريض وانما هى تشفى من تريد أن تشفى — ومن يدرى ؟ لعلها تشفى المرأتين فى يوم من الأيام . سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت فاشتقت الى زيارة « لورد » وطمعت فى أن تظهر معجـزة يوم زيارتى ، ولست أمزح ولا ألهو فان المعجزات قد ظهرت فى «لورد» وما أظن الا أنها ستظهر أيضا ، غير أن العلماء يعللون هذه المعجزات تعليلا ويعللها القسيسون تعليلا آخر ، وأنت حر فى أن تصدق العلماء أو فى أن تصدق القسيسين . أما أنا فقد طمعت فى أن أرى المعجزة ولكنى لم أر شيئا . ثم طمعت فى أن أسمع بالمعجزة أثناء اقامتى فى « أرجليس » على مسافة قصيرة من « لورد » ولكنى لم أسمع شيئا . ثم سافرت من أرجليس وانى لفى القطار الى حيث أقيم الآن واذا سيدتان تتحدثان .. ماذا أسمع . أصغيت ثم استمدت السيدتين حديثهما .

ظهرت المعجزة فى لورد منذ يومين اثنين ، ذلك أن أسرة أسبانية أقبلت الى لورد ومعها فتاة مقعدة فلم يكد رجال الدين يغمسون

هذه الفتاة فى الحوض ويفرغون من صلاتهم ودعائهم حتى نهضت الفتاة معتدلة القوام ، لا أقول تسعى بل تجرى .. ظهرت المعجزة فى لورد وذاع أمرها وتحقق الناس صحتها واعترف بذلك مكتب الاثبات الطبى الذى أقيم فى لورد ليثبت صحة المعجزات أو ينكرها ، واذن فسيحسن الفصل فى لورد هذا العام ، ولكنى آسف الأسف كله لأنى لم أسمع بهذه المعجزة الا فى القطار على بعد عشر ساعات من لورد ..

بوليجان (فرنسا) فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

٣

الخيل ! الخيل !

دوى هذا النداء فى أرجاء الغابة وما أسرع ما استجاب له الفرسان يهرعون من كل صوب حتى بلغوا جيادهم فامتطوها ، وما هى الا أن أخذت تعدو بهم عدوا سريعا ، ولكنه منسجم تنظمه ألحان الموسيقى التى لا تخلو من عذوبة ساذجة ، ولا تبعث على حرب ولا تدعو الى قتال . ذلك أن هؤلاء الفرسان لم يكونوا رجالا ،وانما كانوا أطفالا ، وأن هذه الخيل لم تكن جيادا مطهمة كريمة النسب ، وانما كانت جيادا من الخشب .

دعا الداعى : الخيل ! الخيل ! فأسرع الأطفال الى الخيل فامتطوها وأسرعت الخيل فدارت بهؤلاء الأطفال ، وأسرعت الموسيقى فعزفت لهم ألحانها ، ووقف الكبار من رجال ونساء ينظرون ويبسمون فرحين مبتهجين بما يستمتع به أبناؤهم من هذا اللهو البرىء ، ثم انتهت دورة الخيل وآن دفع الأجر ، وتقدم الناس يؤدون هذا الأجر عن أبنائهم فاذا هذا الأجر مضاعف هذا المساء واذا الذى يتقاضاه من الناس قسيس يزدان بلباسه التيلى ،

واذا الناس يبذلون ما يطلب اليهم عن طيب نفس وقرة عين ، واذا القسيس يستأنف دعاءه بصوته الضخم : الخيل ! الخيـــل ! واذا الأطفال يسرعون الى هذه الخيل فيمتطونها واذا الموسيقى تستأنف لحنها . وقضى القسيس مساءه على هذه الحال يدعو الى الخيل ويشرف على دورة الخيل ويتقاضى أجور الخيل .

وعلى مسافة قصيرة من هذا القسيس الذى وقف مساءه على تلهية الأطفال وجمع المال طائفة من السيدات ، من خيرة السيدات من ذوات المكانة فى المدينة قد اتخذن لباس الخـدم وطفن على الناس يقدمن اليهم ألوان الحلوى وصنوف الفاكهـة وأكؤس الشاى ويقدمن مع هذه الأطعمة والأشربة بسمات عذبة وضحكات حلوة ولحظات فتانة ، ويتقاضين أجر هذا كله أضعافا مضاعفة . وعلى مسافة من هؤلاء السيـدات طائفـة أخرى من الفتيـات الناشئات يطفن على الناس بأوراق النصيب ، والناس يتهافتون على هذا كله يطعمون ويشربون ويشترون الورق ويمزحـون ويفتنون فى اللهو النزيه افتنان الأطفال فى اللهو البرىء . ذلك أن المدينة قد أقامت فى هذا اليوم حفلا لعمل من أعمـال البر ، فأدى كل واحد من أهل المدينة ما للبر عليه من حق ، دفع هذا ماله ووقف هذا وقته وآثر هذا بلهوه هذا العمل الخيرى . وليس فى هذا الأمر بدع فحفلات البر مألوفة فى أوربا ومصر ، وأسواق

البر معروفة هنا وهناك ، والخلقيون يختلفون اختلافا شديدا فى الحكم على هذه الحفلات والأسواق ، قوم يحمدونها لأنها تؤدى الى الخير وقوم يمقتونها لأنها لا تخلو من لهو وتكلف ، ولأن الخير خليق أن يصدر عن الانسان كما تصدر الأشياء الفطرية فى غير حيلة ولا تصنع . ليس فى هذه الحفلات بدع اذن ، وما كنت لأحدثك عنها لولا أن رأيت هذا القسيس قد اختار لنفسه هذا النوع من العمل ، فقضى ساعات من نهاره لا يقدس الله ولا يقرأ الانجيل ولا يتغنى بهذه الأغانى التى يقصر عليها القسيسون ظهر يوم الأحد عادة فى كنائسهم ، وانما يشرف على لهو الأطفال ودورة الخيل ويصيح بأعلى صوته من حين الى حين : الخيل ! الخيل ! ويتوسم وجوه الناس فيأخذ منهم أجر الخيل متناسبا مع ما توسم فى وجوههم من ثراء أو عسر . لولا أنى رأيت هذا القسيس وسمعته لما فكرت فى أن أتحدث اليك بشىء عن هذا الحفل ، بل لقد كنت أود لو لم أكتب بهذا الحديث الى « السياسة » ولا الى صحيفة سيارة . كنت أود لو جعلت هذا الحديث موضوع رسالة خاصة أبعث بها الى صديق من أصدقائى علماء الدين الاسلامى فى مصر ، أبعث بها الى الأستاذ الزنكلونى مثلا ! ولكنى أحببت أن تكون هذه الرسالة ذائعة يقرؤها الأزهريون جميعا ويفكرون فيها قليلا أو كثيرا .

لست أخفى على الأزهريين وعلى علماء الدين خاصة أنى أعجبت بهذا القسيس وتمنيت لو أرى علماء الدين عندنا يشرفون على مثل هذه الخيل ويدعون اليها مثل هؤلاء الأطفال ويتقاضون على ذلك مثل هذا الأجر يضاعفونه ما شاءت لهم حاجة الأعمال الخيرية التى يدعو اليها الدين أو التى تمس اليها حاجة الفقراء والبائسين فى مصر .

أعتقد أن علماء الدين فى حاجة شديدة الى الوقار والمهابة وأن حاجتهم الى الوقار والمهابة تحظر عليهم حركات ومواقف تباح لغيرهم من الناس ، ولكنى أعتقد أن هذا القسيس الذى كان يدعو الأطفال الى الخيل لم ينزل من وقاره عن قليل ولا كثير وانما أضافه الى هيبته هيبة ، والى وقاره وقارا ، وأدى عمله الدينى كما ينبغى أن يؤديه حين سلك الى الخير هذه السبيل الخصبة التى تجمع له من المال ما يحتاج اليه دون أن يتكلف استجداء أو يتحمل العناء فى دعوة الناس الى الصدقة والاحسان . فما الذى يمنع رجال الدين فى مصر أن يسلكوا مثل هذه السبل ؟ ما الذى يمنع رجال الدين ؟ يمنعهم أنهم يعيشون فى عصرهم هذا دون أن يكونوا من أهله ودون أن يشعروا شعورا صحيحا بحاجاته وضروراته ووسائل العيش فيه . ثم يمنعهم أن الدولة تدر عليهم أرزاقا قد لا تكون كثيرة ولا غزيرة ولكنها الآن أكثر وأغزر منها منذ عشر سنين . هى

بحيث تمكنهم من الحياة الهادئة المطمئنة ، وما أحسبهم يطمعون مع الأسف الشديد فى أكثر من الحياة المطمئنة . ثم يمنعهم شيء آخر هو أجل من هذا كله خطرا وأنا قائله ومعتذر الى علماء الدين من هذه الصراحة فى القول ، يمنعهم أن الواجب الذى يشعرون به. ويعتقدون أنهم مكلفون أداءه فى هذه الحياة ضيق جدا أضيق من الواجب الحقيقى الذى يفرضه عليهم الدين وحاجة الاجتماع . هم يعتقدون أنهم علماء أى أن الله قد أودعهم علوم الدين فهم يبذلون هذه العلوم للناس فى الأزهر وملحقاته ، وهم يصلون ويشرفون على اقامة الشعائر الدينية الرسمية . واذا ألقوا دروسهم وأدوا صلواتهم وألقى بعضهم من حين الى حين خطب الوعظ ، فقد أدوا ما يجب عليهم لله والناس واذ كان الناس لا يطمعون فى علوم الدين اليوم كما كانوا يطمعون فيها فى القرن الماضى ، واذ كان الناس لا يختلفون الى المساجد فى هذه الأيام كما كانوا يختلفون اليها فى الأيام الماضية ، فقد أصبح نفع العلماء للهيئة الاجتماعية كما يقولون محدودا ، قليلا ، وسيشتد قلة مع مضى الزمن لأن اختلاف الناس الى الأزهر سيقل غدا كما قل اليوم ، ومن هنا يزيد العلماء على حاجة الاجتماع ، وتصبح طائفتهم بعد زمان طويل أو قصير طائفة لا تشتد الحاجة اليها . اذن فالعلماء بين اثنتين ، اما أن يقاربوا بين أنفسهم وبين العصر الذى يعيشون فيه وأن يصبحوا كغيرهم من

الناس يشعرون بما يشعر به معاصروهم ، واما أن يستعدوا لهذا اليوم الذى ليس منه بد ، والذى يصبحون فيه عالة على الجماعة المصرية لا يرجى منهم خير ولا يعتمد عليهم فى نفع .

نعم ! يتصور العلماء واجبهم تصورا ضيقا جدا ، فهم مكلفون شيئا آخر غير القاء الدروس واقامة الصلوات ، هم مكلفون أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ولم يقل أحد ان القاء الدروس واقامة الصلاة هما كل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . هم مكلفون أن يشتركوا فى جميع أعمال الخير . هم مكلفون أن يحتملوا ألوان العناء فى كشف الضر عن البائسين . هم مكلفون ألا تخلو منهم جماعة خيرية ، هم مكلفون ألا تخلو محلة فى مصر من آثارهم الخيرية . هم مكلفون أن يتصوروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تصورا صحيحا واسعا يجعلهم عضوا نافعا فى الجماعة .

لو يعلم رجال الدين عندنا ماذا يصنع رجال الدين فى أوربا من هذه الناحية لدهشوا دهشا عظيما ولعلموا أنهم بعيدون كل البعد عن أداء واجبهم الدينى . كتبت من أوربا فى السنة الماضية فصولا عن رجال الدين الغربيين وعن هذا الجهد العظيم الذى يبذلونه ليكون حظهم من العلم والفن كحظ غيرهم من رجال العلم والفن ، وذكرت هذا الأسقف الذى اشترك فى مؤتمر التاريخ فى بروكسل وذكرت هؤلاء القسيسين الذين قدموا الى هذا المؤتمر مذكرات قيمة تمس

فروع التاريخ على اختلافها وتمنيت او استطاع عالم من علماء
الدين عندنا أن يشترك فى المؤتمر الجغرافى الذى سيقام فى مصر
فى العام المقبل . أما فى هذا الفصل فلست أذكر علم رجال الدين
الغربيين ولا اجتهادهم فى تحصيل العلم ، وانما أذكر تصورهم
لواجبهم الدينى وهو مع الأسف الشديد أصح وأرقى من تصور
علمائنا لواجبهم .

اذهب الى أصغر قرية وأحقرها من قرى أوروبا وتبين عمل
القسيس فى هذه القرية تجده عظيما شديد التشعب ، فهو يؤدى
قبل كل شىء واجبه الدينى المعقد فى الكنيسة يقيم هذه الصلوات
الكثيرة المتنوعة ويتقبل اعترافات المؤمنين الى غير ذلك من أعمال
الكنيسة . وهو يعنى بكنيسته عناية مادية فيشرف لا على أن
تكون نظيفة حسنة النظام بل على أن تزدان بما استطاع أن يزينها
به من آثار الفن ، ثم هو بعد هذا أستاذ دينى لأطفال القرية جميعا
يختلفون اليه فى كل يوم يأخذون عنه مبادىء الدين وأصوله ،
ثم هو موسيقى بحكم عمله الدينى وهو أستاذ للموسيقى فى قريته
ثم هو متغلغل فى حياة القرية لا يفلت من يده مولود ولا ميت ،
يتلقى المولود ليعمده ويزور المحتضر ليصلى عليه ويلهمه كلمة
الدين ، وهو يجود بنفسه ، ويودعه الى قبره ، ثم هو بعد هذا
كله مكلف بحكم الدين أن يبحث عن الضعفاء وذوى الحاجة

فيواسيهم ويعزيهم ويلقى ألوان العناء فى حمل الناس على الصدقات يأخذ من أغنيائهم مايرده على فقرائهم ، ثم هو بعد هذا وذاك رجل مثقف يريد أن يتعلم ، فهو يختص بدرس نوع من أنواع العلم أو لون من ألوان الفن .

هذه خلاصة حياة القسيس فى قرى أوروبا ومدنها . فأين منهـا حياة رجال الدين فى الشرق الاسلامى ؟ ومن هنا انتهت أوروبا الى ما انتهت اليه من الالحـاد والكفر ورفض الدين ، ولكنها لم تستطع ولن تستطيع أن تخلص من القسيسين . ذلك لأن القسيسين يتطورون مـع أوروبا ويحتالون فى ألا تفوتهم الجماعات أو تفلت من أيديهم ويسلكون السبل المختلفة ليصلوا الى قلوب النـاس من طريق الدين ان كانوا مؤمنين ومن طريق العلم ان كانوا علماء ومن طريق الفن ان كانوا فنيين ، ومن طريق الخير ان كان شىء من هـذا لايعنيهم . ومن هنا كان القسيس فى أوروبا جزءا غير منفصل من الجماعات لا يستغنى عن الجمـاعة ولا تستغنى الجماعة عنه . ومن هنا انفصلت الكنيسة عن الدولة فى فرنسا مثـلا وانقطعت معونة الدولة للكنيسة فمـا انهارت الكنيسة ولا افتقر رجالها وانما أدى الناس الى الكنيسة ورجالها أضعاف ما كانت تؤديه اليهم الدولة . وهذه مدارس الكنيسة فى فرنسا تزاحم مدارس الدولة فتزحمها . فأين رجال الدين فى الشرق

الاسلامى من رجال الدين فى الغرب المسيحى ؟ وماذا يرى الأستاذ الزنكلونى والأستاذ أبو العيون وأصحابهما فى هـذا كله وأيهما أجدى وأليق بالكرامة ؟ أن يعمل رجال الدين حتى يكرهوا الدولة والأمة على أن يشعرا بالحاجة اليهم أم لايعملوا وانما يلحون فى الطلب ويبالغون فى الالحاح ويحرصون على أن يتدخلوا فى كل شىء دون أن يشعر الناس بنفعهم حين يتدخلون فى كل شىء ؟ أما انى أتمنى على الأساتذة علماء الدين أن يفكروا فى هذا ويطيلوا التفكير فيه فقد يجدون فيه عظة وعبرة . ثم لا أخفى عليهـم انى معجب بهذا القسيس الذى سمعته يدعو الأطفال الى الخيل وأتمنى أن أجد بين شـيوخنا من يستطيع فى يوم من الأيام أن يدعـو الأطفال الى الخيل دون أن يجد من جبته أو عمامته ما يصرفه عن ذلك أو يزهده فيه .

البوليجين فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٤

٤

بـاريس

أريد أن اكتب عن باريس ، ولكننى لا أدرى ماذا أقول عن باريس ، لا لأن الكلام يعوزنى ، ولا لأن الخواطر تنقصنى ، بل لأن لدى خواطر لا أستطيع أن أحصيها ولا أن أنظمها ، ولأن لدى كلاما لا أستطيع أن يؤثر بعضه على بعض ، فما أكثر ما أريد أن أقول ، وما أشد عجزى عن تسطير ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن أفعل ؟ ولست من الفن ورقة القلب بحيث كان الكاتب الفرنسى « رينان » الذى زار عاصمة العالم القديم فقدم الى آلهتها هذه الآية الفنية الخالدة التى هى صلاته الى آلهة الحكمة فى أثينا . ماذا تريد أن أفعل وليس لى حظ « رينان » من الفن ولا من رقة القلب ، وقد حرمنى الله كل خيال أو قدرة على التصرف فى الخيال . ومع ذلك ففى باريس آلهة يستحقون أن يتقدم اليهم الانسان بالصلاة كما تقدم « رينان » الى آلهة الحكمة فى مدينة أثينا .

فى باريس علم لا يقاس اليه علم الأثينيين ، وفى باريس

فلسفة لا تقاس اليها فلسفة الأتينيين ، وفى باريس حرية لا تذكر معها احرية الأتينيين ، وفى باريس حضارة تهينها ان قرنت اليها حضارة الأتينيين ، وفى باريس حياة يعجز الفرد مهما تكن قوته عن فهمها والاحاطة بها والتعمق فى تحليلها ثم يعجز الفرد مهما تكن قوته عن أن يعطيك منها صورة صحيحة أو مقاربة . ليس بين أتينا وباريس الا شبه واحد وهو أن أتينا كانت عاصمة العالم القديم ، وان باريس عاصمة العالم الحديث . فاذا قررنا هذا الشبه فيجب أن تقرر ما بين المدينتين من فرق وهو عظيم أعظم من أن لتصوره ، هو الفرق بين العالم القديم والعالم الحديث .

أنا مفتون بأتينا وفلسفتها وفلاسفتها وحريتها وزعمائها ، ولكنى على هذه الفتنة لا أستطيع أن أقيس أتينا الى باريس .

علم الأتينيين وفلسفتهم ، ماذا كانا بالقياس الى ما فى باريس من علم وفلسفة ؟ كانا محاولة ساذجة غليظة فيها ضعف الأطفال وغرورهم لفهم الحياة وتفسيرها . حرية الأتينيين ماذا كانت بالقياس الى الحرية فى باريس ؟ كانت نوعا من الامتياز لطائفة من الناس وضربا من التسلط والاحتكار انتهى بمصادرة حرية الرأى وبالحكم على سقراط بالموت . أما باريس فيكفى أن تصل اليها وأن تعيش فيها يوما أو بعض يوم لتشعر بما لها من عظمة وجلال وحق فى الخلود لست فى حاجة الى أن تفهم ، ولست

فى حاجة الى أن تحلل ولست فى حاجة الى أن تكون عالما أو أديبا لتكبر باريس أو تقدر مكانتها فى الحياة الحديثة وانما يكفى أن تكون قادرا على أن ترى وقادرا على أن تسمع وقادرا على أن تتنسم الهواء وأنا زعيم لك بأنك ستقدر باريس وتكبرها وتحبها .

ليس لى حظ « رينان » من الفن لأقدم الى باريس الخالدة مثل ماقدم هو الى أثينا الخالدة ، وليس لى حظ هذا الصديق المسافر الذى يرسل مذكراته الى « السياسة » من حين الى حين والذى أحسبه عاد الآن الى مصر ، أقول ليس لى حظ من حلاوة الفكاهة ودقة الملاحظة وخفة الروح وسلامة الذوق لأحدثك عن باريس بشىء يشبه ما حدثك به عنها ، وانما أنا بعيد كل البعد عن هذه الخصال التى امتاز بها هذا الصديق فجعلت فصوله ومقالاته حلوة عذبة أو جعلتها الحلاوة والعذوبة نفسهما ، ولكن لى وجها خاصا فى حب باريس والاعجاب بها والحياة فيها . وأحسب أن لكل انسان يحب باريس وجها خاصا فى حبه لهذه المدينة ، فأنت لا تستطيع أن تحبها من كل وجه لأنها أوسع من حياتك وأعظم من قدرتك على الحب وأرفع وأجل من أن يحيط بها حب فرد أو أفراد . أما حين كنت مقيما فى الجبل أخرج من حين الى حين للرياضة فأزور القرى وأتبين ما فيها من جمال طبيعى

أو السانى فقد كنت لا أصل الى قرية أو محلة الا حاولت أن أشرب من مائها ، وكان يخيل الى أنى متى ذقت هذا الماء الذى ينحدر الى هذه القرية أو المحلة ويعيش منه أهلها فقد اتصلت نفسى بهذه القرية أو المحلة ، وشاركت أهلها فى شىء من الأشياء . كذلك كنت وأحسبنى سأكون أبدا لا أبلغ مكانا الا حاولت أن تكون بينى وبينه صلة قوية أو ضعيفة ، أما اذا بلغت باريس فلست أطمع فى أن أشرب من مائها لأوجد الصلة بينى وبين أهلها ، وانما أطمع فى أشياء أخرى بها توجد هذه الصلة . ولا أعتقد أنى فى باريس حقا الا اذا أرضيت نفسى من هذه الأشياء يجب أن أشترى كتابا فى العلم أو فى الأدب وأن أقرأ منه فصلا أو فصولا ، ويجب أن أذهب الى ملعب من ملاعب التمثيل الهازل أو الجاد وأن أصفق مع المصفقين وأضحك مع الضاحكين أو أبكى مع الباكين . ثم يجب أن أذهب الى مكان من هذه الأمكنة التى يختلف فيها الباريسيون الى آيات الموسيقى فأستمع لهذا اللحن البديع وأنسى أمامه نفسى ساعة أو ساعتين فاذا اشتريت كتابا وقرأت ، واذا ذهبت الى ملعب التمثيل وتأثرت ، واذا سمعت الموسيقى وذهلت لها فأنا فى باريس حقا أشعر بما يشعر به الباريسيون ، وقد وجدت بينى وبينهم هذه الصلة التى أحب أن توجد بينى وبين كل مدينة أو قرية أزورها .

ولغيرى وجوه أخرى فى حب باريس . هنـاك من يحب باريس لما يجد فيها من هذه الحركة العنيفة ، حركة الحياة العملية وهناك من يحب باريس لأن فيها « مونمارتر » ، وهناك من يحب باريس لأن فيها للفرد حرية لا تعدلها حرية ، وضروبا من اللذات منها المباح ومنها المنكر ، منها ما يستطيع الانسان أن يعلنه الى الناس جميعا ، ومنها ما يحب الانسان أن يخفيه حتى على نفسه ، وهناك وجوه أخرى لا يكاد يبلغها الاحصاء ، ولكنها كلها تنتهى الى نتيجة واحدة وهى أن شعوب الأرض جميعا قد تحب فرنسا وقد تكرهها وقد تكون سلما لها أو حربا عليها ولكنها كلها مجمعة على حب باريس وايثار الاقامة فيها حينا من الدهر أو شطرا من العمر .

ولقد قرأت منذ أسابيع فصلا نقلته جريدة « الطان » عن احـدى الصحف الأميركية الكبرى حاول فيه كاتبه أن يتقصى الأسباب التى تحمل الناس جميعا على أن يحبوا فرنسا ويؤثروا الاقامة فيها وفى باريس خاصة فأعجبنى هذا الفصل لأنه لا يخلو من صواب ولا من طرافة ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يحيط بأطراف المسألة حقا . يظهر أن الأميركيين يحبون فرنسا عامة وباريس خاصة لأن فيها سهولة العيش ولين الحياة وضروبا من اللذة لا يجدونها فى بلادهم ، أهمها لذة الطعام والشراب . فيظهر

أن الله لم يرزق بلدا من البلاد من المهارة فى اجادة الطعام ما رزق فرنسا . ويظهر أنه لم يرزق بلدا من البلاد من جـودة الأشربة ما رزق فرنسا . فكثير من الأجانب الذين يهرعون الى فرنسا فى جميع أجزاء السنة انما يهرعون اليها لأنهم يأكلون فيها فيجدون الأكل ، ويشربون فيها فيجدون الشراب . وكثير منهم يهزعون الى فرنسا والى باريس خاصة لأنهم يجـدون فى الشعب الفرنسى والباريسى لينا فى الخلق وصفاء فى الطبع ورفقا فى المعاملة وحلاوة فى الصلات لا يجدونها فى بلد آخر . وكثير منهم يهرعون الى فرنسا والى باريس لأنهم يجدون فى فرنسا وفى باريس شيئا من الفرح والابتهاج والابتسام للحياة مهما تكن صروفها ، ومهما تكن خطوبها ، لا يجدونه فى غير فرنسا وفى غير باريس . وهناك أسباب أخرى ذكرها هذا الكاتب وأسباب لم يذكرها . وماذا يعنينا أن نوفق الى احصاء الأسباب التى تحبب فرنسا الى الناس وتحملهم على أن يهزعوا الى باريس كلما وجدوا الى ذلك سبيلا . ماذا يعنينا من هذا كله ونحن لا نكتب تاريخا ولا فلسفة وانما نلاحظ حقيقة لا تحتمل شكا ولا انكارا : وهى أن الناس جميعا مهما تختلف أهواؤهم بالقياس الى فرنسا فهم يحبونها ويحبون منها باريس بنوع خاص .

لست كهذا العالم المصرى الذى كان يحب باريس ، وكان اذا وصل اليها تمرغ على أرضها كما كان يتمرغ قيس بن ذريح على

آثار لبنى ! لست كهذا العالم . فما حدثتنى نفسى فى يوم من الأيام أن أهوى الى أرض باريس لثما وتقبيلا . بل ان فى باريس لأماكن كثيرة يعرفها المصريون الذين اختلفوا الى هذه المدينة ولا أعرفها ولم تحدثنى نفسى بأن أعرفها ، وان فى باريس لأماكن كثيرة أكرهها وأمقت الاختلاف اليها ، ولكنى أعشق فى باريس مكانا أعتقد أنه أقدس مكان فى العالم الحديث ، وأنه الرأس المفكر لهذا العالم ؛ لا أستثنى منه بلدا ولا مكانا ، وهو الحى اللاتينى . أنا أعشق هذا الحى وأهيم به هياما وأعلن فى ضعف وتواضع أنى لا أكاد أحس نفسى فيه ولا أكاد أشعر بأنى أمشى فى شوارعه حتى أشعر أن قد تجدد شبابى واستأنفت كل ما فقدت من نشاط ، فأنا أتنفس فى حرية ، وأفكر فى حرية ، وأتحرك فى حرية ، وأنا أحب الحيـاة وأحرص عليها وأتمنى منها المزيد . وأقول ان هذا الحى اللاتينى هو أقدس مكان فى العالم الحديث وهو الرأس المفكر لهذا العالم ، ولست أقول هذا عبثا ، ولا يدفعنى اليه الحب والاعجاب ، وانما هو الحق الذى لا يقبل شكا ولا جدالا . وانى لأشعر بشىء من المهابة والاجلال لا أستطيع وصفه كلما ذهبت الى هذه الرقعة من الأرض التى يقوم فيها « البنطيون » وترتفع فيها كنيسة « سانت جنفييف » . أشعر بهذه المهابة وهذا الاجلال لأن هذه الرقعـة الصغيرة من الأرض كانت مصدر النور الذى انبعث فى أوروبا المظلمة أثناء القرون الوسطى قبل أن تظهر النهضة فى ايطاليا ، لأن هذه الرقعة كانت مهد الفلسفة ومأواها حين لم تكن فرنسا كلها

ولا أوروبا كلها الا ميدانا تصطرع فيه المطامع والمنافع أقبح صراع وأشنعه . كانت هذه الرقعة من باريس مصدر الحياة العقلية لأوروبا كلها فى القرون الوسطى . ولقد تغير الزمان ودارت الأيام دوراتها المختلفة وعبثت الخطوب والأهوال بالعالم الحديث ، وظل هـذا المكان من باريس مصدر الحياة العقلية للعالم كله أليست تقوم فيه جامعة « السربون » ؟ أليست تقوم فيه « الكوليج دى فرانس » ؟ . ولقد أحب أن أجد معهدا علميـا فى أوروبا أو أمريكا أقرنه الى « السربون » و الى « الكوليج دى فرانس » وأحصى له من الآثار فى احياء العقل الانسانى وترقيته ما يقرب من آثار « السربون » و « الكوليج دى فرانس » فيعيينى البحث ويخطئنى ما أريد .

ان فرنسا تستطيع أن تتعرض للأزمات المختلفة وأن تتجشم من الأهوال ضروبا وصروفا ، وأن تنزل بها المحنة بعد المحنة والبلاء بعد البلاء ، وان فرنسا لتستطيع أن تبلغ من المجد ما تريد وما لا تريد ، وأن تحرز من ألوان الظفر ما تحب وما لا تحب ، وان فرنسا لتستطيع أن تنزل من قلوب الناس منزلة البغض أو منزلة الحب ، تستطيع فرنسا أن تفعل هذا كله وأن تتعرض لهذا كله ولكنها واثقة بالخلود واثقة باكبار الناس اياها وتقديسهم لها ما بقى فيهـا الحى اللاتينى ، وما قامت فى هـذا الحى « السربون » « والكوليج دى فرانس » .

باريس فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

٥

فى ملاهى باريس

نعم ! فقد لهوت وكانت رغبتى فى اللهو من البواعث القوية التى حببت الى الذهاب الى باريس ، ولم أخفى ذلك وأكتمه ؟ وأنا أعلم والناس جميعا يعلمون أن المسافر الى باريس أو غيرها من مدن أوروبا انما يتخذ اللهو غرضا من الأغراض الأساسية فى برنامج رحلته . وهل كان السفر نفسه الا ضربا من اللهو وفنا من فنون العبث يعمد اليه المتعبون ليستريحوا ويرغب فيه المستريحون ليتعبوا ؟ وكنت متعبا . وكنت أريد أن أستريح . وكنت أرى الراحة فى أن ألهو عن هذه الأشياء التى قضيت فيها العام كله فأجهدتنى ، وبغضت الى الحياة . وكنت وما زلت أعتقد أن من الحق للناس على وأن من الحق لى على نفسى أن أعود الى هذه الأشياء التى سئمتها نفسى وسئمتنى وأن أستأنف هذا العمل الذى أجهدنى طوال العام الماضى حتى بغض الى الحياة . وكنت أعلم أنى لن أستطيع العودة الى هذه الأشياء واستئناف هذا العمل الا اذا استرحت ولهوت وأخذت من الراحة واللهو بحظ عظيم . وقد فعلت ، وقد عدت الى مصر ، وقد

استأنفت هـذا العمل الشاق ، فاذا هو هـين لين لا عسر فيه ولا مشقة . ولكنى أعلم أنه سيعسر وأنه سيشق وأنى سأسأمه وأنه سيسأمنى وأنى سأنصرف عنه وأنه سيزهد فى ، وأنى سأحتاج الى الراحة واللهو وأنى سأستريح وألهو ثم أستأنف الجد والعمل . وكذلك حياتنا نتعب لنستريح ونستريح لنتعب حتى يأتى هذا اليوم الذى لا تعب بعده ولا راحة .

اذا فقد لهوت فى باريس ، لا أكتم ذلك ولا أخفيه . ولم أكتمه أو أخفيه وليس فيه والحمد لله مأثم ولا مدعاة الى لوم ؟ وانما هو ضحك برىء وعبث تطمئن اليه النفس الهادئة التى لاتعبث بها الأهواء ولا تعصف بها الشهوات .

لهوت فى باريس واختلفت فيها الى أندية اللهو التى هى زينة تلك المدينة وبهجتها ولها فى رفع شأن باريس وتقديمها على غيرها من مدن الأرض أثر قد لا يكون أقل من أثر « السربون » و « الكوليج دى فرانس » والمجامع العلمية المختلفة . ولم لا ؟ أليست جامعة باريس ومعاهدها العلمية ملجأ للعقل الانسانى تأوى اليه ثمراته ونتائج بحثه فى العلوم والفنون المختلفة ؟ وهل أندية اللهو الباريسى البرىء الا ملاجىء العقل الانسانى والشعور الانسانى ؟ فيها تظهر ثمراتها الحلوة والمرة وفيها يتعلم الانسان من الانسان ، ويظهر الانسان على الانسان ، وفيها يتعلم الانسان كيف

يكون حيوانا اجتماعيا كما يقول أرسطاليس أو مدنيا بالطبع كما يقول فلاسفة العرب .

لست أدرى أيشعر المصريون المتعبون الذين يذهبون الى باريس بمثل ما كنت أشعر به هذا الصيف ، فقد كنت شديد الميل الى أندية الهزل والضحك شديد الانصراف عن أندية الجد والعبوس . لم أكن أميل فى هذا الصيف الى بيت موليير ولا الى ما يمثل فيه من جد . بل لم أكن أميل بوجه ما الى التراجيديا انما كان ميلى كله الى الكوميديا من جهة والى الموسيقى من جهة أخرى .

ولقد حاولت أن أتبين فى نفسى أسباب هذا الميل الى ما يضحك ويلهى والانصراف عما يحزن ويعظ فلم أوفق الا الى سبب واحد لا أدرى أخطأ هو أم صواب ؟ ذلك أننا « محرومون » فى مصر كما يقول الفرنسيون من اللهو الصريح البرىء ومن الضحك الذى يريح النفس حقا ويجلو عن القلب أصداء الحياة العاملة . وهذه الحياة العاملة نصبها كثيبة فى مصر منذ سنين ، وقد أثقلتها الهموم وأفعمتها الأحزان ، فنحن مشفقون على منافعنا العامة نخشى أن يعبث بها الخصوم فى الخارج أو أن يضيعها المواطنون فى الداخل . ونحن مشفقون على منافعنا الخاصة نخشى أن تعبث بها الخصومات الحزبية وتأتى عليها العواصف السياسية . نحن قلقون لا نطمئن الى شىء ولا نثق بشىء ولا نبسم لشىء . فليس عجيبا اذا خلصنا

من هذا الجو القلق المضطرب أن نتهالك على هذه الأشياء التي حرمناها في مصر وحال بيننا وبينها طبعنا من جهة واضطرابنا السياسي والاجتماعي من جهة أخرى .

نعم ! فطبعنا لا يخلو من غلظة ، ومزاجنا أقرب الى المرارة والحزن منه الى الدعابة والابتسام .

نحن لا نلهو لأننا لا نعرف اللهو ولأن في طباعنا نفورا من اللهو ، ولست أدرى أمخطىء أنا أم مصيب في هذه الملاحظة وهى أننا كنا بعد الثورة الوطنية الأخيرة قد أخذنا نتعلم اللهو بل نسرف فيه ، فكانت الأغانى الفكاهية ذائعة عامة ، وكان التمثيل الفكاهى رائجا ، منتشرا ، وكنت لا تكاد تمضى في الشوارع العامة الا سمعت الأطفال والشبان من العمال ومن اليهم يتغنون أغانى « كشكش » وكنت لا تكاد تمر بين الدور في الأحياء الراقية اذا أقبل المساء أو جن الليل الا سمعت البيانو يوقع ألحان كشكش ، وربما وقفت لاستماع صوت رخيم عذب يتغنى مع هذا الايقاع . وكان أصحاب الأخلاق وأهل الحرص على الآداب العامة ينكرون هذا الفساد ويشفقون منه . وكنا نقول ان هذا الانحلال الخلقى عرض من أعراض الثورة . وكنا نستبشر به لأن الثورة الفرنسية قد استتبعت مثله ، فكان الفرنسيون يجاهدون أعداءهم الداخليين والخارجيين ، وكانوا يحتملون آلام الجوع والفاقة ولكنهم كانوا

يلهون ويسرفون فى اللهو . وربما كانوا يستعينون باللهو على ما كانوا يأتون من جلائل الأعمال ويحتملون من أثقال الحياة .

كنا كذلك ، وأظن أن السلطة العامة احتاجت فى بعض الأحيان الى أن تدخل فى الأمر وتكفكف من غلواء المسرفين فأقفلت أو حاولت تقفل بعض المراقص . أما الآن فأحسب أن هذا قد تغير وأننا قد انصرفنا عن اللهو انصرافا واضحا .

انصرفنا عن اللهو دون أن يعظم حظنا من الجد ، فليست حياتنا العامة والخاصة أكثر انتاجا وأشد خصبا الآن منها حين كنا نلهو ونعبث . ولعلى لا أغلو فى الخطأ إذا لاحظت أن حياتنا الدستورية هى التى صرفتنا عما كنا فيه من لهو ، وأزالت عن شفاهنا هذا الابتسام للحياة . ذلك لأننا اعتقدنا يوم نفذ الدستور وأشرف البرلمان على الحكم أن الأمر قد رد الى أهله ، وأننا مقبلون على ساعات الجد والعمل فانتظرنا وما زلنا ننتظر .

ولم لا نقول كلمة الحق ؟ كانت الوزارات التى أشرفت على الحكم قبل الدستور قليلة الحظ من ثقة الجماهير ، فلم يكن الناس يحفلون بها ، ولا ينتظرون منها خيرا بل كانوا يسيئون بها الظن ويتخذونها موضعا للعبث والنقد . وكانت أعمالها وقراراتها تلهم المثلين الهازلين والمغنين العابثين . وكان الناس يرتاحون الى

الضحك منها واتخاذها سخرية وهزؤا . أما الآن فقد أشرف على الحكم رجال كانت تحبهم الجمــاهير وتفتن بهم ، فلم يكن من الميسور أن تتخذهم الجماهير موضوعا للهــو والعبث . واذا لم تعبث الجماهير بحكامها ولم تســخر من وزرائها ونوابها فهى مضطرة الى الحزن والكآبة .

سلنى عما يميز الديمقراطية حقا ، أجبك بأن النظام الديمقراطى الصحيح هو الذى يتيح للجماهير أن تلهو على حساب حكوماتها بل على حساب أبطالها . فاذا أردت دليلا ناطقا بصدق هذا التعريف فاذهب الى باريس واختلف الى أندية اللهو فيها واسمع الى ما يقال عن « هريو » و « دومرج » وعن « بوانكاريه » و « ملران » وانظر الى هذه الجماهير الفرنسية المختلفة تتهالك ضحكا من وزرائها ورؤساء جمهوريتها ، أستغفر الله بل من علمائها وكتابها . ومهما أنس فلن أنسى أغنيتين سمعتهما فى باريس ورأيت ابتهاج الجماهير لهما . فى احداهما مقارنة بين أمعاء المسيو هريو رئيس الوزارة الفرنسية القائمة وأمعاء المسيو بوانكاريه رئيس الوزارة الفرنسية المستقيلة ، وفى الأخرى عبث بالمسيو هريو حين يعمــد الى التليفون .

ولكنى قد بعدت أشد البعد عما كنت أريد أن أتحدث اليك فيه ، وهو ملاهى باريس وقد يحسن أن أعود الى هذا الحديث .

لم أكن حسن الحظ هذا الصيف ، وما أظن أن غيرى كان أحسن حظا منى . فقد وصلنا الى باريس أيام الراحة حين يتفرق عنها الممثلون النابهون ليجوبوا أقطار الأرض الفرنسية والأجنبية وليعرضوا فنهم على المصطافين فى سواحل البحر ومدن المياه ، وحين يستريح الكتاب استعدادا لفصل الشتاء اذ يعرضون آثارهم الجديدة على الجمهور الباريسى وقد عاد من مصايفه الى باريس ، وحين تجتهد الملاعب التمثيلية فى أن تستغل ما لديها من قصص الفصل الماضى لتلهى بها السائحين الذين يمرون بباريس . ومع ذلك فقد لهوت حقا وضحكت كثيرا .

ولقد يكون من العسير أن أذكر دون أن أضحك قصة شهدتها فى ملعب « الباليه رويال » عنوانها « قبلنى » كان الممثلون يمثلونها للمرات الأخيرة ويستعدون لتمثيل قصة أخرى ظهرت أول هذا الشهر ومع ذلك فقد كان الملعب مكتظا بالنظارة . والغريب من أمر باريس أنك تستطيع أن تزورها فى أى فصل من فصول السنة وأن تختلف الى ملاعبها وأنديتها وبيوتها التجارية ، فستجدها دائما مكتظة بالناس وستضطر دائما الى أن تتخذ الحيطة لتبلغ منها ما تريد .

تريد أن تشهد قصة تمثيلية فيجب أن تؤجر كرسيك فى الملعب قبل يوم التمثيل . تريد أن تشترى شيئا فى أحد البيوت التجارية

الكبرى فيجب أن تذهب فى الصباح أو أن تكون صبورا محتملا ان ذهبت فى المساء .

ذهبت الى الملعب بعد ظهر يوم من أيام الآحاد الباريسية ، ولم أكن قد احتطت وكان المطر عنيفا ثقيلا فلم أجد الا كراسى فاحشة الغلاء فاتخذت منها كرسيين ، وأعترف بأنى لم آسف على ما أنفقت لأنى ضحكت بأكثر من ستين فرنكا !!

أسرة شريفة كانت غنية ثم أصابها الفقر ، تقيم فى قصرها المرهون محتملة ألوانا من الضيق ، ثم تصبح ذات يوم واذا القصر قد بيع من أجنبى ، واذا هى مضطرة الى أن تترك هذا القصر الذى تتوارثه منذ خمسة قرون . ولكن لهذه الأسرة شابا مسرفا فى اللعب والعبث قد أدى واجبه الوطنى أثناء الحرب وعرف فى الخندق صديقا من الطبقات المنحطة أمه تبيع الفاكهة ، وقد انقضت الحرب واغتنى ابن بائعة الفاكهة حتى أصبح ضخم الثروة فكتب اليه صديقه الشريف يقترض منه مالا لأنه خسر فى اللعب ، وأقبل هذا الصديق يحمل الى صديقه ما أراد . فانظر الى هذه الأسرة النبيلة تأبى أن تقبله فى القصر ، وأن تضيفه أياما حتى اذا قبلت ذلك بعد مشقة أخذت تتبرم بالفتى وتزدريه ، لأنه لا يعرف طرائق الحياة الأرستقراطية . وكانت عمة الشاب النبيل أشد الأسرة بغضا له وتبرما به ، لا تكاد تلحظه ولا تكاد تحسب لوجوده حسابا . ولكن

الفتى علم ببؤس هذه الأسرة واضطرارها الى أن تترك القصر فأسرع فاشتراه سرا ثم أخذت الأسرة تظهر شيئا فشيئا على هذا السر حتى علمت به ، واذا هي ألعوبة في يد هذا الشاب الذي تزدريه ولا تضيفه الا كارهة . ولكن هذا الشاب كريم خير ، فهو يعرض القصر على الأسرة ولا يبتغي له الا ثمنا ضئيلا هو أن « يقبل » هذه المرأة التي تزدريه وتغلو في بغضه ، فاذا عرض عليهم هذه الصفقة اضطربوا لها اضطرابا شديدا ، فأما الأسرة كلها فتقبل ، وأما هذه المرأة فتأبى وتنفر ثم تذكر أنها قد تطرد من القصر وأن الأسرة قد تصبح مشردة ، فتضطر الى القبول مقتنعة بأنها تقدم نفسها ضحية في سبيل الاحتفاظ بالكرامة والتراث القديم . وقد استعدت لهذه التضحية كما استعدت « ايفيجيني » لتضحى على مذبح أرتميس . ثم خلت الى الفتى فوقفت موقف الجلال وقالت له في ازدراء وسخرية واذعان للقضاء المحتوم « قبلني » ولكن الفتى كريم ، فهو لا يريد أن يقبل هذه المرأة ، وانما يكفيه أنها قد أذعنت لما يريد وهو مستعد لأن ينزل للأسرة عن هذا القصر ، ولكن المرأة قد دهشت لهذا الانصراف عن تقبيلها ، وكأنها تعجب بكرم هذا الفتى ، وكأنها في الوقت نفسه تسخط على هذا الكرم وكأنها كانت تحرص على هذه القبلة دون أن تعلم بهذا الحرص ، وكأنها ترى عدول الفتى عن تقبيلها اهانة لها واصغارا

لجمالها . تشعر بهذا كله شعورا واضحا غامضا فى وقت واحد .

وكنت ترى الفتى يكره هذه المرأة ويريد أن يذلها ، ولكنك تراه الآن لا يكرهها بل يكبرها ولا يريد أن يذلها بل يريد أن يجلها ، واذا هو يعلن اليها حبه فى هذه اللغة الشعبية الغليظة الصريحة ، واذا هى تضطرب لهذا الحب اضطرابا عنيفا ، واذا الحب قد أزال ما كان بينهما من مسافة مادية ومعنوية ، واذا هو يتجاوز القبلة ، فاذا كان الصبح فهى آسفة نادمة تنقطع لوعة وندما لأنها اقترفت هذا الاثم مع رجل ليس من طبقتها ، وهى تعلم أن نساء من أسرتها قد اقترفن هذه الخطيئة ولكن احداهن اقترفتها مع رجل من رجال القصر الملكى والأخرى مع كردينال ، أما هى فقد اقترفتها مع رجل أمه كانت تبيع الفاكهة . وهى تريد أن تأخذ نفسها بأشد أنواع العقوبة تريد أن تزهد فى الحياة وأن تذهب الى الدير والفتى بين يديها يعتذر ويستغفر ويعلن اليها فى ضراعة ومذلة أنه سيبرح القصر حتى لا ترى وجهه البغيض ، فاذا سمعت هذه الجملة غضبت غضبا لا حد له وعنفت الفتى تعنيفا ثقيلا قائلة : أهكذا تريد أن تسلينى عن هذه النكبة المنكرة ؟! ثم فهمنا أنها تريد نوعا آخر من أنواع التسلية وفنا آخر من فنون النسيان والعزاء ... !!

ولست أتم لك تلخيص القصة ، وانما يكفى أن تعلم أنها

تنتهى بالزواج بين هذين المحبين لأن شريفا انجليزيا تبنى الفتى ومنحه ألقاب شرفه فأصبح كفئا لعشيقته .

ولم تبنى الشريف الانكليزى هذا الفتى ؟ لا تسل عن ذلك . فقد يكون فى الجواب على هذا السؤال ما يفضح أم هذا الفتى وقد ماتت . ولا ينبغى أن يذكر الموتى الا بخير .

على أنى قد زرت ملاعب أخرى وشهدت فيها قصصا أخرى وسأتحدث عنها فى فصل آخر .

٦

زوج ألين

كنت أريد أن أضحك حين ذهبت الى ملعب ميشيل لأشهد تمثيل هذه القصة « زوج ألين » وكنت واثقـا بأنني سأضحك وسأضحك كثيرا ، لأن العنوان في نفسه مضحك ولأن القصة كانت تمثل لأول مرة ، فلم يكن النقاد قد كتبوا عنها بعد ، ولأن أسماء الممثلين الذين اشتركوا في تمثيلها كانت تدل على طائفة من الذين مهروا في الفن المضحك ، فأسرعت الى الملعب مبتهجا ، وكأني كنت أضحك مقدما ، وكذلك شأن الناس في باريس يذوقون مقدما ما يبتغون من لذة لأنهم يعلمون أن هذه اللذة ستكون قوية حادة، وأنهم سيظفرون منها بأكثر مما يبتغون .

ذهبنا الى الملعب ضاحكين ، ولم يكد يرفع الستار حتى أغرقنا في الضحك ولكن ما هي الا دقائق حتى استحال هذا الضحك الى حزن وعبوس ، وحتى أحسسنا في أنفسنا شعورا غريبا ليس من اليسير تفسيره لأنه شيء ليس بالسرور الخالص ولا بالحزن الخالص أو قل انه شيء أبلغ أثرا في النفس من الحزن الخـالص ، ولكنه

يكرهك مع ذلك على الابتسام ، وربما أكرهك على الضحك والاغراق فيه . تبسم وأنت عابس وتضحك وأنت محزون .

ذلك لأن الممثل يعرض عليك من خصال الانسان ما يضحكك مظهره أردت أم لم ترد ، وما يحزنك مخبره رضيت أم لم ترض .

لا يكاد يرفع الستار حتى ترى امرأة متقدمة فى السن أقرب الى الشيخوخة منها الى التوسط فى العمر ، لباسها ملائم لسنها وملائم لمصدرها ولطبقتها الاجتماعية ، فلا تكاد تسمع حديثها حتى تحس أنها ليست من باريس ، وانما وفدت من الأقاليم ، وحتى تفهم أنها من هذه الطبقة الغامضة التى لا تبلغ أوساط الناس ولا تريد أن تنحط الى سفلتهم . قدمات عنها زوجها وترك لها ابنة هى « ألين » وهى بارعة الجمال رشيقة القد ، عذبة الصوت ، وقد ضاقت الحياة بها وبابنتها ، فلجأتا الى باريس ، وآواهما رجل موسيقى بارع فى فنه ، ولكنه سىء الحظ بهذا الفن ، لا يكسب حياته الا بمشقة ، أحب الفتاة فآواها وآوى أمها وأصبح أستاذها وعشيقها والقيم على حياتها . وقد مهرت الفتاة فى الغناء كما مهرت فى الرقص وتقدمت الى أحد الملاعب الباريسية ، فقبلت فيه مغنية راقصة ، وهى تبدأ عملها هذه الليلة وأمها تنتظرها متأثرة ، مضطربة فرحة ، مشفقة تقدر الفوز وتريد أن تحتفل به ، فهى تعد مائدة عليها من الطعام والشراب هذه الألوان التى لا يرضاها الموسرون

ولا يظفر بها المعسرون الا بعد الجهد والعناء ، وهى تتحدث بكل ما فى نفسها الى خادم لها حديثة السن ، خفيفة الحركة ، مسرفة فى القول ، فلا تكاد تسمع حوارهما حتى يأخذك الضحك فتغرق فيه حين ترى هذه المرأة التى تكاد تكون شيخة تتحدث فى لهجة الجد الى هذه الفتاة التى تكاد تكون طفلة !! وهما فى هذا الحديث الذى تريانه جدا ونضحك نحن منه ، اذ يدخل الموسيقى فرحا ، قد ملأه الفرح اضطرابا ، فهو يبكى ولكن بكاءه نفسه مضحك ، وهو يعلن الى الأم فوز ابنتها ويحاول أن يمثل لها هذا الفوز ، فيجتهد فى تقليد الفتاة حين غنت بعض المقطوعات التى أعجب بها الجمهور ، والأم سعيدة مغتبطة ، ولكنها مع ذلك ليست راضية لأنها تكره الملاهى وكانت تود لو استطاعت أن تجد عنها منصرفا لابنتها ، أما الموسيقى فسعيد بهذا الفوز ولكنه مشفق منه ، مشفق لأنه يخشى أن تنصرف الفتاة عنه الى هؤلاء النظارة الأغنياء الذين سيرونها فى الملهى وسيتملقونها .

تحس منه ذلك ، وتحس أيضا أنه يحاول كتمان هذا الخوف ، وقد أقبلت الفتاة فرحة ، مبتهجة ، متأثرة ، فهى تقبل أمها وتضم عاشقها وتشكره ، ولكن لن يتاح لهؤلاء الناس أن يحتفلوا بهذا الفوز فيما بينهم فقد أقبل مدير الملهى وأعوانه ورجل غنى من زعماء الصناعة يهنئون الفتاة بهذا الفوز ويدعونها الى أن تنفق

معهم شطرا من الليل في حانة من هذه الحانات التي يفد اليها الباريسيون اذا خرجوا من الملاعب فيأكلون ويشربون ويعبثون ، ونحن نحس أنهم عرضوا ذلك على الفتاة فقبلته قبل أن تعود الى أهلها ، ولكنها تظهر التردد الآن ، لأنها لا تريد أن تترك صاحبها . فما أسرع ما يدعو القوم صاحبها الى الذهاب معهم فيعتذر ويلحون وتظهر هي الرغبة فيقبل كارها ، وينصرفون على أن يرسلوا اليهما السيارة بعد حين . فاذا خلا العاشقان رأينا هذه الأشياء التي تطير القلوب سرورا وتقطعها حزنا . رأينا هذا الموسيقي يريد أن يلبس زي السمر ، فاذا ثيابه وأدواته من الرداءة والبلى بحيث يخجله ذلك ويؤذيه . ولكنه مبتسم يجتهد في أن يكون حسن الزينة ، واذا هو يفتقد أزراره ، فاذا وجد منها واحدا أخطأه الآخر ، وصاحبته تتزين ، وقد أعارها الملعب ثوب الرقص فهي فيه خلابة بارعة . ولكن كثيرا من أدوات الزينة ينقصها وهي تشكو ذلك مغتاظة ، فاذا أحست من صاحبها الألم ابتسمت وتكلفت تهوين الأمر عليه ، وصاحبها يعدها بمضاعفة العمل ليكسب لها ما تحتاج اليه ، وقد أقبلت السيارة فانظر الى الأم مبتهجة ، مفتونة بجمال ابنتها ، وانظر اليها تتبع ابنتها وقد أخذت بفضل ثوبها حتى لا يصيبه غبار السلم ، وانظر الى الخادم الطفلة تسبقهم جميعا وفي يدها الشمعة تضيء السلم وانظر الى العاشق محزونا يتكلف الابتهاج ، وبائسا يتكلف النعيم . .

فاذا كان الفصل الثانى فقد تغير هذا كله ، وسترى قوما تنكرهم لأن النعمة ألمت بهم فأزالت كل ما رأيت فى الفصل الماضى من مظاهر البؤس . ذلك لأن « ألين » قد اشتهر أمرها وظهر نبوغها، فابتسمت لها الثروة وأصبحت لا تشكو عسرا ولا ضيقا ، وظهرت آثار ذلك حولها فأما أمها فليست شيخة ولا كالشيخة ، وانما هى امرأة وسط فيها قوة وشباب ، تلبس على آخر طراز ، وتزدان على آخر طراز ، وقد تغيرت لهجتها فهى باريسية ، وتغير صوتها فهو رخيم ، وتغيرت حركاتها فهى رشيقة ممتازة . وأما الموسيقى فقد أصبح شابا قويا بادى الظرف حسن الزينة رائع المنظر وقد اقترن بصاحبته . وكذلك الخادم تغيرت وامتازت . والغريب أنها ليست وحدها فى البيت بل يشاركها غلام عليه العناية بغرف الاستقبال وما اليها . ولسنا فى باريس ولا فى ذلك البيت الذى يضاء بالشمع ويخشى غباره على فضل الثياب وانما نحن فى بيت أنيق فخم فى مصطاف على ساحل البحر يجمع أرقى الطبقات وأغناها اذا أقبل الصيف من كل عام . ونحن نرى مدير الملعب وصاحبته وأعوانه وذلك الرجل الغنى يترددون على « ألين » فيلعبون ويصفقون ، ونحن نرى زوج « ألين » سعيدا مغتبطا ينبىء صديقه بأن الله قد أذن له أن يكون غنيا ، وأنه يضع قصة موسيقية ستنال الجائزة من غير شك ، وأنه سيكون ناقدا موسيقيا لصحيفة كبرى ، وأن كل

شيء في الحياة يبسم له . ولكن انظر الى القوم قد أقبلوا ، وانظر الى الموسيقى قد خرج مع صديقه في بعض شأنه ، وانظــر الى « ألين » قد خلت الى الرجل الغني بينما يجلس الآخرون أمام غرفة الاستقبال يرقبون عودة الزوج وكأنهم يلعبون ، واسمع الى هذا الحــديث يقع بين « ألين » وبين صاحبها الغني . فاذا هما عاشقان واذا هي تخون زوجها ، واذا هذه الخيانة مصدر ما ترى من نعيم ، ولكن هذا الرجل ضيق الصدر بهذا الزوج الغبي .

ضيق الصدر لأنه يريد أن يستأثر بصاحبته وهذا الزوج الغبي يحول بينه وبين ذلك .

وفي الحق أغبي هذا الزوج حقا أم هو متغاب ؟ أليس يتكلف الغفلة ليستمتع بنعيم الحياة ؟

ذلك شيء يفترضه الغني وتأباه « ألين » وهما في الحــديث والعبث اذ يسمعان صياح أصحابهما الذين يلعبون « لقد أقبل فلان ! لقد أقبل فلان ! » .

تنبها ، فانفصلا . ودخل الموسيقى وانصرف القوم ، وأخذ الزوجان يتحدثان ، فاذا الرجل محزون بائس ، واذا امرأته اللعوب تسأله عن مصدر هذا الحزن فيتردد ثم يجيبها بأنه سمع الناس يذكرونه فيقولون « زوج ألين » ولا يسمونه باسمه ، وبأنه رآهم يشيرون اليه ويبتسمون ، فهو اذن يشك . وهي تدافعه عن هذا

الشك بما أوتيت من حيلة ودل ودعابة . وانظر اليه قد أخذ حقيبة امرأته ونظر فيها فاذا مقدار ضخم من المال فلا يزداد الا شكا . وانظر اليه يذكر أن امرأته لعبت الميسر أمس وخسرت كثيرا ولم تنبئه بشيء وانما سمع بذلك عفوا ، فهو لا يزداد الا شكا . وانظر اليه قد استكشف عند امرأته عقدا من الجوهر لا علم له به فلا يزداد الا شكا . ولكنها ماهرة وهو عاشق فتستطيع أن تخدعه عن أمرها وأن تستميله اليها وأن تخلبه بما تبذل من لذة ، وهو أغبى من غلامه الذى يفهم كل شيء ويتحدث الى زميلته الخادم بكل شيء .

فاذا كان الفصل الثالث تحدث الموسيقى الى صديقه وقد استيقن كل شيء ، وأصبح لا يشك فى خيانة امرأته .

ذلك أن القوم اعتزموا الخروج للنزهة وتخلف هو عنهم متكلفا العمل ثم تبعهم وهم لا يعلمون فلم ير فيهم زوجه ، ولم ير فيهم ذلك الرجل الغنى ، واذن فقد كذبت عليه امرأته حين زعمت أنها خارجة للنزهة وأنفقت يومها مع صاحبها . ونحن نعلم ذلك لأننا سمعناه فى الفصل الثانى . وانظر الى هذا الموسيقى متألما محزونا ولكنه متجلد صبور ، يعلن الى صديقه أنه سيترك هذه الحياة كلها وسيعود الى حياته الأولى : حياة البؤس والشرف والكرامة ، ولكنه يريد أن يلهو قبل هذه العودة ، وانه للهو أليم .

أقبل القوم جميعا من نزهتهم وفيهم « ألبن » وفيهم الرجل الغنى ، وكلهم يقص ما رآه ويصف جمال النزهة والموسيقى مبتهج يتحدث اليهم جميعا حديث من لا يشك فى شىء وأنت ترى من القوم جميعا أنهم يسخرون منه ، ويرون فيه الغفلة ، وقد هموا بالانصراف ليلتقوا بعد حين الى مائدة العشاء فى الحانة . واذا الموسيقى يمسك الرجل الغنى ليبقى معه حينا ، فاذا انصرف القوم وخلا الزوجان الى هذا الرجل الغنى بدأت طائفة من المواقف المؤثرة التى تملؤك عطفا على الزوج وسخطا على امرأته واعجابا بالكاتب والممثلين . انظر الى هذا الزوج الموتور يريد أن ينتقم لنفسه ولكرامته ، ولكنه لا يريد أن يكون سخيفا ، ولا ضحكة ، ولا مجرما ، فهو لا يريد العنف ولا سفك الدم ، وانما يريد أن يكون مترفقا فى انتقامه . انظر اليه يعذب الخائنين عذابا أليما لأن موضعه الضمير . يستثير غيرة الرجل الغنى بما يبدى من التلطف لامرأته ، وبما يتكلف من مداعبتها وقد ضمها اليه ، ثم أجلسها على حجره ، وأخذ يداعبها هذه المداعبة المشروعة بين الزوجين ، والتى لا تكون الا فى الخلوة ، والرجل ينظر ويتألم دون أن يستطيع اعتراضا أو احتجاجا ، والمرأة خجلة ذليلة بين هذين الرجلين اللذين يتقسمانها وهى تتكلف الحياء لتتخلص من هذا الموقف الأليم ولكن الزوج لا يحفل بحيائها ولا بألمها . وهو الآن ينتقل من المداعبة

الى الحديث ، فيقص على صاحبه أسرار الزوجية وما تمنحه امراته من لذة اذا خلت اليه حتى اذا قضى وطره من تعـذيب الخائنين واذلالهما أطلق امرأته فذهبت لتصلح من شأنها قبل العشاء ، وخلا هو الى الخائن ، وهنا موقف ليس أقل من الموقف الذى سبقه جمالا وتأثيرا . هذا الزوج يتحدث الى عاشق امرأته ، فما هى الا أن يعلن اليه أنه يعلم كل شىء ، فاذا وجم الرجل وسأله عما يريد وانتظر الكارثة ، أعلن الزوج اليه أنه لا يريد شيئا وأنه راض بهذه الحال واذا الرجل الخائن شديد الازدراء لهذا الزوج الذى لا يجرى الدم فى عروقه والذى يرضى أن تكون امرأته شركا بينه وبين غـيره . يريد أن ينصرف فيمسكه الزوج ، اذ ليس بد من الاتفاق على أشياء وتدبير مصالح لابد من تدبيرها . هما شريكان فى المرأة وقد يمكن أن يكونا غدا شريكين فى طفل تلده هذه المرأة. وما يزال هذا الزوج يرقى فى تمثيل الضعة والمهانة والخيانة والاثم حتى يكشف عن أخس ما فى النفس الانسانية من عاطفة . انه يلهو ، وهو يلهو بازدراء الانسان ، فاذا بلغ من ذلك ما يريد أطلق الرجل، وقد اتفق معه على أن يأتى بعد حين ليحمل هذه المرأة فى سيارته الى حيث يريد . ثم تقبل المرأة فيلقاها زوجها مبتسما ، وتأخذ فى عتابه على ما أباح من أسرار الزوجية ، فما يزال بها حتى يعلن اليها أنه عالم بكل شىء ، وراض عن كل شىء ، وقابل لهذه الشركة التى تضمن

لهما الثروة والنعيم . واذا المرأة تزدرى زوجها حقا وتحتقره احتقارا لاحد له ، واذا هى تتألم حقا لأنها كانت تريد أن يحبها زوجها ، وأن يكون شديد الغيرة عليها ، فاذا هى ترى نفسها متاعا يتقسمه رجلان . ولكن الزوج قد أطال الصبر والتكلف وغلا فى كظم عواطفه ، فهو لا يستطيع الآن صبرا ، وانظر اليه وقد انفجر كما ينفجر البركان . فهو ثائر فائر لا يكاد يملك نفسه ، ولا يكاد يمسكها عن اغتيال هذه المرأة ، وقد ظهر حبه قويا عنيفا ، وظهرت غيرته ، وكلها روع وهول وهو يصيح بامرأته « أترين فى ما يدلك على أننى قواد ؟ » والمرأة وجلة مضطربة ولكنها سعيدة مغتبطة لأنها تشهد الحب والغيرة ، ولأن زوجها لا ينظر اليها نظره الى المتاع ، وهى تريد أن تستغفر ، وتريد أن تتوب ، ولكن الزوج يحاول طردها ، ثم يبدو له فيطرد نفسه . وقد أنبأها أن صاحبها سيأتى بعد حين ليحملها فى سيارته ، وقد انصرف وتركها تعسة ، بائسة تنتحب وتصيح ، ولكن السيارة قد أقبلت ، وهى تدعو بالباب ، فانظر الى هذه المرأة قد نهضت متثاقلة الى المرآة فأصلحت من شعرها ووجهها وخرجت فى هدوء تجيب داعى اللهو والثروة والنعيم .

الناس معنيون فى هذه الأيام عندنا بالخصومة بين العلم والدين . وقد بدأت عنايتهم بهذه الخصومة تشتد منذ السنة الماضية ، حين ظهر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » فنهض له رجال الدين ينكرونه ويكفرون صاحبه ، ويستعدون عليه السلطان السياسى . وزادت هذه العناية شدة حين ظهر فى هذه السنة كتاب « فى الشعر الجاهلى » فنهض له رجال الدين أيضا ينكرونه ، ويكفرون صاحبه ، ويستعدون عليه السلطان السياسى .

والحق أن هذه الخصومة بين العلم والدين — كما قلت فى غير هذا الموضع — قديمة يرجع عهدها الى أول الحياة العقلية الفلسفية . والحق أيضا أن هذه الخصومة بين العلم والدين ستظل قوية متصلة ما قام العلم وما قام الدين لأن الخلاف بينهما كما سترى أساسى جوهرى لا سبيل الى ازالته ولا الى تخفيفه الا اذا استطاع كل واحد منهما أن ينسى صاحبه نسيانا تاما ويعرض عنه اعراضا مطلقا . وقد نعرض بعد قليل لهذا الموضوع فى شىء من التفصيل والاسهاب . ولكن الذى نحب أن نلاحظه منذ الآن هو أن التفكير فى هذه الخصومة بين العلم والدين قد حمل بعض المفكرين على أن

يلتمسوا لها أسبابا قريبة أو بعيدة ، وعلى أن يسألوا أنفسهم أليس الى ازالتها من سبيل ؟ وقد نشأ عن هذا التفكير نوع من الفلسفة قيم كثرت فيه الكتب والمباحث . ولسنا نريد أن نعرض له الا من ناحية واحدة وهى الناحية التى تتصل بالسياسة وتحملها على أن تنتصر للعلم مرة وللدين مرة أخرى ، وعلى أن تعتز حينا بهذا وحينا بذاك . واذا عرضنا لهذا الموضوع فلسنا نريد الا شيئا واحدا هو تحقيق التوازن بين هذه المؤثرات الثلاثة فى حياة الأفراد والجماعات وهى العلم والسياسة والدين .

الحق أن الخصومة لم تكد تنشأ بين العلم والدين أو بين العقل والدين حتى دخلت فيها السياسة فأفسدتها وانصرفت بها عن وجهها المعقول الى وجه آخر ، لم يخل من الاثم بل من الاجرام .

أول خصومة ظاهرة بين العقل والدين هى هذه التى نشأت فى آخر القرن الخامس قبل المسيح حين أخذ سقراط يطوف فى شوارع أثينا ومعه حواره وفلسفته يقف بهما حينا عند هذا الحذاء، وحينا آخر عند الحمام ، ومرة فى أحد الميادين العامة ، ومرة أخرى فى نادى الألعاب الرياضية ، ويدعو اليه الشبان والكهول والشيوخ أحيانا فيحاورهم فى الحق والعدل والواجب والقصد وما الى ذلك من هذه المسائل التى كانت تشغل الشعب الأثينى فى ذلك الوقت .

لم يكن سقراط يتخذ عداوة الدين مذهبا ، ولا الخروج عليه غاية لفلسفته أو حواره ، بل نستطيع أن نقول انه كان من أشد معاصريه محافظة واعتدالا ، فهو انما كان يخاصم السوفسطائية ، ويريد أن يهدم مذاهبهم فى الشك ، وأن يرد الى العقل سلطانه ، ويبين أن حقائق الأشياء ثابتة ، ولكنه كان يحاور على طريقة السوفسطائية ، وكان يتخذ الشك سبيلا الى اليقين ولم يكن يكره أن يضع كل شىء موضع البحث ، وأن يعرض كل شىء للشك حينا وللانكار حينا آخر ، فلم يسلم الدين ولا غيره مما كانت تحتفظ به الجماعة الأتينية من خطر هذا الشك والانكار . ولم يسلم الدين من خطر هذا الشك ، ولم يسلم منه النظام السياسى الأتينى أيضا ، فقد كان سقراط يحاور فى كل شىء ويعرض — كما قلنا — كل شىء للشك والانكار . وكان الشعب الأتينى فى آخر القرن الخامس قبل المسيح حريصا مسرفا فى الحرص على نظامه الديمقراطى الذى ائتمر به الأرستقراطيون غير مرة فعرضوه للخطر وأزالوه حينا ما . فلم يكن من الغريب أن يكره الشعب الأتينى كل فلسفة تمس هذا النظام الديموقراطى ، أو تعرضه للشك ، أو لتصرف عنه الشباب قليلا أو كثيرا . ولم تكن الديموقراطية الأتينية قد وصلت الى ما وصلت اليه بعض الديموقراطيات الحديثة من الفصل بين الدولة والدين ، وانما كانت تقيم السياسة على الدين وترى الدين أصلا من أصول وجودها ، وأساسا من أسس حياتها ،

وفصلا من فصول نظامها السياسي . فكانت فلسفة سقراط أمام الديموقراطية الأثينية آثمة من وجهين : آثمة لأنها تعرض النظام نفسه للخطر ، وآثمة لأنها تعرض الدين للخطر . ومن هنا لم يكد خصوم سقراط يقفونه موقف القضاء من الشعب حتى ظهر تدخل السياسة فى الخصومة بين العقل والدين ، وكان موقف سقراط من قضاته أثناء الدفاع وبعد الحكم محنقا ، يثير السخط ويدعو الى القسوة . فقسا القضاة وأثمت السياسة حين قضت بالموت على أبى الفلسفة .

ومن ذلك الوقت أصبحت الخصومة بين العقل والدين ، أو قل بين العلم والدين أمرا لا مندوحة عنه : يخاف الدين كل فلسفة وكل علم ، ويرتاب العلم بكل دين . ومن ذلك الوقت تحدد موقف السياسة بين هذين الخصمين ، وظهر أنه لن يكون موقف اصلاح بينهما ، وانما هو موقف افساد واحراج واثارة للحفيظة والحقد .

لم يقف سخط السياسة الأثينية على الفلسفة عند القضاء على سقراط وانفاذها هذا القضاء فيه ، وانما تجاوزه الى اضطهاد تلاميذه والشك فيهم ، فتفرقوا فى الأرض واستخفت الفلسفة من أثينا حينا فلما عادت اليها وسمتها ، ولكن مع شىء كثير جدا من التحفظ والارتياب ، فما اطمأنت الديموقراطية الأثينية يوما الى أفلاطون ولا رضيت على ارسطاليس ، والناس جميعا يعلمون أن المعلم الأول كاد يقف من القضاء موقف سقراط لولا أن هرب من أثينا .

٢

ليست الخصومة بين العلم والدين اذن مقصورة على ما نعرف من الخصومة بين الديانات السماوية والعلم والفلسفة أثناء القرون الوسطى وفي هذا العصر الحديث . وانما هي كما رأيت قديمة ، قد ظهرت بين الديانة الوثنية اليونانية وبين فلسفة سقراط وتلاميذه. ومع ذلك فقد كانت الديانة الوثنية اليونانية من أيسر الديانات وأقربها الى السذاجة وأقلها حظا من التعصب . وحسبك أن هذه الديانة اليونانية كانت تخلو خلوا تاما من مؤثرين عنيفين : أحدهما الكلام ، والآخر الاكليروس . لم يكن للديانات اليونانية كلام أو لاهوت بل لم تكن للديانات اليونانية عقائد محددة وانما كانت هذه الديانات عبادات وطقوسا — كما يقولون — لا أكثر ولا أقل . لم تكن للآلهة صفات معروفة معينة يكفر من ينكرها أو يشك فيها ، ولم يكن لليونان علم يشبه هذا العلم الذى يتقنه اليهود والنصارى والمسلمون وهو علم اللاهوت . وكذلك لم يكن لليونان قسيسون يحتكرون هذا العلم ويقومون على حماية الدين وصيانته من عبث العابثين ، أو الحاد الملحدين ، وانما كان كل يوناني قادرا على أن يؤدى للآلهة ما يجب لهم من عبادة ، وكان

زعيم الأسرة قسيسها ، وكان زعماء المدينة كهنتها . واذا لم يكن للدين لاهوت يفرضه على الناس فرضا ، واذا لم يكن للدين هيئة قسيسين أو كهنة يحتكرون حمايته والقيام عليه . فخليق بهـذا الدين أن يكون قليل الحظ من التعصب والجمود ، وخليق بهذا الدين أن يكون قليل الحظ من مصادرة العقل ومخاصمة حرية الرأى والوقوف فى سبيل التطور والرقى . ومع هذا كله فقد اختصم هذا الدين الساذج اليسير مع الفلسفة وانتهت الخصومة بموت سقراط . ذلك لأن الخلاف بين العلم والدين لا يستمد قوته وعنفه من الفرق بين جوهرى العلم والدين فحسب ، وانما يستمد قوته وعنفه من مصدر آخر ، هو أن الدين حظ الكثرة والعلم حظ القلة ، فسواد الناس مؤمن ديان ، مهما يختلف العصر والطور والمكان ، والعلماء أو الفلاسفة قلة دائما . فليس غريبا أن تظهر الخصومة قوية عنيفة بين هذه القلة الشاذة التى نسميها العلماء أو الفلاسفة والتى تفكر على نحو خاص لم يألفه الناس ، وليس من اليسير عليهم أن يألفوه ، والتى لا تكتفى بالتفكير لنفسها ، وانما تريد أن تفكر لنفسها وللناس أيضا ، والتى اذا فكرت وانتهى تفكيرها الى رأى لم تكتف باذاعته وترويجه ، وانما تذود عنه وتجادل ، وتسرف فى الذود والجدال ، والتى لا تكتفى بهذا كله وانما تحرص على التأثر بتفكيرها وما ينتهى اليه من رأى ، وتحرص

على أن تلائم بين حياتها العملية وحياتها العقلية ، فتمتاز من الناس من ناحيتين مختلفتين : تمتاز منهم فى حياتهم اليومية ، وتمتاز منهم فى القول والتفكير . وأنت تعلم أن السواد أشد ما يكون كرها للتفوق وأعظم ما يكون بغضا للامتياز ، فهو يريد دائما أن يكون الناس سواسية فى كل شىء ، سواسية فى القول والعمل ، سواسية فى الأكل والشرب والنوم والمشى وغيرها من مظاهر الحياة . وأنت مهما تبحث عن أسباب التطور التى اضطربت لها المدن القديمة ودالت لها الدول الحديثة ، فستجد فى مقدمة هذه الأسباب سببا محققا هو بغض السواد للتفوق والامتياز ، وطموحه الى المساواة بين الناس فاذا كان هذا التفوق يمس أصلا من أصول الحياة العامة ، بل يمس أيسر هذه الأصول وأقربها تناولا وأشدها اتصالا بالضمائر والنفوس وتأثيرا فى الحياة اليومية ، نقول اذا كان التفوق يمس هذا الأصل الذى هو الدين فخليق بالسواد أن يبغضه ويثور به وينكل بالمتفوقين تنكيلا متى استطاع الى ذلك سبيلا .

وكذلك كان ميل السواد فى أثينا . وكذلك كان موقفه من سقراط وتلاميذه .

على أن تقرير هذا الأصل ، وهو بغض السواد للجديد لا ينتهى بنا الى هذه النتيجة وحدها ، وانما يعيننا على فهم حقائق أخرى وقعت فى العصور القديمة والوسطى ولم يحاول الباحثون أن يردوها الى أصولها الصحيحة . فالسواد لا يكره تفوق العلماء وحدهم ، وانما يكره التفوق من حيث هو . قل ان شئت انه يكره كل جديد ، وهو مضطر بحكم هذا الكره الى أن يقاوم هذا الجديد ما استطاع ، فاما أن ينتصر فلا جديد ، وانما أن ينخذل فيتسلط الجديد شيئا فشيئا حتى يصبح قديما ، ويستعير من خصمه الأول كل الأسلحة التى حاربه بها ، ليدافع بها عن نفسه ، ويناهض بها كل جديد . ومن هنا نستطيع أن نفهم أن السواد القديم اليونانى والرومانى لم يحارب الفلسفة وحدها ، وانما حارب الدين أيضا . فأما اليونان فقد وقفوا موقف الخصومة من ديانات شرقية حاولت أن تنبث فى بلادهم ، ووفقوا بعض التوفيق فى هذا الموقف ، فلم تستطع هذه الديانات الشرقية أن تنتشر فى البلاد اليونانية جهرة ، وانما ارتدت عنها ارتدادا أو انتشرت فيها خلسة فكونت لنفسها جماعات سرية تؤدى واجباتها من وراء ستار.

وأما الرومان فكرهوا فى أول الأمر فلسفة اليونان أشــد الكره ، لقوها بالازدراء ، ثم قاوموها مقاومة سياسية ، فحظروا درسها وبلغ بهم ذلك آن زعيما من زعمائهم هو « كاتو القديم » توسل الى مجلس الشيوخ فى أن يتعجل فى قضاء حاجــة لبعض السفراء اليونانيين ليترك هؤلاء السفراء المدينة ، ويستريح منهم سواد الشعب . وكان بين هؤلاء السفراء فلاسفة انتهزوا سفارتهم فرصة لالقاء محاضرات فلسفية فى روما . ولكن الرومان لم يكرهوا الفلسفة اليونانية وحدها ، وانما كرهوا معها كل جديد أيضا ، وليس أدل على ذلك من اللفظ الذى اصطلح الرومان عليه للتعبير عن الثورة وقلب النظام فهو « الشىء الجديد » فهم لا يقولون ان فلانا يريد أن يثور ، أو ان فلانا ثار وانما يقولون : ان فلانا يريد أن يحدث شيئا جديدا . ذلك أن الرومان كانوا من أشد الشعوب القديمة فى الغرب محافظة وحرصا على القديم . ومع أن دينهم لم يكن أشد من الدين اليونانى تعقيدا ، ومع أنه لم يكن كالديانات السماوية يعتمد على كلام أو لاهوت ، فقد كان يمتاز من الدين اليونانى امتيازا قويا من وجهين ؛ الأول أنه كان أشــد من الدين اليونانى تسلطا على حياة الفرد والجماعة ، فقد كان الفرد الرومانى من أشد الناس طيرة واشفاقا ، يخاف من كل شىء ، ويرى تأثير الآلهة فى كل شىء ، ويحرص على أن يتملقهم ويترضاهم ، وكان

وجود الأسرة نفسها قائما على أصول من الدين . وكانت الجماعة الرومانية كالفرد الرومانى حذرة متطيرة . وكان وجودها السياسى كوجود الأسرة قائما على أصول ثابتة من الدين . ونحن لا نعرف عند اليونان زجرا ولا عيافة ولا قيافة ، ولكننا نرى هذا كله عند الرومان ونراه مؤثرا أشد التأثير فى الحياة الخاصة والعامة جميعا، الثانى أن هذا الفرق بين الفرد اليونانى والرومانى من حيث التأثر بالدين قد استتبع نتيجته الطبيعية ، وهى أن تكون عناية السياسة بالدين ملائمة لشدة ما لهذا الدين من التأثير فى نفوس الأفراد والجماعات ، فنظمت حماية السياسة بالدين فى روما تنظيما قويا ، وقام فى روما شىء يشبه (الاكليروس) له سلطته الدينيـة وله امتيازاته أيضا . واذ كان رئيس الدولة سواء أكان ملكا أو قنصلا انما يستمد سلطته من الشعب بعد استشارة الآلهة ، أو قل من الآلهة بعد استشارة الشعب ، فقد كان الواجب الأول على الملك أو القنصلين حماية الدين . وكذلك قامت بحماية الدين فى روما جماعة (الاكليروس) وهيئة الحكومة ومجلس الشيوخ الذى كان واجبه الأول حماية ما ترك الآباء . فلا تعجب اذا رأيت الرومانيين يقاومون الجديد مهما يكن ، ويشتدون فى مقاومته اذا مس الدين. ولا تعجب اذا رأيت الرومان فى عصورهم الأولى يبغضون أشد البغض ويناهضون أشد المناهضة هـذه الديانات الأجنبية التى حاولت أن تنبث فى روما بعد أن انبسط سلطان روما على الأرض .

كل هذا يرجع الى أصل واحد وهو أن الدين أقوى ما يمثل نفس السواد ، فالسواد به كلف ، وله محب ، وعليه حريص ، وعنه ذائد ، يبذل فى ذلك ما يستطيع من قوة وجهد . وقد قلت منذ حين ان حرص السواد على دينه لا يكلفه محاربة العلم والفلسفة وحدهما وانما يكلفه محاربة كل جديد من شأنه أن يمس الدين . ومن غريب الأمر أنك اذا فكرت قليلا فيما تسميه خصومة بين العلم والدين رأيت أن بعض الديانات أو أن الديانات السماوية نفسها قد كان ينظر اليها كما ينظر الى العلم ، أى أن الديانات القديمة كانت تكره دين اليهود والنصارى وتحاربهما كما كانت تكره فلسفة سقراط وتحاربها لا لشىء الا أن دينى اليهود والنصارى كانا جديدين مخالفين لطبيعة هذه الديانات الوثنية القديمة . ولسنا فى حاجة الى أن نقف بك عند هذه الحرب المنكرة التى أثارتها وثنية الرومان على دين اليهود أولا وعلى دين النصارى ثانيا . فأنت تعرف من تفصيل هذه الحرب وعن اضطهاد الوثنية لليهودية والنصرانية ما يغنينا عن مثل هذا الاستطراد . ولكننا نلاحظ أن الأسباب التى حملت الوثنية الرومانية على أن تنكر توحيد اليهود

والنصارى وتنصب له الحرب وتمزق أهله تمزيقا ، هى بعينها الأسباب التى حملت وثنية اليونان فى آخر القرن الخامس قبل المسيح على أن تقضى على سقراط وتذيقه الموت . هى بعينها الأسباب التى تتصل بعواطف السواد وميوله الدينية من ناحية ، وبالسياسة واستخدامها لهذه العواطف والميول من ناحية أخرى . ولعلك تقتنع بهذا اقتناعا لا يقبل الشك اذا فكرت فى طبيعة الامبراطورية الرومانية التى حاربت اليهودية والنصرانية قرونا متصلة . كانت هذه الامبراطورية الرومانية تقوم على الدين كما كانت الديمقراطية الأثينية والأرستقراطية الرومانية تقومان على الدين أيضا . وكان الامبراطور قد جمع اليه السلطان الدينى والسياسى ، وأخذ الناس بعبادته فى أقطار الأرض على أنه ممثل روما التى كانت تعبد ابان العصر الجمهورى ، وعلى أنه خليفة الله فى أرضه . وكانت الشعوب الوثنية الخاضعة للسلطان الرومانى لا ترى بأسا بعبادة قيصر كما أنها لم تكن ترى بأسا بعبادة روما . وكانت عبادة قيصر يسيرة على الشعوب الشرقية ، وعلى المصريين منهم بنوع خاص ، وقد ألفت هذه الشعوب منذ أول الزمان عبادة السادة والملوك . وكانت هذه العبادة عسيرة أول الأمر على اليونانيين الذين لم يألفوا من قبل عبادة الأفراد ، والذين ضحكوا من الاسكندر حين تقدم اليهم أن يعبدوه . ولكن اليونان خالطوا

الأمم الشرقية واتصلوا بها ، وكان لهم فيها ملوك عبدوا كما عبد الفراعنة وعظماء الفرس ، فهان عليهم الأمر ومضوا فيه جادين حينا ولاعبين حينا آخر كدأبهم في كل شيء ، انما هذا الشعب السامي الذي بعد عهده بالوثنية منذ حين طويل ، والذي ألف التوحيد وأمعن فيه ، وهو شعب اسرائيل ، لم يستطع أن يفهم عبادة روما ولا عبادة قيصر ، كما أنه لم يستطع أن يفهم عبادة فرعون ولا أن يدين لآلهة بابل وآشور . ومن هنا كانت ديانة هذا الشعب السامي منكرة ثقيلة على الرومان لأنها تخالف دياناتهم الوثنية وتخالف سياستهم القائمة على هذه الديانة . وجاءت النصرانية فكانت أشد مخالفة لطبيعة الوثنية ولطبيعة السياسة القائمة عليها من اليهودية . فلم يتردد قياصرة الرومان في محاربة هذه النصرانية الا ريثما فهموا خطرها على السياسة والدين . ولدينا أقدم نص تاريخي يتصل باضطهاد النصارى ، وهو استفتاء من أحد حكام الأقاليم للامبراطور « تراجانوس » آخر القرن الأول للمسيح في أمر هذه المتنصرة وما ينبغي أن يتخذ نحوها من سياسة ، وقد اعتاد المؤرخون أن يثنوا على هذا الأمبراطور لأن رده على مستفتيه كان رفيقا لينا . ومع ذلك فان هذا الامبراطور لم يطلب الى مستفتيه أن يقر حرية الدين ، ولا أن يدع المتنصرة ، وانما طلب اليه ألا يحفل بما يرفع اليه الجواسيس ، فأما معاقبة النصراني الذي تثبت نصرانيته فلم

يكن منهما بد ، لأن النصرانية كانت خروجا على السياسة وعلى دين الدولة معا .

وعلى هذا النحو من تعاون السواد وحكومة السواد . أو قل على هذا النحو من استغلال السياسة لعواطف السواد سفكت دماء النصارى فى الشرق والغرب .

وامض بعد ذلك فى تاريخ النصرانية ، فسترى أنها صبرت وصابرت وجاهدت حتى كان لها النصر ، وأصبحت فى القرن الرابع ديانة الدولة الرومانية . فلم تظفر بهـذه المكانة السياسية حتى استغلتها فأسرفت فى استغلالها ، وسفكت دماء الأثينيين وهدمت معابدهم وصادرت أموالهم كما سفك الوثنيون دماء النصارى وهـدموا بيعهم وصادروا أموالهم . ومنـذ ذلك الوقت كانت محالفة بين الوثنية والفلسفة لا لشيء الا لأن هذه الفلسفة قديمة كالوثنية ، مخالفة لطبيعة المسيحية كما أن الوثنية مخالفة لهـذه الطبيعة . فأنت ترى أن الفلسفة كانت عدو الوثنية ولقيت منها ألوان الاضـطهاد . وأنت ترى أن الفلسفة هى التى أعانت على اعداد الشعوب القديمة للمسيحية وترقية العقل القديم والمباعدة بينه وبين الوثنية ، ولكنك ترى أن المسيحية لم تكد تظفر بالسلطان حتى أنكرت العدو والصديق ، ونصبت الحرب للوثنية والفلسفة معا . وأنت تعلم أن الأمر انتهى بالفلسفة الى أن التمست لها دارا

لا يتسلط فيها المسيح ، فهاجرت الى الفرس واستظلت بلواء الساسانيين . وعندنا أن المسيحية لو لم تظفر بسلطانها السياسى لما خاصمت الفلسفة ولما تورطت فيما تورطت فيه من الجحود وانكار الجميل . فهى مدينة بكثير للأفلاطونية القديمة وهى مدينة بكثير للأفلاطونية الجديدة . ويخيل الينا أن طبيعة المسيحية الخالصة ، وطبيعة الأفلاطونية الخالصة ، لم يكن بينهما من الخلاف ما ينتهى بهما الى الخصومة والحرب ، لولا أن السياسة قد دخلت بينهما فأفسدت الأمر عليهما جميعا .

٥

بل فى الأمر ما هو أشد غرابة من هذا كله ، فقد وقعت نفس هذه الخصومة بين الديانات السماوية السامية نفسها وعلى النحو الذى وقعت به بين هذه الديانات وبين الديانات الوثنية القديمة . نريد أن الديانات اليهودية اعتبرت المسيح مجددا مبتدعا فأنكرته، ونصبت له الحرب على نفس النحو الذى أنكر الأتينيون به سقراط ونصبوا له الحرب . ونريد أن نقول ان المسيحية بعد انتصارها قد اعتبرت النبى مجددا فأنكرته ونصبت له ولدينه الحرب ، وكل ما بين الاسلام والمسيحية من الفرق من هذه الناحية ، هو أن المسيحية لبثت حينا طويلا لا تعتز بالسلطان السياسى ، فطال اضطهادها ولقيت ما لقيت من بلاء ، وأن الاسلام لم يلبث بعيدا عن السلطان السياسى الا أعواما ريثما تمت الهجرة ، فما كاد يظفر بهذا السلطان حتى دافع عن نفسه فناهض الوثنية واليهودية والنصرانية وكان النصر له آخر الأمر .

فالخصومة فى حقيقة الأمر ليست بين العلم والدين ، ولا بين الوثنية واليهودية والنصرانية والاسلام ، ولا هى بين دين ودين ، وانما هى أعم من ذلك وأيسر ، هى بين القديم والجديد ، هى بين

السكون والحركة ، هى بين الجمود والتطور . والا فكيف تستطيع أن تفهم أن يلقى سقراط والمسيح ومحمد عليهما السلام اضطهادا من نوع واحد ؟ وكيف تستطيع أن تفهم أن يتشابه موقف الوثنية والمسيحية واليهودية على اختلاف الأمكنة والأزمنة وأجيال الناس وطبائع جنسياتهم ؟ كيف تستطيع أن تفهم تشابه هـذه المواقف جميعا ، اذا لم تردها الى أصل واحد ، وهو الخصومة بين القديم والجديد ، أو استغلال السياسة للخصومة بين القديم والجديد ؟ وما الذى كان بعد أن تم النصر للاسلام فى ناحية من أنحاء الأرض وانقسم العالم القديم بينه وبين النصرانية ، فاستأثر الاسلام بالشرق واستأثرت المسيحية بالغرب .

نحب أن تفكر فى الأمر تفكيرا علميا مجردا من الهوى مبرأ من الغرض ، لا يتأثر بالعصبية الجنسية ولا الدينية فسترى أن الأمر قد سار فى الشرق والغرب على أسلوب واحد ، فلم يكد الاسلام ينتصر ويستقر فى الأرض ويظفر بالسلطان السياسى ويفرغ من الحرب والفتوح حتى كره ملوكه الجديد وأكثروا الحرص على القديم واستغلوا ميل العامة الى القديم وحرصهم عليه ، واتخذوا هذا الاستغلال وسيلة الى الحكم والتسلط ، فأنكروا كل جديد وحاربوه . وعلى هـذا النحو سارت المسيحية فى أوروبا ، وكان لأصحاب الدينين صرعى فى الشرق والغرب . وكان العلم موضع

الاضطهاد فى هذين القطرين من الأرض . ولكن هنا وقفة يجب أن نقفها لنكون منصفين ، فالحق أن ليس فى طبيعة الاسلام ولا فى طبيعة المسيحية ما يدعو الى الاضطهاد ولا الى محاربة الجديد ولا الى مناهضة حرية الرأى . ولك أن تقرأ القرآن والأناجيل وتمعن فى القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن فى البحث ، فلن تجد نصا أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو الى مناهضته ، أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأى قليلا أو كثيرا ، ليس فى الاسلام ولا فى المسيحية اذن ما يدعو الى مناهضة حرية الرأى ، لم يكن فى الوثنية اليونانية أو الرومانية ما يدعو الى مناهضة حرية الرأى أيضا . ومع ذلك فقد أثم الوثنيون وأثم اليهود والنصارى والمسلمون واعتدوا جميعا على حرية الرأى اعتداء يختلف قوة وضعفا .

أليس مصدر هذا فى حقيقة الأمر انما هو استغلال السياسة لعواطف السواد ؟ بلى ، ولولا أن السياسة تريد أن تتخذ ماتستطيع من الطرق والوسائل لتتسلط على نفوس الناس وتتملق عواطف السواد لما قتل الأثينيون سقراط ، ولما حاول اليهود صلب المسيح ، ولما سفك الرومان دماء اليهود والنصارى ، ولما أخرجت قريش محمدا وأصحابه من ديارهم ، ولما عذب ابن رشد و « جليلى » ولما حرق من حرق وشرد من شرد من العلماء والمفكرين .

وشىء آخر لابد من اثباته لنكون منصفين ، وهو أن تبعات المسيحيين أثقل من تبعات المسلمين فى مناهضة العلم ومحاربة حرية الرأى ، فأنت تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أوذوا فى البلاد الاسلامية ، وأنت تستطيع أن تلاحظ أنهم قليلون جدا ، وأن تلاحظ أيضا أنهم لم يلقوا من الأذى الا قليلا . ولكنك تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أوذوا فى ظل المسيحية ، فستراهم كثيرين جدا ، وسترى أنهم لقوا من الأذى ألوانا منكرة أخفها السجن ، وأقساها الموت والعذاب بين هذين اللونين ومصدر هذا أن الاسلام حر طلق ليس له ما للمسيحية من (الاكليروس) والكنيسة المنظمة ، وأن الاسلام حر طلق أيضا لا يأخذ العقل الانسانى بما لا يطيق ولا يكرهه على الايمان بما لا يفهم ولا يضع أمامه الأسرار التى يجب أن يقبلها دون روية أو تفكير . ومصدر ذلك أيضا أن الاسلام حر طلق لم يجعل للحكومة على النـــاس سبيلا فيما يفكرون ويرون وانما اتخذ هذه القاعدة السمحة أساسا لسياسته بازاء حرية الرأى : « لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » وهو اذن لم يمنح السلطة السياسية على الناس حق الموت والحياة ، وانما بين حدود الله تبيينا وعرف الأفراد حقوقهم وواجباتهم ، ورسم للحكومة فى هذا الوجه طريقا لا تعدوه حتى تأثم . فليس للحكومة المسلمة أن تعذب مسلما أو تؤذيه وهو يعلن

ايمانه بالله ورسوله ، وانما موقف الحكومة المسلمة موقف الاسلام نفسه لا تتحرك الا حين يتعرض الاسلام للخطر . هو موقف دفاع لا موقف هجوم . ومصدر ذلك أيضا أن الاسلام من أشد الديانات نصرا للتجديد ونعيا على الذين يسرفون فى نصر القديم . وكثيرة جدا فى القرآن هذه الآيات التى تسخر من المشركين الذين عاصروا النبى أو لم يعاصروه لأنهم أبوا الاجابة الى دين الله حرصا على القديم وكراهة أن يعبدوا ما لم يكن يعبد آباؤهم ، كل هذا جعل الحكومة الاسلامية وعلماء الدين من المسلمين أقل ميلا الى الاضطهاد وأشد احتراما لحرية الرأى من الحكومات المسيحية ورجال الدين من المسيحيين . وقد يكون من الخير أن نلاحظ أن المسلمين لم يعرفوا اضطهادا لحرية الرأى فى عصورهم الأولى حين كانت الحكومة عربية خالصة منصرفة الى الشئون السياسية وحدها غير متدخلة فى حياة الأفراد ولا فيما يرون . فلسنا نعرف أيام الخلفاء الراشدين اضطهادا لحرية الرأى . ولسنا نعرف شيئا من ذلك أيام بنى أمية ، مع أن البدع ظهرت وكثرت فى هذه الأيام . ذلك لأن الحكومة فى تلك العصور كانت عربية خالصة والعربى حر بطبعه ، ولأن الحكومة فى تلك العصور كانت قريبة الى الأصول الاسلامية الخالصة ، وأصول الاسلام حرة بطبعها . فلما كان عصر بنى العباس وتسلطت على المسلمين حكومة عربية فى

ظاهر الأمر ، أعجمية فى حقيقته ، ظهرت الخصومة بين العلم والدين وظهر اضطهاد الحكومة لحرية الرأى ، فكان ما كان من تتبع الزنادقة أول أيام بنى العباس ، على أن الزنادقة كانوا يتحدون الاسلام حقا ويحاولون الافساد فى الأرض أحيانا . ثم كان ما كان من تتبع الذين يخالفون رأى الخليفة فى الدين ، وفتنة الناس فى آرائهم أيام المأمون ، ثم كان ما كان من تسلط الترك وتسلط الجمود معهم على الحياة الدينية والعقلية ، فأنت ترى معى أن الاسلام والمسيحية بريئان من اضطهاد الرأى ومناهضة العلم وأن اثم ذلك واقع حقا على السياسة التى تدخلت بين الدين والعلم أو بين السواد والعلماء . ولما كان حظ رجال الدين المسيحى من سلطان السياسة أعظم من حظ رجال الدين الاسلامى ، كان اعتداء (الاكليروس) المسيحى على الحرية أشد خطرا وأبعد أثرا .

ولك الآن أن تعكس الأمر ، فان الدين لم يعتد وحده على العلم ، بل اعتدى العلم على الدين أيضا حين آل اليه السلطان . وقد رأيت أن المسيحية اعتدت على الوثنية وحاربتها بنفس الأسلحة التى حاربتها الوثنية بها . وقد رأيت أنا لا نرى الخصومة بين العلم والدين من حيث هما علم ودين ، وانما نراها واقعة بين القديم والجديد من حيث هما قديم وجديد . ولو أن سواد الناس عنى بالمسائل اللغوية والأدبية عنايته بمسائل الدين ، لكان من المجددين فى اللغة والأدب صرعى وشهداء كما كان من المجددين فى العلم والدين والفلسفة . ونحن نرى فى أول هذا العصر الحديث حركة تدعو الى حرية الرأى والى التجديد فى كل شىء فى العلم والأدب والفلسفة والدين . فأما المظهر الدينى لهذه الحركة فالبروتستانتية ، وأما المظهر العلمى فحياة «جليلى» و«كوبرنيك» ومن اليهما من العلماء وأما المظهر الفلسفى فحياة « ديكارت » و « باكون » و «ولبنيتز» و « سبينوزا » ومن اليهم ، وأما المظهر الأدبى والفنى فكل هذه الحركة القوية الخاصة التى تلحظها فى ايطاليا ثم فى فرنسا ثم فى انجلترا والتى أخرجت من الشعراء والكتاب والمصورين والمثالين . نرى هذا كله ولكننا لا نرى الحرب بين القديم والجديد

عنيفة تنتهى الى سفك الدماء الا فى المظهر الدينى الخالص ، أو فى ما يكون من الخصومة بين المظهر الدينى والمظهر العلمى الفلسفى. فأنت تعلم ما سفك من الدماء بين الكاثوليك والبروتستنت . وأنت تعلم ما لقى العلماء والفلاسفة من أذى رجال الدين . وأنت تعلم أن ديكارت انما آثر حياته فى هولندا — كما يقول رينان — لأن الناس كانوا عنه فى شغل بتجارتهم . واذن فلا بد من أمرين لتكون الخصومة بين العلم والدين أو بين الحرية والدين عنيفة منكرة : أحدهما أن يعنى السواد بهذه الخصومة . والثانى أن تستغل السياسة عناية هذا السواد . ولولا أن السواد عنى بالخصومة بين الكاثوليكية والبروتستانتية وبالخصومة بين العلم والدين ، ولولا أن السياسة اعتزت بهذا السواد لما سفك دم ولا حرق عالم ولا أوذى فيلسوف . على أن البروتستانتية قاومت حتى كان لها النصر ، واستأثرت بجزء عظيم من أوروبا ، وعلى أن العلم والفلسفة قاوما حتى كان لهما النصر ، واستأثرا بالعقول فى أوروبا أثناء القرن الثامن عشر . وليس هنا موضع البحث عن الأسباب التى أتاحت للعلم والفلسفة الاستئثار بعقول كثير من سواد الناس أثناء هذا القرن الثامن عشر . ولكن هناك حقيقة واقعة لا تقبل الشك ، وهى أن العقل الأوروبى تطور فى هذا العصر تطورا شديدا غريبا فنصب الحرب لهذين الحليفين اللذين

أذلاه حينا وهما السياسة الملكية والكنيسة الكاثوليكية ، نصب الحرب لهذين الحليفين واعتز فى حربه هذه بالعلم والفلسفة . وظل يجاهد حتى كانت الثورة الفرنسية . وهنا انعكست الآية وأثم العلم والفلسفة أو قل أثم أصحاب العلم والفلسفة ، كما أثم أصحاب الدين من قبل ، فاضطهد الدين اضطهادا شديدا ولقى رجال الدين ضروبا من المحن والفتن ، وكان الذين يفتنون رجال الدين ويمتحنونهم هم أولئك الذين كانوا متأثرين بفلسفة « فولتير » و « مونتسكيو » و « جان جاك روسو » و « ديدرو » وغيرهم .

وكان قوام هذه الفلسفة من الوجهة العملية والنظرية انما هو الدعوة الى حرية الرأى والى التسامح . فما بال هذه الفلسفة التى كانت تدعو الى الحرية والتسامح قد استحالت عدوا للحرية والتسامح . أما الفلسفة نفسها فلم تتغير ، ولم تنكر الحرية ولم تنصب لها الحرب ، وانما ذنبها واثمها أنها ظفرت بعد الثورة الفرنسية بالمكانة السياسية الرسمية فطغت أو طغى أصحابها وأسرفوا فى الطغيان ، أمرها من ذلك كأمر المسيحية ، كانت تعذب وتضطهد وتدعو أثناء ذلك الى الحرية والتسامح حتى اذا أصبحت دين الدولة طغى أصحابها وأسرفوا فى الطغيان . فالاثم فى حقيقة الأمر ليس اثم الدين ولا اثم العلم ولا اثم الفلسفة وانما هو اثم

هذه الدخيلة التى تتوسط بين هذين العدوين فتسلح أحدهما على الآخر وتستغل هذا لمنفعتها الخاصة .

وفى الحق أنى أحاول أن أفهم كيف يستطيع الدين أو العلم أن يعتدى على الحرية العلمية أو الدينية اذا لم تمدده السياسة بالذخائر والسلاح فلا أجد الى هذا الفهم سبيلا . تصور بلدا وقفت السياسة فيه موقف الحيدة المطلقة بين العلم والدين فكفت أيدى الناس عن الناس ، وأقرت الأمن فى نصابه ، وتركت للعلم حريته ، وللدين حريته فما الذى يمكن أن يقع من العنف بين العلماء ورجال الدين ؟ لا شىء الا الخصومة الكلامية ، لا شىء الا المناقشة والجدل ، ومن الذى يستطيع أن يرى شرا فى المناقشة أو الجدل ؟!

٧

سنظن بعد أن نقرأ هذا كله أنا لا نرى الخصومة قوية بين العلم والدين فى نفسهما ، وانما نرى أن السياسة تستغلهما لمنفعتها ولو تركتهما لتصافيا وائتلفا .. كلا ! نحن لا نرى هـذا الرأى وانما نرى ما قلناه فى أول هذا البحث من أن الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لا سبيل الى اتقائها ولا الى التخلص منها . هى أساسية جوهرية لأن العلم والدين لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الانسان ، وانما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل ، يتأثر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ، ولا يتأثر الآخر بالخيال الا بمقدار ولا يعنى بالعاطفـة الا من حيث هى موضوع لدرسه وتحليله . والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين أسن من العلم ، ولأنه كان فى العصور القديمة كل شىء : كان دينا وكان علما ، ولأن العلم جاء بعد ذلك فغير هذا القسم العلمى من الدين ، وأبى الدين أن يذعن لهذا التغيير ، وأبى العلم أن ينزل عما ظفر به من الثمرات . فلن يتفقا الا اذا جحد أحدهما شخصيته كما قلت فى غير هذا المكان .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين يرى

لنفسه الثبات والاستقرار ، ولأن العلم يرى لنفسه التغير .
فلا يمكن أن يتفقا الا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه ، ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يتقدم ثم لا يكره أن يحجم ، ويمضي ثم لا يكره أن يرتد ، ويبنى ثم لا يتحرج من الهدم ، فلا يمكن أن يتفقا الا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

فالخصومة بينهما أمر لابد منه . ولكن المسألة فى حقيقة الأمر ليست فى أن الخصومة واقعة أو غير واقعة ، وانما هى فى أن الخصومة ضارة أو نافعة أو بعبارة أدق : المسألة هى أن نعرف هل كتب على الانسانية أن تشقى بالعلم والدين أم هل كتب على الانسانية أن تسعد بالعلم والدين ؟ أما نحن فنعتقد أن الانسانية تستطيع أن تسعد بالعلم والدين جميعا . وأنها ملزمة اذا لم تستطع أن تسعد بهما أن تجتهد فى ألا تشقى بهما . وسبيل ذلك عندنا واضحة ، وهى أن ينزع السلاح كما يقولون من يد العلم والدين ، أو قل سبيل ذلك أن نرغم السياسة على أن تقف موقف الحيدة من هذين الخصمين . فالعلم فى نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، والدين فى نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، ولكن السياسة تريد وتستطيع الأذى غالبا . وهى كما قلت تتخذ العلم حينا وسيلة الى

هذا الأذى وتتخذ الدين حينا آخر وسيلة اليه . وهب السياسة لم تطع رجال الدين ولم تشتر نفوسهم وضمائرهم ولم تهيىء لهم من أسباب الرغد والنعيم ما يصرفهم عن الله ويجعل الدين فى أيديهم سلعا تباع وتشترى ، أو هب السياسة لم تفسد نفوس العلماء وضمائرهم وأخلاقهم ولم تشترهم بالمناصب وأسباب السلطان ولم تمنحهم من أسباب الرغد والنعيم ما يحولهم عن البحث العلمى الهادىء الى هذه الخصومة العنيفة العقيمة ، هب السياسة لم تشغل أولئك ولا هؤلاء ولم تمكن السواد من أن ينتصر لأولئك أو هؤلاء فماذا تكون النتيجة ؟ تكون أن يمضى رجال الدين فى حياتهم الدينية ورجال العلم فى حياتهم العلمية وأن ينصرف السواد الى حياته العملية المنتجة منتفعا بالدين فيما بينه وبين الله ، منتفعا بالعلم فى تدبير شئونه اليومية ، وأن تزول هذه الخصومات المنكرة التى تقسم الناس شيعا وأحزابا ، وتغرى بعضهم ببعض وتجعل بعضهم لبعض عدوا ، وتبث فيهم ألوان الرذيلة وحب الكيد والوقيعة وما اليها من الرذائل الفاحشة .

وهل تظن أن وقف السياسة هذا الموقف شىء عسير حقا ؟ كلا ! قد كان عسيرا قبل هذا العصر الحديث حين لم يكن بد للحكومة من أن تستغل الدين أو من أن تستغل العلم . فأما هذا العصر الذى نحن فيه فقد استطاعت السياسة أن تستقل

وأن تمشى على قدميها دون أن تعتمد على عصا دينية أو علمية .
ذلك لأن فكرة الوطنية وما يتصـــل بها من المنافع الاقتصـــادية والسياسية الخالصة قامت الآن فى تكوين الدول وتدبير سياستها مقام فكرة الدين أو مقام هذه النظريات الفلسفية الميتافيزيقية التى كانت تقوم عليها الحكومة من قبـــل . وأين هى الحكومة التى تستطيع الآن أن تزعم أنها تقوم على الدين أو أنها تقوم لحماية الدين ، أو أنها تقوم على أساس ما من هـــذه الأسس الفلسفية المختلفة : حماية الواجب أو حماية الحق أو حماية العدل ؟ أين هى الحكومة التى تستطيع أن تجهر بشىء من ذلك دون أن يضحك منها الناس جميعا وأن يكون رعاياها أول الضاحكين ؟ أتستطيع الحكومة المصرية مثلا أن تزعم أنهـــا انما تقوم على الاســـلام وبالاسلام وللاسلام ؟ كلا . كما أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تزعم أنها انما تقوم على المسيحية وبالمسيحية وللمسيحية . ومع ذلك فقد كانت مصر موئل الاسلام فى جميع عصورها الاسلامية ! ومع ذلك فقد كان ملوك فرنسا يلقبون أنفسهم أصحاب الجلالة المسيحية ! ومع ذلك فقد كان ملوك مصر وسلاطينها يعاهدون ملوك اوروبا باســـم المسلمين ويزعمون لأنفسهم حمـــاية بيت المقدس والحرمين الشريفين ! ومع ذلك كان ملوك فرنسا يعاهدون دول

الشرق الاسلامى باسم المسيحية ويزعمون لأنفسهم حماية المسيحية فى بلاد الاسلام !

كان هذا كله ، ولكن هذا كله قد تغير ، فمصر لا تستطيع أن تزعم أنها حامية بيت المقدس أو الحرمين الشريفين أو أنها الناطقة بلسان المسلمين الذائدة عن حوض الاسلام . بل لست أدرى أتستطيع مصر الآن أن تزعم أنها تحمى الاسلام فى أقطارها الخاصة ولا تتجاوز حدوده عمدا أو كرها . ولا تستطيع فرنسا أن تزعم لنفسها حماية المسيحية فى الأقطار الاسلامية ، بل لا تستطيع أن تزعم لنفسها حماية المسيحية فى أقطارها الخاصة . لا تقوم الحكومة المصرية الحديثة ولا الحكومة الفرنسية الحديثة على أساس من دين ولا من علم ولا من فلسفة ، وانما تقوم الحكومة الحديثة فى أقطار الأرض المتحضرة الآن على أساس سياسى خالص من المنفعة الاقتصادية والمدنية لا أكثر ولا أقل . وقد فرغ الناس من هذا وأصبحوا لا يفكرون فى أن الحكومة تقوم على الدين أو لا تقوم عليه . فان فكروا فى صلة بين الدين والحكومة وهذا قليل نادر ، فانما يفكرون فى طبيعة الموقف الذى يجب أن تقفه الحكومة الحرة الصالحة من دين الكثيرة والقلة . أتعترف بهذه الديانات أم تنكرها أو تجهلها فى غير اعتراف ولا انكار ؟

نعم ان دستورنا المصرى قد نص فى صراحة أن الاسلام دين الدولة . وكان هذا النص مصدر فرقة لا نقول بين المسلمين وغير المسلمين من أهل مصر ، فقد رضيت القلة المسيحية وغير المسيحية هذا النص ولم تحاور فيه ، ولم تر فيه على نفسها مضاضة أو خطرا . وانما نقول انه كان مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم ، فهم لم يفهموه على وجه واحد ولم يتفقوا فى تحقيق النتائج التى يجب أن تترتب عليه . فأما عامة الناس فلم تلتفت الى هذا النص ولم تحفل به ، وأكبر ظننا أنها ما كانت لتشعر بشىء لو لم يوجد هذا النص فى الدستور . فعامة الناس فى مصر منصرفون بطبعهم الى حياتهم العملية ، مستعدون أحسن الاستعداد وأقواه للاتصال بأزمنتهم وأمكنتهم وللملاءمة بين حياتهم وبين ضرورات التطور . وهم يعلمون أن الاسلام بخير ، وأن الصلوات ستقام ، وأن رمضان سيصام ، وأن الحج سيؤدى ، وهم يذهبون فى القيام بواجباتهم الدينية مذهب غيرهم من الناس المعتدلين ، لاهم بالمسرفين فى التدين ولا هم بالمسرفين فى العصيان والفسوق . فسواء عليهم أنص الدستور أم لم ينص ان الاسلام دين الدولة ، وسواء عليهم

أسيطرت الحكومة أم لم تسيطر على شعائر الدين ، ما دامت هذه الشعائر قائمة محترمة . انما وقعت الفرقة حول هذا النص بين فريقين من المسلمين المصريين : أحدهما المستنيرون المدنيون ، والآخر شيوخ الأزهر ورجال الدين . فأما المستنيرون فقد فهموا أن الدستور حين ينص أن الاسلام دين الدولة لا يريد أن يعلن احترامه لدين الكثرة وما توارثت من تقاليد ، ويكلف الحكومة مقدارا قليلا من الواجبات التى تتصل بهذه التقاليد . فلما أرادوا تحليل هذا كله فهموا أن هذا النص لا تزيد على تقرير الواقع من أن رئيس الدولة فى مصر يجب أن يكون مسلما ، ومن أن شعائر الاسلام يجب أن تقام بعد صدور الدستور ، كما كانت تقام قبل صدوره ، فلا تغلق المساجد ، ولا يعطل الحج ، ولا تعمل الحكومة فى أيام الأعياد الاسلامية ولا ينقطع اطلاق المدافع فى رمضان ، ولا يلغى الحفل بالمحمل ولا الحفل بالمولد النبوى ولا تنفق أموال الأوقاف الاسلامية فى غير ما رصدها له الواقفون . ولم يخطر لهؤلاء المستنيرين فى يوم من الأيام أن هذا النص سيكلف الحكومة واجبات جديدة دينية ، أو أنه سيحدث فى الدولة نظما لم يكن لها بها عهد من قبل . ذلك لأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن مصر تمضى الى الأمام وتسرع فى الاتصال بالمدنية الغربية وتريد أن تحقق

ما قال اسماعيل من أنها جزء من أوروبا . ولأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن فى الاسلام من اللين والمرونة ما يمكنه من التطور مع الزمن وملاءمة الظروف المختلفة ويعصمه من الجمود والسكون ، ويحول بينه وبين أن يكون عقبة فى سبيل الرقي الاجتماعي والاقتصادى . ولأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن حكومة مصر قد اضطرت بحكم هذه الحياة الحديثة الى أن تأتى من الأمر مالم يكن يبيحه الاسلام من قبل ، فهى تعامل المصارف ، وتنظم الربا ، وتبيح ألوانا من المعصية ، بل تستغلها أحيانا فاذا كان نص الدستور أن الاسلام دين الدولة يدل على معناه حقا فلا أقل من تغيير كل هـذه المحدثات ولا أقل من أن يغير نصوصا تكفل حرية الرأى وتبيح للناس أن يلحدوا ، وتسوى بين المسلم وغـير المسلم فى الحقوق والواجبات ، وما كان الاسلام ليبيح الالحاد ولا ليسمح للملحد أن يعلن الحاده وخروجه على الدين ، وأحكام المرتد معروفة فى الاسلام وما كان الاسلام ليسوى بين المسلم وغير المسلم فى بلد يكون هو فيها الدين الرسمى .

فهم المستنيرون هذا كله ، ولم يعارضوا فى هذا النص حين أعلنت لجنة الدستور أنها ستضعه فى الدستور ، بل هم فريق منهم أن يعارض لأنه خشى أن يفهم هذا النص على غير وجهه فما زالوا به حتى كفوه عن المعارضة ، واضطروه الى السكوت ، وقالوا :

نص فيه ارضاء لعاطفة السواد وطمأنة للشيوخ فهو لا يضر ، وأكبر الظن أنه قد يفيد .

ولكن الشيوخ فهموا هذا النص فهما آخر ، أو قل انهم فهموه كما فهمه غيرهم ، ولكنهم تكلفوا أن يظهروا أنهم يفهمونه فهما آخر ، واتخذوه تكأة وتعلة يعتمدون عليها فى تحقيق ضروب من المطامع والأغراض السياسية وغير السياسية . فهموا أن الاسلام دين الدولة أى أن الدولة يجب أن تكون دولة اسلامية بالمعنى القديم حقا ، أى أن الدولة يجب أن تتكلف واجبات ما كانت لتتكلفها من قبل . وعلى ذلك أخذوا يطالبون بأمور ما كانوا يطالبون بها قبل الدستور . وذهب فريق منهم على رأسه نفر من هيئة كبار العلماء الى أبعد حد ممكن ، فكتبوا يطلبون ألا يصدر الدستور لأن المسلمين ليسوا فى حاجة الى دستور وضعى ومعهم كتاب الله وسنة رسول الله . وذهب بعضهم الى أن طلب الى لجنة الدستور أن تنص أن المسلم لا يكلف القيام بالواجبات الوطنية اذا كانت هذه الواجبات معارضة للاسلام ، وفسروا ذلك بأن المسلم يجب أن يكون فى حل من رفض الخدمة العسكرية حين يكلف الوقوف فى وجه أمة مسلمة كالأمة التركية مثلا . ولكن هذه المطالب كلها أهملت اهمالا ومضت لجنة الدستور فى عملها حتى أتمته والشيوخ فيها ممثلون . وليس هنا موضع التعريض أو

التصريح بما كان للشيوخ من سعى أثناء أعداد الدستور وقبل صدوره . ولكنا نكتفى بأن نلاحظ أنهم أو بأن كثرتهم لم تكن تبتسم للدستور حقا . وصدر الدستور وابتهج به الناس جميعا واطمأن اليه الناس جميعا الا الشيوخ فانهم لم يكتفوا بقبول الدستور والرضا بما فيه من المساواة والحريات المكفولة بل استغلوه استغلالا منكرا فى حوادث مختلفة أهمها حادثة « الاسلام وأصول الحكم » وحادثة كتاب « فى الشعر الجاهلى » . واليك نظرية الشيوخ فى استغلال هذا النص الذى ما كان يفكر واحد من أعضاء لجنة الدستور فى أنه سيستغل وسيخلق فى مصر حزبا خطرا على الحرية ، بل خطرا على الحياة السياسية المصرية كلها . يقول الشيوخ ان الدستور قد نص أن الاسلام دين الدولة ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم الدستور حماية الاسلام من كل ما يمسه أو يعرضه للخطر ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تضرب على أيدى الملحدين وتحول بينهم وبين الالحاد أو تحول بينهم وبين اعلان الالحاد على أقل تقدير . ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تمحو حرية الرأى محوا فى كل ما من شأنه أن يمس الاسلام من قريب أو بعيد سواء أصدر ذلك عن مسلم أو عن غير مسلم . ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم الدستور أن تسمع ما يقوله الشيوخ فى هذا الباب . فاذا أعلن أحد رأيا أو ألف كتابا ، أو نشر فصلا ،

أو اتخذ زيا ، ورأى الشيوخ فى هذا كله مخالفة للدين ونبهوا الحكومة الى ذلك ، فعلى الحكومة بحكم الدستور أن تسمع لهم وتعاقب من يخالف الدين أو يمسه بالطرد أولا ان كان موظفا ، ثم بتقديمه الى القضاء بعد ذلك ، ثم « باعدام جسم الجريمة » كما يقول رجال القانون على كل حال . ومما زاد الأمر تعقيدا والموقف حرجا بين المستنيرين ورجال الدين بازاء هذا الوجه من وجوه الحرية الدستورية أمران : أحدهما أن النظام السياسى القديم كان قد أنشأ فى مصر شيئا يسمى هيئة كبار العلماء وجعل لهذا الشيء حقوقا وألوانا من السلطان على طائفة من الناس ، وجعل لهذا الشيء ضربا من السيطرة المعنوية على أمور الدين فى مصر . وكان المعقول أن صدور الدستور يجب أن يمحو من هذا النظام القديم كل ما لا يتفق مع نصوص الدستور نفسه ، ولكن هيئة كبار العلماء ظلت قائمة مستمتعة بحقوقها محتفظة بسلطانها وسيطرتها لا تعتز بهما ولا تستغلهما لأنها لم تكن تلتفت من هذا كله الا الى ما يمنحها من المرتبات ومنازل الشرف حتى صدر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » . فأحست هيئة كبار العلماء أو أريد منها أن تحس أن لها حقوقا وسلطانا ، واستغلت هيئة كبار العلماء أو أريد منها أن تستغل تلك الحقوق وهذا السلطان . الثانى أن الدستور لم يكد يصدر حتى عطل أو كاد يعطل فقد صدر الدستور فى أوائل سنة ١٩٢٣ ولكن البرلمان لم يأتلف الا

في أوائل سنة ١٩٢٤ ، وكانت الحكومة القائمة بين صدور الدستور وانعقاد البرلمان لأول مرة حكومة ضعف وتفريط في كل شيء ، كانت حكومة لا تعتمد على نفسها ولا تستطيع أن تثبت على قدميها الا أن يسندها مسند من اليمين ان مالت الى اليمين ، أو مسند من الشمال ان مالت الى الشمال ، ولم يكن يسندهامسند اليمين أو مسند الشمال عفوا ولا ابتغاء مرضاة الله ، وأنما كان يسندها هذا المسند أو ذاك لمنافع ومطامع . فقوى في ظل هذه الحكومة الضعيفة أمر الرجعية وكثر الريش في أجنحة الشيوخ ، وطلب الأزهر أمورا فما أسرع ما أجيب اليها وكان أظهر هذه الأمور الغاء مدرسة القضاء أو مسخها وانشاء أقسام التخصص في الأزهر . ثم انعقد البرلمان فانصرف بطبيعة الحال الى ما كان ينبغي أن ينصرف اليه من المسألة السياسية الخارجية ، وبينا هو منصرف الى هذه المسألة السياسية الخارجية تحرك الشيوخ أو قل تحرك الأزهر كله أو قل حركة الأزهر تحريكا فظهرت له مطالب غريبة ضخمة فيها اعنات واحراج وتعمل ، ورفعت هذه المطالب الى الحكومة البرلمانية الشعبية يومئذ مع شيء من الالحاح ومع شيء من الضجيج والعجيج والمظاهرات الغريبة داخل الأزهر وفي شوارع المدينة وميادينها وعند القصر . وهمت الحكومة البرلمانية أن تأخذ بالحزم أمام هذه الحركة الغريبة التي لم يكن يعرف أيهما أعظم فيها أثرا أحظ الدين أم حظ

السياسة والمنفعة . ولكن الحوادث المنكرة التى حدثت آخر تلك السنة ذهبت بالبرلمان وبالحكومة البرلمانية . وقامت فى مصر يومئذ حكومة أخرى أشبه شىء بتلك الحكومة التى كانت قائمة بين صدور الدستور وائتلاف البرلمان ، حكومة ضعف وتردد واضطراب ، حكومة تميل الى اليمين حينا فتكاد تهوى لولا أن يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمنا ، وتميل الى الشمال حينا فتكاد تهوى لولا أن يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمنا أيضا.
وكان من الأثمان التى دفعتها هذه الحكومة الاستماع للأزهريين والنزول عندما كانوا يريدون واستغلال هذا فى الخصومة السياسية الحزبية ، فما أسرع ما ألفت لجنة وزارية درست مطالب الأزهريين وقبلتها وأخذت فى تنفيذها . وبهذا تقدم الأزهر خطوة أخرى فى سبيل السيطرة والسلطان وأحس الأزهريون أنهم يستطيعون أن يخيفوا الحكومات ويكرهوها على أن تذعن لهم وتنزل عند ما يريدون . وكانت نتيجة هذا كله أن ألغيت أو مسخت « دار العلوم » كما ألغيت أو مسخت مدرسة القضاء من قبل وأن احتكر الشيوخ أو كادوا يحتكرون التعليم الأولى وان زادت مخصصات الأزهر المالية ، وأن قوى فى وزارة المعارف الميل الى نشر التعليم الدينى فى مدارس الحكومة كلها من طريق الأزهريين وكانت الفكرة الأساسية الخفية أن يكلف الأزهر نشر هذا التعليم الدينى وأن يثبث شيوخ الأزهر فى مدارس الحكومة كلها . وكانت النتيجة

السياسية الخطرة لهذا كله أن تكون فى مصر أو أخذ يتكون فيها حزب رجعى يناهض الحرية والرقى ، ويتخذ الدين ورجال الدين تكأة يعتمد عليها فى الوصول الى هذه الغاية . وفى أثناء ذلك ظهر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » فاستغل فى سبيله كل ما تقدم وظهر أن فى مصر حزبا سياسيا يتخذ الدين وسيلة لمناهضة حرية الرأى بنفس الوسائل التى كانت تناهض بها أثناء القرون الوسطى فى أوروبا . أنكر الكتاب وحوكم صاحبه وأخرج من صف العلماء وفصل من منصبه وانتهى هذا كله بأزمة سياسية حادة ظهر فى أول الأمر أن هذا الحزب السياسى الدينى هو الذى انتفع بها واستفاد منها فقد أخرج وزير من الوزارة واستقال معه طائفة من أصحابه ، فقبلت استقالاتهم فى سرور وابتهاج ، واعتز رئيس الوزراء بالنيابة يومئذ بأنه نصير الدين وحاميه والذائد عن حوضه . وكان كل هذا يشد أزر الشيوخ ويقوم ايمانهم بأن النص الذى يشتمل عليه الدستور يكلف الحكومة واجبات ما كانت تتكلفها من قبل . فلم يعرف تاريخ مصر الحديث شيئا من اضطهاد حرية الرأى باسم السياسة والدين قبل صدور الدستور وحين كانت مصر خاضعة لسلطان الخلافة التركية يشبه ما كان من ذلك بعد صدور الدستور وبعد انقطاع الأسباب بين مصر وسلطان الخلافة بل بعد انهيار الخلافة نفسها .

ومهما يكن من شيء فقد استيقن رجال الدين أنهم مؤيدون وأن لهم عضدا يسندهم فطمعوا وأسرفوا في الطمع . ومما يظهر هذا الطمع حادثتان : احداهما حادثة الأزياء في دار العلوم ؛ هذه الحادثة التي وقفت فيها الحكومة موقف الخادم المطيع لصاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والتي انتهت كما يعلم الناس جميعا بشيء من الاذعان فيه افساد للأخلاق واكراه للشبان على النفاق . فقد أخذ طلاب دار العلوم يذهبون الى مدرستهم في زي الشيوخ ، وقد اتخذوا من تحت هذا الزي زيا آخر يظهرونه متى خرجوا من المدرسة . والحادثة الثانية أن بعض الممثلين هم بالسفر الى أوروبا ليلعب قصة تمثيلية فيها شخص النبي صلى الله عليه وسلم فغضب الشيوخ لذلك وطلبوا الى وزارة الداخلية أن تمنع هذا الممثل مما كان يريد ، وأن تتخذ لذلك ما ترى من الوسائل حتى الوسيلة السياسية فتخاطب الحكومة الفرنسية في أن تمنع تمثيل هذه القصة في بلادها ، وكان هذا الممثل طيعا هينا فأذعن لأمر الداخلية ومضى الشيوخ .

واتخذت مشيخة الأزهر لنفسها منذ ذلك الوقت اسم الرياسة الدينية العليا ، وهو اسم مبتدع لا يعرفه الاسلام ، ولا يؤمن له مسلم يعرف واجباته الدينية حقا ، وكثرت فتاوى « الرياسة الدينية العليا » ولم ينس أحد بعد فتواها في تحريم القلانس على المسلمين

وفى أثناء هذا كله ظهر كتاب « فى الشعر الجاهلى » وهنا اصطدمت السلطة الدينية بالحرية العلمية اصطداما عنيفا ، فلم يكن صاحب هذا الكتاب من علماء الأزهر ولا خاضعا لهيئة كبار العلماء ، ولم يكن فردا مطلقا من الناس ، وانما كان أستاذا فى معهد علمى يرى لنفسه الحرية المطلقة كلها فى الرأى ، ويرى لنفسه السيادة فيما يدرس ، وما ينشر لا يحده فى ذلك الا القانون ، وهنا ظهر الفرق بين الأزهريين وغيرهم من المستنيرين فى فهم هذا النص الذى يثبت أن الاسلام دين الدولة . فأما الشيوخ فقد زعموا أن الحكومة مكلفة لا حماية الاسلام وحده بل حماية الدستور ، لأن هذا الأستاذ قد خالف الاسلام وهو موظف يعلم أبناء المسلمين ، ويتقاضى أجره من أموال المسلمين ، وما كان لحكومة ينص دستورها أن الاسلام دينها الرسمى أن تسمح لأحد موظفيها بمخالفة الاسلام . وعلى ذلك طلبت الرياسة الدينية العليا الى الحكومة أن تفصل هذا الموظف من منصبه وتقفه أمام القضاء وتصادر كتبه . والناس جميعا يعلمون ماذا كان من أمر الخلاف بين الجامعة والأزهر فى هذا الموضوع .

وخلاصة هذا القصص الطويل أن هذا النص الذى أثبت فى الدستور قد فرق بين المسلمين المصريين وأنشأ فى مصر قوة سياسية دينية منظمة أو كالمنظمة تؤيد الرجعية وتجر مصر جرا عنيفا الى

الوراء ، وأنشأ فى مصر خاصة وفى الشرق الاسلامى عامة هـذه المسألة التى لم تكن معروفة فى الشرق الاسلامى من قبل ، أثناء العصر الحديث وهى مسألة الخصومة الدينية السياسية بين العلم والدين . ولسنا فى حاجة الى أن نسأل أخير هذا أم شر ؟ ولسنا فى حاجة أيضا الى أن نسأل عن طبيعة هذه الخصومة وما ستنتهى اليه غدا أو بعد غد ، انما يكفى أن نلاحظ أن هـذه الخصومة حقيقـة واقعـة ، وأن فى مصر فريقا من النـاس يمضون مع الزمن ويسايرون التطـور ويريدون أن يستمتعوا وأن يستمتع غيرهم بما كفل الدستور من حرية الرأى ، وأن فى مصر فريقا آخر من الناس ينكر هذه الحرية أو لا يبيحها الا بمقدار واذن فلا بد من اتخاذ موقف منتج حاسم بازاء هـذه الخصومة بين أولئك وهؤلاء فما هذا الموقف وما عسى أن تكون نتائجه ؟ أما ان كان المصريون يريدون أن ينتفعوا بتجارب الأمم من قبلهم وأن يختصروا الطريق الى الرقى وأن يصلوا الى حياتهم السياسية والاجتماعية الصالحة فى غير عنف ولا مشقة ولا اضطراب فسبيلهم الى ذلك يسيرة واضحة يمكن أن تختصر فى كلمة واحدة وهى أن تقف السياسة من رجال العلم ورجال الدين موقف الحيدة التامة ، وأما ان كان المصريون يريدون أن يجربوا كما جربت الأمم من قبلهم وأن يسلكوا الى حياتهم السياسية والاجتمـاعية الصالحة تلك

الطريق الطويلة المعوجة الملتوية التى تنبت فيها العقاب وتأخذها الأخطار من جوانبها فسبيلهم الى ذلك واضحة يسيرة يمكن أن تختصر فى كلمة واحدة ، وهى أن تستغل السياسة هذه الخصومة بين العلم والدين فتعتز برجال العلم حينا ، وحينئذ تضطهد رجال الدين ، وتعتز برجال الدين حينا آخر ، ويومئذ تضطهد رجال العلم ، وتحتمل فى سبيل ذلك من التبعات مثل ما احتملته السياسة المسيحية حين كانت تحرق العلماء وتذيقهم ألوان العذاب لترضى رجال الدين وحين كانت تشرد القسيسين وتهدر دماءهم لترضى رجال العلم .

ولكن كل شيء فى مصر يدل على أننا لا نريد الطرق الطوال المعوجة ، ولا نحب اضاعة الوقت ، وانما نكتفى بما جربت الأمم من قبل ، ولنجنى ما ظفرت به من ثمرات الرقى ؛ دستورنا المصرى أوضح دليل على ذلك فهو دستور حديث كأحدث النظم الدستورية المعروفة وهو دستور برىء من الرجعية ومن هـذا اللون من الاعتدال البطىء ، وحسبك أنا كنا نرى فى نظامنا السياسى الانتخاب ذا الدرجتين ، فما كادت الأمة تتمتع بسلطانها حتى أسرعت الى الانتخاب ذى الدرجة الواحدة ، وحسبك أن وزارتنا مسئولة أمام برلماننا بنفس الطريقة التى تسأل بها الوزارات أمام البرلمان فى فرنسا وانجلترا وغيرهما من بلاد أوربا . كل هذا يدل على أننا معتزمون حقا أن نختصر الطريق . واذا كانت هذه خطتنا بازاء حياتنا السياسية والاجتماعية فيجب أن تكون ، وما اشك فى أنها ستكون ، خطتنا بازاء حياتنا العلمية والدينية . على أننا مضطرون الى ذلك اضطرارا فنحن لا نحيا لأنفسنا وحدنا ، وانما نحيا لأنفسنا ولغيرنا من الأمم ، ونحن متصلون رضينا أم كرهنا بأمم الغرب المتحضرة ، ونحن حريصون على أن نظفر لا أقول بعطف هـذه

الأمم بل أقول باكبارها لنا واحترامها لمنزلتنا السياسية والاجتماعية، واذن فنحن مضطرون أن نساير هـــذه الأمم ونعيش كما تعيش ونحن لا نستطيع أن نعيش فى القرن العشرين كما كانت تعيش فرنسا فى القرن الرابع والخامس عشر بحجة أننا حديثو عهد بهذه النظم الحديثة . نحن نريد أن نظفر من الاستقلال بما يقفنا من انجلترا وفرنسا موقف الند من الند فيجب أن نعيش كما تعيش انجلترا وفرنسا لتطمئن انجلترا وفرنسا الى ما نطلب من الاستقلال ونحن مضطرون الى أن نحاول التخلص من الامتيازات الأجنبية ، فيجب أن نعيش فى بلادنا كما يعيش الأجانب فى بلادهم ، وأن نستمتع من الحرية بمثل ما يستمتعون به ليطمئن الأجانب الى الغاء الامتيازات ، ثم نحن مضطرون الى أن نعيش ولن نستطيع أن نعيش الا اذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة ، فنحن محتاجون أن ننتفع بالبخار والكهرباء ونستغل الطبيعة كلها لحياتنا ومنافعنا ، والعلم وحده سبيلنا الى ذلك وهو سبيلنا الى ذلك على أن ندرسه كما يدرسه الأوربيون لا كما كان يدرسه أباؤنا منذ قرون وويل لنا يوم نعدل عن طب باستور وكلودبرنار الى طب ابن سينا وداود الانطاكى . وهذا العلم الحديث الذى لا نستطيع أن نستغنى عنه لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر الا فى جو كله حرية وتسامح فنحن بين اثنتين : اما أن نؤثر الحياة واذا فلا مندوحة عن الحرية واما أن نؤثر الموت ، واذا فلنا أن نختار الجمود .

ا

الأدب والأدباء

لم أكن فى مصر حين سأل « أحد الأزهريين » كاتبا من كتاب السياسة اليومية عن الأدب والأدباء ، وحين تفضل هذا الكاتب الأديب من « كتاب السياسة » فأحال سائله على « أساتذة الأدب فى الجامعة والمدارس العالية » ولو كنت فى مصر حين ألقى هذا السؤال وكانت هذه الاحالة لما أجبت ولا فكرت فى الاجابة ، لأنى أعرف هذا الكاتب الأديب من كتاب « السياسة » وأعرف مكره الظريف ، وأعرف أنه يحب دائما أن يلهو ويلهى الناس بالخصومة بين الكتاب ولا سيما أنصار القديم والجديد منهم . وأذكر أنه تكلف هذه الحيلة فى السنة الماضية فانخدعت له طائفة من الكتاب والأدباء ، واختصموا فى القديم والجديد ، وضحك منهم ماكرنا الظريف ، كما ضحك منهم ماكرون آخرون ليسوا أقل من صاحبنا مكرا وظرفا . ومع أنى لا أكره لماكرنا الظريف هذا أن يلهو ويضحك فقد أبيت فى السنة الماضية أن ألهيه وأضحكه . ولو كنت فى مصر حين سئل وأحال هذه السنة لتركت الهاءه واضحاكه

للأستاذ الجليل الشيخ علام سلامه ومن اليه من هؤلاء الذين يرون الجد حيث لا يكون الا الهزل والدعابة فيجدون ويتكلفون ويضحك من يريد أن يضحك ويلهو من يريد أن يلهو ، ويستريح كتاب « السياسة » من بعض الجهد لأنهم يجدون من يملأ لهم أنهارا ، ويضيقون أحيانا لأنهم يضطرون الى نشر ما يكرهون والى ارجاء ما يؤثرون نشره . ولكنني عدت الى مصر وكان أول ما استقبلته من الحياة الأدبية هذا الفصل الممتع الذى نشرته « السياسة الأسبوعية » الماضية للأستاذ الجليل الشيخ علام سلامة المدرس بمدرسة دار العلوم . ولست أدرى لم أحسست ميلا شديدا جدا الى الكتابة بعد أن فرغت من قراءة هذا الفصل . ولست أدرى أم رضيت أن ألهى ماكرنا الظريف وأضحكه هذه المرة وقد كنت أكره ذلك وآباه من قبل ...

فقد قرأت كلاما كثيرا ممتعا يشبه هذا الكلام الممتع الذى نشره الأستاذ الشيخ علام ، وأنا أنفق حياتى فى قراءة كلام كثير يشبه هذا الكلام فلا أحس ميلا الى الكتابة ولا أجد من نفسى رغبة فيها ولعل مصدر هذا الميل أن الأستاذ الشيخ علام قليل الكتابة فى الصحف ، أو أنه قليل الكتابة الممضاة فى الصحف ، فلا أقل من أن تتلقى فصله الممتع بشىء من التحية وتتمنى أن يطلق الله قلمه فيسطر لنا فى كل أسبوع فصلا يذهب فيه هذا النحو من مذاهب البحث اللذيذة الممتعة .

ولعل مصدر هذا الميل أيضا أن الأستاذ الشيخ علام قد وعد في آخر فصله الممتع بأن يتورط فيما تورط الكتاب فيه من أمر القديم والجديد وان لم تكن هناك صلة بين فصله الممتع وبين القديم والجديد . مهما يكن من شيء فأنا أريد أن أكتب في هذا الموضوع ، وأن أبدأ بتحية الأستاذ الشيخ علام وتهنئة الصحف بفصوله الأدبية القيمة التي بدأت بدءا حسنا والتي ستتصل اتصالا حسنا ان شاء الله ولو أن لي أن آخذ الأستاذ الجليل بشيء في هذا الفصل لوقفت معه وقفات قصيرة عند مسائل يسيرة يحسن أن نلم بها الماما ، لأن الأمانة العلمية تريد هذا الالمام .

فصل الأستاذ الشيخ علام يذكرني بطائفة من الكتاب والعلماء مات بعضهم منذ قرون وتوفي بعضهم منذ سنين ولا يزال بعضهم حيا يتنفس من هواء مصر ويشرب من ماء النيل . وكنت أحب للأستاذ الشيخ علام أن يسمي هؤلاء العلماء والكتاب أو يومىء اليهم ليعرف الناس مالهم وماله ، ففي ذلك وفاء لهؤلاء العلماء والكتاب ، وفي ذلك انصاف للأستاذ الشيخ علام نفسه .

فمن يدري لعل الأستاذ قد أضاف من عنده الى ما قال أولئك الكتاب والعلماء أشياء قيمة عظيمة الخطر لا ينبغي أن تضاف الى غيره ، واذا أذن لي الأستاذ أن أنصفه وأنصف أصحابه فاني أسمي منهم ثلاثة أو أربعة من غير اطالة ولا املال .

فأما أولهم فصاحب « لسان العرب » ، فقد يظهر أن الأستاذ عندما أراد أن يبين المعنى اللغوى لكلمة الأدب نقل ما جاء فى اللسان نقلا فى غير تحفظ ولا فقه ولا نقد ولا احتياط . نقل ما جاء فى « اللسان » حتى الشواهد نظما ونثرا وحتى وصف البعير بأنه أديب . وربما كان هذا النقل مفيدا . وهو على كل حال حق للأستاذ . ولكن من حق صاحب اللسان أو من حق أصحاب المعاجم أن يشار اليهم اذا نقل عنهم .. ومن حق القراء أن يعرفوا أن ما يكتبه الأستاذ قد نقل نقلا أو استنبط استنباطا .

وأما الثانى فالمرحوم اليازجى صاحب « مجلة الضياء » . فأنا أذكر أنى كنت أقرأ فى هذه المجلة أيام الصبا ، وكنت أحب هذه المباحث اللغوية التى كان يعرض لها صاحب هذه المجلة ، والتى كان يبين لنا فيها كيف تختلف الكلمات فى حرف واحد يقع أول الكلمة أو آخرها أو فى وسطها فلا يكون هذا الاختلاف دليلا على بعد ما بينها فى المعنى وانما يكون دليلا على تقاربها فى المعنى كما تقاربت فى اللفظ كوكز ولكز ونكز ووهز ولهز ونهز ، وغمز ولمز وهمز ، ولطم ولكم ولدم ولثم ، ولست أدرى لم نسى اللثم ، غرب لثمة أشبهت لطمة ! وأظن أن من حق اليازجى أن يذكر كصاحب « اللسان » ويخيل الى أن للأستاذ الشيخ علام زميلا فى دار العلوم هو الأستاذ الشيخ أحمد عمر الاسكندرى يذهب هذا

المذهب فيما يسميه فقه اللغة ويدرسه درسا مفصلا لتلاميذه ، وأحسب أنه قد أمعن فى هذا البحث امعانا قيما فكان من حقه أن يذكر أيضا .

ثم أذكر رجلا آخر كان من الحق أن يذكر ويثنى عليه وهو مصطفى صادق الرافعى ، فقد بحث مصطفى صادق الرافعى فى كتابه عن كلمة الأدب وأطوارها ومعانيها ، ومن الغريب أن الشبه شديد جدا بين بحث الأستاذ الشيخ علام وبحث الأستاذ الرافعى وكل ما بينهما أن الرافعى قرأ اللسان وفهمه ولم يأخذ منه الا ما احتاج اليه ، وأن الشيخ علام نقل اللسان نقلا فى غير نقد ولا فقه كما قلت ، وأن الرافعى رأى نصوصا تضاف الى القدماء شك فى صحتها فنفى بعضها وأعرض عن بعضها الآخر . وأن الشيخ علام أخذ هذه النصوص على علاتها فى غير نقد ولا فقه أيضا ، وأن الرافعى رأى نصا أضافه صاحب « العقد الفريد » الى ابن عباس ، وأضافه الجاحظ الى حفيد ابن عباس فدرس وآثر رواية الجاحظ عن نقد وفقه ، وأن الشيخ علام لم ينقد ولم يحاول الفقه وان ردد الرواية بين الرجلين ترديدا دون أن يشعر بالأثر العظيم الذى ينشأ عن صحة احدى الروايتين لا أقول فى صحة كلمة الأدب ، بل أقول فى تاريخ العلم نفسه ، فلو صحت رواية العقد الفريد لكان عبد الله بن عباس عالما بأصول النحو ملما باصطلاحاته قبل أن تتم نشأة النحو .

فأنت ترى أن الأستاذ الشيخ علام ظلم نفسه وظلم طائفة من الذين سبقوه وعاهدوه حين أرسل فصله ارسالا دون أن يسمى من أخذ عنهم أو سار سيرتهم فى البحث ، وقد علم الله ما أعطف على الرافعى ولا أميل الى فنه ، ولكنى أحب أن أنصف الرجل وأشهد أن فصله أمتن وأقوم وأدل على الفقه من فصل الأستاذ الشيخ علام.

* * *

وأنا بعد أخالف الرجلين جميعا فى أصل هذه الكلمة . أخالفهما لأن مذهبهما لا يقنعنى ، فأنا لا أفهم هذه الصلة التى يتكلفانها ويتكلفها من قبلهما أصحاب المعاجم بين لفظ الأدب وبين هـذا الفعل المعروف « أدب الناس اذا دعاهم الى الطعام » ولست أريد أن آخذ فى مناقشة لغوية تثقل على قراء « السياسة » وتمل هذا الماكر الذى اضطرنى واضطر الشيخ علام الى الكتابة فى هـذا الموضوع ، وانما أقول فى ايجاز انى أذهب فى أصل هذه الكلمة مذهب الأستاذ نالينو وآخذها من الدأب بتقديم الدال على الهمزة المفتوحة ومعناه العادة والشأن والحال . ولست أرى شيئا من الغرابة فى أن تكون كلمة الدأب قد استحالت الى كلمة الأدب فقدمت العين فيها على الفاء ثقلا ، ولا سيما اذا لوحظ أن هذا النقل مألوف فى الجمع فقد جمعت الكلمة على أدآب ثم وضعت عينها موضع الفاء فقيل آداب كما قيل آرام وآبار ثم خيل الى

الناس أن كلمة الآداب هذه جمع أدب لا جمع دأب فنشأ هذا المفرد واشتق منه التأديب وأصله فيما يظهر تعليم الناس ما ورث من العادات والسنن ، أى تعليمهم ما ورث من الآداب بتقديم الدال، وأكبر الظن أن كلمة الأدب وما اشتق منها محدثة . أريد أنها نشأت بعد الاسلام لا قبله . وقد لاحظ الرافعى أن هذه الكلمة على خفتها وظرفها لم تستعمل قافية فى الشعر القديم . وأراد الأستاذ الشيخ علام — فيما يظهر — أن يرد على الرافعى من طرف خفى فروى البيت الذى يضاف الى أم ثواب والذى رواه صاحب الحماسة :

أنشا يخرق أثوابى ويضربنى

أبعد شيبى يبغى عندى الأدبا !

وفى البيت رواية أخرى . « أنشأ يمزق أثوابى يؤدبنى » ، وفيه رواية أخرى : « أبعد شيبى عندى يبتغى الأدبا » وحسبى أن تختلف الروايات فى البيت الى هذا الحد لأشك فيه ولا أتخذه أساسا للغة .

ولست أدرى أوفق الرافعى أم لم يوفق حين قال ان هذه الكلمة لم ترد قافية فى الشعر القديم . ولكن هذا لا يعنينى ، فرأيى فى الشعر الذى سبق الاسلام معروف ، فهو عندى لا يثبت شيئا ولا يصلح دليلا على شىء . فاذا ثبت استعمال الكلمة فى الشعر

الذى نظم بعد الاسلام فذلك لا ينقض ما أذهب اليه من أن هذه الكلمة حديثة عرفت بعد القرآن . ومما يرجح هذا أن الأستاذ الشيخ علام نفسه يقول فى شىء من الحزن والرثاء، ان هذه الكلمة قد أدركتها حرفة الأدب فلم تذكر فى القرآن والحق أنها لم تذكر فى القرآن ، وانما ذكر فى القرآن الدأب بسكون الهمزة ومعناه العادة كالدأب بتحريكها . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل ان هذه الكلمة لا توجد فى اللغات السامية المعروفة . واذن فهى كلمة عربية خالصة للعرب دون غيرهم من الشعوب السامية . وتظن أنها من هذه الكلمات التى نشأت عندما تطورت لغة قريش واتسعت هذا الاتساع العظيم بعد ظهور الاسلام .

أنا اذن لا أوافق الرافعى ولا الشيخ علام فى اشتقاق الأدب من الأدب بمعنى الدعاء ، ولكنى لا أرى بأسا بما كتب الرافعى فى كتابه عن معانى هذه الكلمة وأطوارها وان كان قد أوجز هــذا البحث ايجازا شديدا .

وسواء أكانت كلمة الأدب مشتقة من الأدب أو من الدأب فان الخلاف بين الشيخ علام وبينى لا يقف عند اللفظ وانما يتجاوزه الى المعنى أيضا . ولست أريد أن أناقش الأستاذ فى المعانى القديمة لهذه الكلمة ولا أن أقف عند هذا الكلام الذى يضيفه الى النبى

وعمر وعلى ومعاوية فى غير نقد ولا احتياط ، وانما أقف عند جملة واحدة أري أنها تشخص الأستاذ الشيخ علام وأصحابه من أنصار القديم تشخيصا مضحكا . وهذه الجملة هى قول الأستاذ :

« وكل علم من العلوم له غاية ينتهى عندها فتكمل مباحثه الا هذا العلم وعلم التاريخ فانهما يزيدان كل يوم ولن يزالا فى نمو مطرد » وما كنت أعرف قبل اليوم أن « لكل علم غاية ينتهى عندها فتكمل مباحثه الا علم الأدب والتاريخ » حتى جاء الأستاذ فأنبأنى بهذا النبأ الغريب الذى هو فصل ما بين أنصار القديم وأنصار الجديد . فنحن نعلم أن الحركة العلميــة لن تنتهى من فرع من فروع العلوم الا يوم يفنى العقل الانسانى ويحال بينه وبين البحث والتفكير ، ولا أعرف علما من العلوم انتهى عند غايته وكملت مباحثه وقيلت فيه الكلمة الأخيرة ، وانما أعرف أن كل علم قابل لأن يتغير ويتجدد ويحذف جحودا . وقد كان أهل القرون الوسطى يعتقدون أن علم الفلك قد انتهى عند غايتــه ، وكملت مباحثه ، وقيلت فيه الكلمة الأخيرة ، ثم جاء من أنبأ ثم بأن العلم لم يبدأ وانما هى كرة منتقلة متحركة ، وأن أفلاك السماء لم يستكشف منها الا أقلها وأضألها . وكانوا يعتقدون أن فلسفة أرسطاليس هى خاتمة الفلسفة وخلاصتها ، وكلمتها الأخيرة ، فجاء ديكارت

وأنبأهم أن فلسفة أرسطاليس هى بدء الفلسفة لا آخرها ولا وسطها . وكان الناس منذ سنين يرون أنهم قد وصلوا فى الطبيعة والرياضة الى نتائج علمية بعيد أن تنقض ، فجاء هنرى بوانكاريه ، واينشتين ، وأظهرا أن نقض هذه النتائج ليس بالشىء العسير .

ولعل الأستاذ الشيخ علام يعتقد أن الأمر فى العلم كالأمر فى النحو عند صاحب الورقة الصفراء الذى كتبت له قواعد فحفظها ، وخيل اليه أنه قد حفظ النحو كله . نعم هذه الجملة تشخص الغلاة من أنصار القديم تشخيصا لذيذا ، فهم يرون أنه يكفى أن يحفظ أحدهم جملا من العلم ليكون قد ألم بالعلم كله . ولعلهم يمتازون بأنهم يؤمنون بأن كل شىء قد انتهى وأقفل بابه ، فلا يمكن أن يضاف اليه ولا أن يزاد فيه . ولقد جاء الأستاذ الشيخ علام بمعجزة حين استطاع أن يعلن أن الأدب لا ينتهى عند غاية ، ولا تكمل مباحثه كما تكمل مباحث العلوم الأخرى . وما رأى الأستاذ اذا قلت له ان النحو لم تكمل مباحثه بعد ، رغم ما كتبه سيبويه وابن خروف وابن عصفور وابن هشام وابن مالك ومن اليهم من أعلام الشرق والغرب الاسلاميين ؟ بل ما رأى الأستاذ ان قلت له ان كل علوم اللغة العربية لم تنته عند غايتها ولم تكمل مباحثها ، بل هى فى حاجة الى التجديد واستئناف الدرس ، ولا سيما

النحو والصرف وعلوم البلاغة ؟ وما رأى الأستاذ ان قلت له ان الأدب العربى كله محتاج الى التجديد واستئناف الدرس ؟

هنا يظهر الفرق بين الأستاذ وبينى . ولاظهار هذا الفرق فى الفهم والفقه والمنهج كتبت هذا الفصل الطويل . يرى الأستاذ وأصحابه أن لكل علم غاية يقف عندها ، وتكمل مباحثه الا الأدب، فهو لا ينتهى عند غاية ، وانما يزداد فى كل يوم . ونرى نحن أن ليس لعلم من العلوم غاية ينتهى عندها ، وأن لا أمل فى أن تكمل مباحث علم من العلوم ، وانما كل شىء فى العلم قابل للتغير ، واستئناف البحث عنه ، والأدب أشد أنواع العلم قبولا للتغير والتجديد .

وهنا نقف عند تعريف الأستاذ الشيخ علام للأدب وقفة قصيرة ، فهو تعريف قديم يحتاج أيضا الى التجديد . وأنا أنقل لك هذا التعريف الذى يقول عنه الأستاذ انه موجز وانه منطقى ، فسترى أنه ليس من الايجاز ولا المنطق فى شىء . قال الأستاذ :

« هو علم مأثور الكلام منثوره ومنظومه قديمه وحديثه وما يتصل بذلك من أخبار بارعة ونوادر رائعة وملح مستعذبة وطرف مستغربة مع الالمام من كل علم بأمهات مباحثه » .

ولست أحفل بهذه السجعات الرائعة البارعة ، فأنا أراها أقرب الى اللغو منها الى أى شىء آخر . ولكنى أبحث عن الايجاز فى

هذا التعريف فلا أظفر به . أما المنطق فلنبحث عنه معا . أيهما أديب: من حفظ مأثور الكلام نظما ونثرا ولقنه الطلاب أم من أنشأ هذا الكلام المأثور ؟ وأيهما الأدب : حفظ مأثور الكلام أم انشاؤه ؟ واذن فما رأى الأستاذ الشيخ علام فى نفسه ، أأديب هو لأنه يحفظ مأثور الكلام نثرا ونظما ، ويلقنه للطلاب ، ولكنه ليس شاعرا ولا ناثرا ؟ واذا لم يكن شاعرا ولا ناثرا وكان أديبا فما رأيه فى شوقى أأديب هو أم غـير أديب ؟ واذا لم يكن هو أديبا وكان الأديب هو الشاعر الناثر ليس غير ، فما رأيه فى نفسه وأمثاله من الذين يدرسون الأدب ويفرغون له ، وفى أى طبقة من طبقات العلماء يضعهم ؟ وفى أى مكانة ينزلهم ؟؟ ألا يرى الأستاذ أن تعريفه ليس منطقيا لأنه لا يمنع ولا يجمع ؟ وما معنى قوله علم بمأثور الكلام ؟ وهنا أحب أن أكون أزهريا ، أيريد العلم بمأثور الكلام فلا يكون هو أديبا لأنه ليس من الذين ينشئون هذا المأثور ؟ ونحن نستطيع أن ندور مع الأستاذ فى هذه الدائرة الى غير حد ، ولكنا نقف ونلاحظ أن تعريف الأستاذ لم يغن شيئا .

* * *

وفى الحق أنى أميل أن أقسم الأدب الى قسمين : أدب المنشئين وأدب الناقدين الدارسين ، أو قل أدب الكتاب والشعراء وأدب العلماء من المؤرخين والناقدين ، فشوقى أديب ، وهو الأديب

حقا ، لأنه ينتج الأدب انتاجا ، وهو أديب منشىء ، ولكنه ليس عالما بالأدب لا يستطيع درسه ولا تصويره ولا تعليمه ولا تأريخه. والشيخ علام أديب ولكنه ليس أديبا منشئا لأنه ليس شاعرا ولا ناثرا ولا صاحب فن وانما هو حافظ لآثار الكتاب والشعراء يرويها ويلقنها وينقدها ، يوفق فى ذلك حينا ويخطئه التوفيق حينا . والأدباء المنشئون يختلفون : فمنهم النابغة الفذ ، ومنهم المتوسط ، ومنهم المسف . والأدباء والعلماء يختلفون: فمنهم المجود ذو الرأى ، ومنهم الآلة الحاكية أو الببغاء .

وأولئك وهؤلاء تختلف مذاهبهم فى انشاء الأدب ودرسه : فمنهم المقلد ، ومنهم المجتهد المبتكر ، ومنهم من يذهب مذهب الحرية ومنهم من يؤثر مذهب الرق ، ومنهم من ينحو نحو الفلسفة ، ومنهم من ينحو نحو النقل والرواية ، وأين هذا كله من التعريف الذى جاء به الشيخ علام من ايجاز ومنطق كما يقول ! ولكنى قلت لك منذ حين ان الأستاذ الشيخ علام يمثل أنصار القديم خطأ ، فتعريفه قديم ، ألم يعتمد فيه على ابن خلدون ؟ وأسلوبه فى هذا التعريف قديم ، ألم يسجع كأهل القرن الرابع ؟ ألم يصطنع فيه ألفاظ هؤلاء الناس ؟

الأستاذ وأمثاله -- كما قلت فى الشعر الجاهلى -- كتب قديمة متحركة أو قطع من كتب وصل بعضها ببعض .

ولنفرغ من مناقشة الأستاذ ، ولنجب ماكرنا الظريف وسائله الذى اضطرنا الى هذا العناء كله . فالأدب عندنا أدبان : أدب انشاء ، هو هذا الذى ينتجه الكتاب والشعراء من أصحاب الفن . وأدب علم ودرس ، هو هذا الذى ينتجه النقاد ومؤرخو الآداب. والأدب الأول فن كله ، والأدب الثانى مزاج من الفن والعلم . وقوام الأدبين شخصية الأديب التى يجب أن تظهر فى كل ما يصدر عنه ظهورا واضحا .

وقوام الأدبين أيضا اتصال الأديب بعصره اتصالا يمكن من تمثيل ذوقه الفنى ان كان منشئا ، وحياته العقلية ان كان ناقدا أو مؤرخا . ليس أديبا منشئا هذا الذى ينظم الشعر فلا يتجاوز ما قال القدماء فى اللفظ والمعنى والأسلوب . وليس أديبا ناقدا هذا الذى يدرس الأدب فلا يتجاوز ما قال المبرد والجاحظ وأبو الفرج وصاحب العقد الفريد ، وانما الأديب المنشىء من يقرأ معاصروه أدبه فيرون فيه أنفسهم وانما الأديب الناقد من يقرأ معاصروه نقده فلا يشعرون بأن بينهم وبينه بعد ما بينهم وبين القدماء .

وهنا تسألنى : ماذا تصنع بالقدماء ؟ والجواب يسير : أصنع بالقدماء ما صنعوا هم بأنفسهم ، فأنا ألتمس عصورهم فى هذه المرآة ، ولا ألتمس منهم العصر الذى أعيش فيه . ولقد كنت أضرب منذ أيام مثلا للأدباء من أهل مصر : ما رأى أنصار القديم لو طلبنا اليهم أن يهمل ما وصل اليه العلم الحديث فى الطبيعة والطب ، وأن يعتمد فى كليتى العلوم والطب على اشارات ابن سينا

وقانونه ، أيرضـون أم يصيحون ويستغيثون ؟ لا أشك فى أن الأستاذ الشيخ علام يستغيث بالله والنـاس يوم يعرف أن طب « باستور » و « كلود برنار » قد أهمل ، وأن طبيبه سيعالجه منذ اليوم كما كان يعالج ابن سينا أو الحـارث ابن كلدة أو داود الأنطاكى .

ومع ذلك فالأمر فى الأدب كالأمر فى الطبيعة والطب ، لاينبغى أن يهمل طب ابن سينا وطبيعته لأنهما يمثلان عصرا من عصور الحياة العلمية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ الطب والطبيعة ولا يهمل أدب المبرد والجاحظ ، لأنهما يمثلان مظهرا من مظاهر الحياة الأدبية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ الأدب، ولكننا نجدد الأدب درسا وانشاء كما يجدد الطبيعيون والأطباء طبيعتهم وطبهم عملا ونظرا .

فما رأى الأستاذ الشيخ علام وأصحابه فى هذا الكلام ؟ أما أنا فواثق أنهم ينكرونه الإنكار كله ولا يطمئنون اليه . وهـم مكرهون على هذا الانكار ، فلو قد قبلوا ما ندعو اليه لما استطاعوا أن يعيشوا . ذلك أنهم غير قادرين على التجديد ، هـم يؤثرون القديم ، ومن القديم يعيشون . أما نحن فلا نؤثر القديم ، ولا نؤثر الجديد ، لأننا لسنا فى حاجة الى أحدهما لنعيش ، وانما نؤثرهما معا وندرسهما معا لأننا لانبغى الا العلم ، والا العلم خالصا من كل شىء .

٢
خطرات نفس
للدكتور منصور فهمى

كنت أتحدث منذ أشهر الى عالم كبير من علماء الفرنسيين فى مصر ، وكان يشكو الى أن أعماله الادارية تستغرق أكثر وقته وتصرفه عن الدرس ، بل عن متابعة الصحف والمجلات العلمية التى تعنيه ، لأنها تتصل بالمادة التى يدرسها . قال : فاذا كان الشتاء شغل العلماء فى مصر عن علمهم بهذه الحياة الاجتماعية العتيقة المفعمة بالزيارة والاستقبال ، والتى تلتهم آخر النهار وشطرا من الليل فى أكثر أيام الأسبوع . فالعالم فى مصر مضيع للوقت والجهد ، يصرف وجه النهار فى حياة يومية عادية هى قوام عيشه ، وينفق آخر النهار فى حياة اجتماعية خاملة هى قوام مركزه فى الدائرة الاجتماعية التى يدور فيها ، وهو ان فرط فى تلك الحياة الادارية مقصر يتعرض للوم واحتمال التبعات الثقيلة . وان قصر فى هذه الحياة الاجتماعية أنكرته بيئته ، وأعرض عنه نظراؤه ، واتهم بالكبرياء والفتور والجفوة والاهمال . وكل هذه خصال لا يحب أن يتصف بها الرجل الذى يريد أن يعيش فى مصر هادئا مطمئنا .

فاذا فرغ العالم من حياته الادارية والاجتماعية فقد انقضى النهار وتقدم الليل ، وينظر فاذا هو أمام حقوق لأهله لم يؤد منها شيئا وأمام حقوق لنفسه لم يفكر فيها ، ثم يقهره ضعف الجسم فيأوى الى مضجعه يقضى فيه بقية الليل بين أرق مضن ونوم ثقيل ثم يستقبل غده بمثل ما أنفق فيه أمسه . وعلى هذا النحو تمر الأيام والأسابيع والشهور ، والعالم منصرف عن علمه منهمك فيما لا يجد فيه لذة ولا غناء .

قال صاحبى ، وأستطيع أن أؤكد لك أنى اذا خلوت الى نفسى — وقلما أخلو اليها — وفكرت فى ذلك ضاقت بى الحياة ، وضقت بها ، واستيقنت أن حياة العلماء فى مصر تضحية مؤلمة مستمرة . فالناس فى بلادنا لا يثقلون العلماء بأعباء الزيارة والاستقبال ، ولا يشقون عليهم بالدعوة الى الشاى والعشاء ، والسيدات لا يتخذن زينة يظهرنها فى غرفات الاستقبال كلما خطر لهن أن يستقبلن أو فى الحفلات الساهرة كلما خطر لهن أن يحتفلن .

ولو أن رجال السربون والكوليج دى فرانس اختلفوا الى غرفات الاستقبال وشهدوا ما يقام فى باريس من حفلات فى الليل وأخرى فى النهار لما كانت السربون والكوليج دى فرانس عقل فرنسا المفكر وقلبها النابض الحساس .

قلت : ومع ذلك فقلما تخلو غرف الاستقبال الباريسية من عالم أو أديب يلتف حوله السيدات ، فيلقين عليه أسئلة حلوة مريحة

ويسمعن منه أجوبة عذبة مرضية ، فيها فكاهة لا تخلو من مرارة ، وفيها جد لا يخلو من سخرية . وأحسب أن الفرق بين فرنسا ومصر انما هو كثرة العلماء والأدباء فى الأولى وقلتهم فى الثانية . فعندكم من العلماء والأدباء من يفرغون للجامعة ، ويعكفون فى المعامل ودور الكتب . وعندكم من العلماء والأدباء من يشهدون المحافل ، ويزينون المجالس ، ويرضون حاجة السيدات الى المفاخرة بمن يحضر يوم استقبالهم من رجال العلم والأدب والحرب والسياسة والقضاء . أما نحن فالمستنيرون عندنا قليل فضلا عن العلماء والأدباء المتميزين . فليس عجيبا أن تشق الحياة على الظاهرين من علمائنا وأدبائنا ، وأن تتخطفهم المجالس وتتنافس غرف الاستقبال أيها يزدان بأكبر عدد ممكن منهم .

قال صاحبى : ليكن مصدر ذلك ما تحب أن يكون ، ولكن الشىء الذى لاشك فيه هو أن نتيجة ذلك ثقيلة مؤلمة . فلو قد رأيت ما يجتمع فى مكتبى من الصحف والمجلات والرسائل والكتب التى تنتظر أن أقرأها لراعك الأمر . وجاءت سيدة ففرقت بين صاحبى وبينى بابتسامة عذبة ومزاح ظريف .

كنت أفكر فى هذا الحديث منذ أيام حين كنت أستعد للسفر وحين كان صاحبى يسألنى عما أريد أن أستصحب من كتب ، فتأخذنى حيرة لا أكاد أصفها ولا أصورها .

فقد انقضى العام ولم أقرأ شيئا . هذه كتب قديمة طبعت

واستخرجت من دور الكتب فى الشرق والغرب ، ومن الحق على نفسى أن أقرأها أو أنظر فيها ، وقد كنت أتحرق شوقا اليها قبل أن تقدمها الى المطبعة وتجعلها يسيرة قريبة المنال . وهذه مقالات نشرها العلماء المستشرقون فى مجلاتهم المختلفة ، ومن الحق على أن أقرأها أو ألم بها لأعرف ما يقول الزملاء فيما أفرغ لدرسه من العلم . وهذه مقالات نشرها الأدباء المعاصرون فى مصر ، وحفظها صاحبى لأقرأها متى أتيح لى الوقت ، فمن الحق على أن أعرف ما يقول المعاصرون من المصريين والشرقيين لأعيش على بصيرة وفهم للعصر الذى أحيا فيه . وهذه كتب ألفها فلان وفلان من الأصدقاء أو من الأدباء المتميزين ، ومن الحق على لنفسى ولهؤلاء الأدباء أن أقرأ ما يكتبون لأحيا على أقل تقدير حياة الرجل المثقف الذى يلم بما يظهر حوله من فكرة أو رأى أو مذهب . كل هذا مجتمع فى مكتبى وصاحبى يسألنى عما أحب أن أحمل منه الى أوربا . ومهما تكن رغبتى فى القراءة شديدة أثناء هذه الرحلة فأنا أحب أن أقرأ ما سأجده فى أوربا من كتب وصحف . وأنا لا أذهب لأوروبا للقراءة وحدها وانما أريد أن أستريح وأن أرفه على النفس ، أطوف فى الأرض وأشهد الملاعب وأسمع للموسيقى والغناء ، فالطاقة محدودة ، والوقت محدود ، وهذه زوجى تلفتنى الى أن الحقائب محدودة أيضا ، والى أنها لم تتسع لتفعم بالكتب ، وانما

صنعت لتوضع فيها الثياب ، وما يحتاج اليه المسافر من أدوات ليس الى الاستغناء عنها من سبيل . وهى تحدد ما أستطيع حمله من كتب على أن يوضع بعضه فى هذه وبعضه فى تلك ويحمل صاحبى بعضه الآخر فيضعه فى حقيبته . وأنا أضيق بهذا كله فأكره الاقامة والسفر وأمقت الجد والكسل ، ثم أخرج عن طورى فأفرض كتبا لابد من حملها مهما يكن من شىء ، وأترك لزوجى وصاحبى أن يتخيرا بعد ذلك ما يشاءان وما تتسع له حقائبهما من هذه الكتب المكدسة .

وقد وصلت الآن الى فينا ، واستقر بى المقام فيها أنتظر مؤتمر المستشرقين ، وأنا أسأل صاحبى : ماذا حملت من كتب المعاصرين ؟ فيجيب مبتسما : لقد حملت ما تحب أن تقرأ : حملت كتاب التراجم لهيكل ، وحملت كتاب البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق ، وحملت كتاب خطرات نفس لمنصور فهمى . لقد وفقت الى حسن الاختيار ولكن ألم تحمل مصرع كليوباترة لشوقى ؟ قال صاحبى دهشا : ولم أحمله وقد قرأته فى الصيف الماضى ؟ وأنكرت من صاحبى اهمال هذا الكتاب ، فقد كنت أحب أن أعيد النظر فيه فأنكرت جوابه ، فقد كنت أحب أن أتحدث عن هذا الكتاب الى الناس ، ولكن لابد مما ليس منه بد . فلأقرأ ما بين يدى ، ولأبدأ بآخر هذه الكتب ظهورا وهو خطرات نفس . ولست حديث عهد بهذا الكتاب فقد تبعته منذ نشأته الأولى وسايرته نحو خمس عشرة

سنة حين كانت فصوله المختلفة تنشر فى الصحف شيئا فشيئا ، فأرى بعضها قبل أن يظهر ، وأرى بعضها مع غيرى من القراء .
وكنت من الذين طلبوا الى منصور أن يجمع هذه الفصول فى سفر مستقل كما نفعل جميعا حين نؤلف من فصولنا التى ننشرها الصحف أسفارا تجمع متفرقها ، وتسهل على الناس قراءتها والرجوع اليها . واذا كان صديقنا منصور حريصا على أن يجمع خطرات نفسه لأنها تمثل صباه وشبابه ، وهو يحب أن يرجع الى ماضى حياته ليحب ما فيه من ذكرى ، فان أصدقاءه يحرصون على مثل ما يحرص عليه لأنهم يحبون أن تجتمع لديهم حياة صديقهم فى صباه وشبابه وكهولته . فيقفوا عند هذه الحياة وقفات فيها حب ومودة ووفاء ، وربما كان فيها عتب وخصومة واختلاف فى الرأى فمهما يكن الكاتب مستقلا قوى النفس عظيم الشخصية ، فهو متصل ببيئته ، متصل بمعاصريه يلائمهم أحيانا فيرضون وينافرهم أحيانا أخرى فينكرون . وكذلك حياة الأديب فى كل بيئة وفى كل جيل : هو مخدوع ، يحسب أنه يكتب لنفسه لأنه يحس من العواطف والأهواء ما لا يجد بدا من اعلانه ، فهو يرفه على نفسه حين يكتب أو ينظم الشعر ، ولكنه فى حقيقة الأمر يكتب للناس ، ذلك بأنه كائن اجتماعى محتاج الى أن يعطى الناس ، ويأخذ منهم فهو لا يستطيع أن يكتفى بما يحس فى نفسه ، بل لابد له من أن يشرك الناس فيما يحس .

وقد يوفق الى ما يريد فيشاركه الناس فيما يحس ويرى ، وقد لا يوفق فلا يشاركه منهم أحد أو لا يشاركه منهم الا القليل .

ويخدع الأديب نفسه من ناحية أخرى حين يألف الاذاعة والنشر ويحس من الناس ميلا اليه ، ورغبة فى آثاره ، فيمضى فى الاذاعة والنشر معتقدا أنه يكتب للناس ، وهو فى حقيقة الأمر يكتب لنفسه لأنه أحب رضا الناس عنه ، وميلهم اليه وكلفهم به ، فهو يستزيد حين يكتب من هذا الرضا والميل والكلف . فاذا زعم الأديب أنه يكتب لنفسه وحدها فهو مخطىء . وانما الحق أنه حين يكتب يؤدى عملا اجتماعيا فيه له وللناس لذة ومتعة . ومهما يكن الحاح الملحين على أخذنا فى جمع ما تفرق من آثارنا ، ومهما يكن ترددنا فى الاستجابة لهذا الالحاح ، فان الأسباب التى دعتنا الى نشر فصولنا فى الصحف هى بنفسها التى تدعونا الى أن نؤلف من هذه الفصول أسفارا تذاع مرة أخرى فى المكتبات بعد أن أذيعت فى الصحف اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية .

وبينما كنت أقرأ هذه المقدمة الظريفة التى قدمها منصور بين يدى هذه الخطرات فى طورها الجديد لفتتنى حاشية قرأتها مرة ومرة فأنكرتها بعض الشىء ، ذلك أن صديقنا يزعم فيها أنه لم يغير من فصوله شيئا الا ما كان من اعراب لفظ أو تصحيح آخر ، وأنه قد عهد فى ذلك الى الأستاذ صادق عنبر فتولاه عنه ، وهو يشكر للأستاذ هذا الفضل شكرا جميلا .

واشتد انكاري لهذه الحاشية حين أطلعني صاحبي على فصل لصديقنا هيكل لم يكد يتجاوز فيه هذه الأسطر من كتاب منصور. فقد وقف عندها وقفة طويلة يسجل على نفسه وعلى منصور وعلى الكتاب المعاصرين ضعفا ظاهرا فى اللغة العربية وقصورا عن احسان الانتفاع بها واعترافا بهذه القصور . وأنا أعترف بأنى لم أفهم هذه الحاشية ، فلو قد كان صديقنا منصور معترفا بضعفه فى العربية مكبرا لها لعرض فصوله على الأستاذ صادق عنبر أو على غيره ليعرب ألفاظها ، ويصححها قبل أن يدفعها الى الصحف ولكنه لم يفعل ، فهل أحس هذا الضعف واعترف به حين أراد أن يجمع هذه الفصول فى كتاب ؟ وأغرب من هذا أن نقرأ الفصول مجموعة فلا نجد فرقا لغويا بينها فى هذا السفر وبينها فى الأهرام والسفور : ففيها ما فيها من صواب لغوى كبير وخطأ لغوى قليل يغفر لمنصور لأنه لم يزعم لنفسه فى يوم من الأيام تفوقا فى اللغة أو عصمة من الخطأ فيها ، وانما عرفته دائما يأسف لأنه لم يظفر من اللغة بما كان يريد .

فى هذه الفصول مجموعة أغلاط لغوية كانت فيها متفرقة ، ولم يصححها الأستاذ صادق عنبر ولم يعربها لأنه لم يكلف تصحيح اللغة ولا اعرابها ، وانما كلف تصحيح التجارب المطبعية طبقا للأصل الذى دفعه اليه المؤلف ، فأحسن الأستاذ صادق عنبر هذا

التصحيح ، والا فكيف ترك الأستاذ صادق عنبر الذراع مذكرة تذكيرا لا يحتمل الشك فى صفحة ٣٢ ؟ وكيف ترك الأستاذ صادق عنبر فى صفحة ٨٣ هذا الاستعمال العددى الذى لا يخلو من غرابة وهو « من نيف وعشر سنين » وأنا لا أذكر هذين المثلين الا لأثبت أن الأستاذ صادق عنبر لم يعرب ألفاظا ولم يصحح أخرى ولم يطلب اليه منصور ذلك ، وانما صحح تجارب المطبعة ، فأراد منصور أن يشكر له هذا الجهد ، فأسرف فى التعبير كما أسرف صديقنا هيكل فى استنباط ما استنبط من هذه الحاشية .

وبعد ، فمن الحمق أن نقف عندما يمكن أن يوجد فى كتاب منصور من انحراف قليل عن طريق العرب فى التعبير ، فليس منصور صاحب ألفاظ ولا هو يزعم لنفسه ذلك ، وانما هو صاحب معان غزيرة غنية ، وخطرات قيمة خصبة . وأنا أريد فى هذا الفصل أن أقف عند هذه الخطوات وقفة قصيرة ، لأحقق الى حد ما ، هذه الشخصية الأدبية التى تمثلها وهى شخصية صديقنا منصور .

ليست هذه الشخصية قوية الى حد الطغيان ، وليست ضعيفة الى حد الفتور ، وليست هادئة الى حد الاطمئنان ، ولكنها شخصية ثائرة جامحة ، دون أن يكون فى ثورتها أو جموحها هذا العنف الذى لا يذر شيئا أتى عليه الا دمره تدميرا . فصديقنا

منصور ثائر ولكنه لا يحطم شيئا ، جامح ولكنه لا يلبث أن يعود ويطمئن الى ما يطمئن اليه الناس . هو ثائر ماهـر يستطيع أن يخترق الزجاج وينفذ منه الى ما وراءه دون أن يحطم أو يحدث فيه صدعا . ذلك لأنه ينفذ منه ببصره لا بجسمه ، واذا شئت التعبير الدقيق فقل انه يرى التجديد ويحبه دون أن يقدم عليه ، لأنه يؤثر العافية ويفضل الانتظار . وليس فى ذلك شىء من الغرابة . فصديقنا منصور شديد التأثر بفريقين من الفلاسفة : أحدهما فلاسفة القرن الثامن عشر فى فرنسا ، والآخر فلاسفة الاجتماع فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن الذى نحن فيه . فأما الفريق الأول فأنت تعلم أنهم أعدوا الثورة الفرنسية ولم يشهدوها ، ولو شهدوها لنفروا منها نفورا شديدا . وأنت تعلم مقدار ما كان من الفرق بين الحياة العقلية والشعورية والحياة العملية لروسو وفولتير . وأما الفريق الثانى فأصحاب علم وملاحظة ، لا يعنون الا بأن يلاحظوا ويستنبطوا ويتركوا للحوادث طريقها الى انشاء التاريخ .

والغريب من أمر صديقنا منصور أنه تأثر بفيلسوفين مختلفين اختلافا شديدا : أحدهما روسو وهو صاحب الشعور الدقيق والعواطف الحادة والمزاج المضطرب والخيال الخصب ، والآخر دوركيم وهو صاحب العقل المستقيم والمنهج العلمى الدقيق وأبعد الناس عن التأثر بالعاطفة والخضوع للشعور ، فهو يدرس الجماعة كما يدرس صاحب الحيوان والنبات فى معمله .

وأثر روسو فى الخطـرات أشد وأظهـر من أثر دوركيم . فالخطرات حديث العواطف ، وهو حديث وجه الى الكثرة من الناس . فلا ينبغى أن يكون حديثا علميا يخاطب العقل الخالص ، لأن هذا العقل الخالص لا يوجد فى الشوارع ، وانما يوجد فى المكاتب المغلقة ، ولم يتحدث منصـور الى أهل المكاتب المغلقة . وانما يتحدث الى الناس الذين يغـدون ويروحون ويمشون فى الأسواق ويختلفون الى الأندية والملاهى .

ولو أنى أردت أن أحدد تأثير روسو فى خطرات منصور لأشرت الى هذا الطموح الظاهر الى مثل أعلى من الخير يلتمسه منصور كما كان يلتمسه روسو فى الطبيعة الحرة الساذجة التى لم تفسدها الحضارة ، ولم يمسخها التكلف ، والتى يجدها فى الريف ، وفى بعض الطبقات من الناس . ثم لأشرت الى العاطفة الدينية فى خطرات منصور ، فهى قوية جدا تبلغ التصوف أحيانا ، ولكنها غريبة جدا لا تكاد توفق الى تحديدها : فيها من الاسلام وفيها من الروح اليونانى ، وفيها من الروح المصرى القـديم ، وفيها من مذهب وحدة الوجود .

وأنت تستطيع أن تجد هذا كله فى الفصول التى كتبها منصور

حين رحل الى بلاد اليونان سنة ١٩٢٣ ووقف على الأكروبوليس متأثرا بوقفة رينان[1] .

على أن هناك فرقا عظيما جدا بين رينان ومنصور حين وقف فى الأكروبوليس ، فقد كان رينان أديبا وفيلسوفا ومؤرخا . أما منصور فكان أديبا وفيلسوفا ليس غير . وكم كنت أحب أن يقرأ شيئا من تاريخ اليونان قبل أن يذهب الى أثينا . فهناك فصل أسفت له أشد الأسف ، ولو استشارنى منصور لأشرت عليه بحذفه ، لا لضعف فى معناه أو لفظه فهو قوى المعنى جيد اللفظ[2]، ولكن لبعده عن الحق ولأنه أراد أن ينصف آلهة المصريين القدماء فظلم آلهة اليونان ظلما شديدا . عنوان هذا الفصل هو « وقفة بالحصن المقدس — العرق دساس » أراد منصور أن يتقرب الى الهة الحسن فى أثينا ، وما أشك فى أنه أراد الالهة أثينا نفسها ، وان كانت عنايتها بالحسن أقل مما ظن منصور بكثير . انما أفروذيت هى التى كانت تعنى بالحسن ، ومع ذلك فالصورة التى

(١) قبلته وصلاته الى الالهة اليونانية أثينا . والواقع أن العاطفة الدينيـــة فى هذه الفصول متأثرة بهذا التدين الغريب الذى كان يظهره رينان . والذى لم يكن رينان نفسه يستطيع تحديده .

(٢) وقد اختاره الأستاذان كمفير وطه الخميرى نموذجا لكتابه منصور فى سفر يعدانه باللغة الانكليزية عن الكتاب المعاصرين .

تخيلها منصور من الحسن ليرضى الالهة اليونانية بعيدة كل البعد عما يرضى الهة اليونان ، قريبة كل القرب الى ما يرضى الغانيات فى القاهرة أو باريس . فقد أراد منصور أن يتجمل بأحسن ثيابه ، ويرجل شعره ويصلح من شاربيه ، ويتعطر بأحسن الطيب ، ويضع فى صدره زهرة غضة ويرسل عليه سلسلة ذهبية ، ويضع فى أصبعه خاتما يتألق ، ثم ذهب يشترى عصا ، وبينما التاجر يعرض عليه أظرف ما عنده من العصى رأى عصا تمتاز بالمتانة والصلابة والشدة فآثرها ، لأنه ذكر المصريين وآلهتهم وأنهم كانوا يمتازون بالقوة والمتانة فانصرف اليهم وانحرف عن الالهة اليونانية معتذرا اليها لأنه من قوم كانوا يؤثرون القوة ولم ينس منصور الا شيئا واحدا ولكنه عظيم الخطر جدا ، وهو أن الهة أتينا كانت الهة الحكمة من ناحية والهة الحرب من ناحية أخرى ، وأنها خرجت من رأس أبيها كأقوى ما تكون سلاحا واستعدادا للحرب ، وأظن أن الهة الحكمة والحرب لا تنقصها المتانة والقوة. ذلك الى أن الهة الحسن نفسها وهى أفروديت كانت عند اليونان قوية شديدة البأس ، دافعت عن طروادة فأحسنت الدفاع وكادت تنتصر . فأنت ترى أن جمال هذا الفصل قد ذهب لأن كاتبه لم يكن مؤرخا حين كتبه .

ولأعد الى ما كنت فيه من وصف العاطفة الدينية فى خطرات منصور ، فقد قلت انها قوية حادة وان فيها من الديانات المختلفة

والمذاهب الفلسفية ما يذكر بريتان . ويكفى أن تنظر الى هـذا الفصل الذى يشبه فيه الجمال بالله وبالقوة الخفية لأنه يعرف بآثاره دون أن تدرك حقيقته ، لتحس من قوة هذه العاطفة وسعتها ما يثبت صحة ما أقول .

ولروسو تأثير آخر فى خطرات منصور كاد يجعله كاتبا بارعا من الوجهة اللفظية لولا أنه لم يدرس اللغة العربية درسا عميقا . ذلك أن روسو قد بث فى نفس منصور قوة غريبة تكرهه على أن يظهر ما يشعر به قويا كما يشعر به ، أى فى قوة وعنف ، فيحمله ذلك على أن يخترع صورا من التعبير ليست مألوفة ، وكانت خليقة أن تبقى وتؤرخ عصرا من عصور اللغة لو استقامت لصاحبها طرق التعبير ، ولو أنه تأنى وتمهل ولم يخرجها عجلان مسرعا . وأنت تجد صورة قوية من هذا فى الفصل الذى كتبه يودع به العام ، فأخذ يفكر ويستعرض الحوادث وينتظر آخر لحظة فى السنة ، حتى اذا أخذت الساعة تدق خيل اليه أن كل دقة من دقاتها تحصى أثرا من آثار العام ، فأعلن بهذه الصورة الغريبة الطريفة التى كادت تكون بديعة لولا أنه تعجل ولم تستقم له اللغة فأصبحت صورة مضحكة ، أو داعية الى الابتسام . وأنا أنقلها لك لترى صحة ما أقول :

« لا تن ... سخرت من الغافلين حتى صحوا من الشدة والمحن ..

تن ... أغريت الانسان بالذهب الوهاج فتهافت على ناره كما يتهافت على النور الفراش ...

تن ... جعلت فى الناس والأمم من يعملون لقتل الضعيف ولو كان بريئا ...

تن ... آويت اللص وسترت الخديعة ، وكثيرا ما أعليت الباطل على الحق ...

تن ... نفرت بين قلوب ، وأشعلت ضغائن ، وأثرت فتنا ...

تن ... صرفت الناس عن وجهك يا ألله ليعمـــدوا الى الأثرة والشهوات ...

تن ... تمخضت بآراء وقدمت عظات وعبرا ، ولكن الناس لا يفقهون ..

تن ... أحرقت أفئدة وأجريت دموعا وشربت دماء ...

تن ... كم من صحيح أضعفت ... وكم من عزيز أذللت ... وكم من عليل داويت ...

تن ... جردت أشجارا من ورقها الأصفر الجاف ... وأبدلتها منه ورقا جديدا ... وجعلت عليها زهرا نضيرا ...

تن ... صرفت العاشقين وهم فى سكرات القبـــل عن مرارة

العيش . ثم أخذتهم أخذ الجبار فبدلت هناءهم تعسا . وبدلت سعادتهم شقوة وجحيما ...

تن ... لبيك اللهم لبيك .. » :

هذه الآثار القوية المختلفة التى تركها روسو فى نفس منصور جعلت منه كاتبا ، ليس كغيره من الكتاب المعاصرين ، نزعته الفلسفية فى جوهرها غريبة بعض الشيء لأنها لا تلائم العصر الذى نحن فيه ، ولكنها فى شكلها وظاهرها مألوفة يحبها الناس لأنها سهلة تدعو فى يسر ولين وقوة الى الخير ، والى الفضائل التى أحبها الناس وألفوا حبها ، تدعو الى الرحمة والاشفاق والبر والحنان والوفاء وما الى ذلك من الفضائل الاجتماعية والفردية . ولا بد هنا من الاشارة الى ناحية أخرى لا تتم بدونها شخصية منصور وهى شرقيته ، فمنصور مؤمن بالرابطة الشرقية ايمانا قويا قديما ، لعله يعتمد على الوراثة والمزاج الفطرى أكثر مما يعتمد على الروية والتفكير العقلى . والذين يعرفون صديقنا منصورا يشكون فى أن أشد الأوتار التى تتألف منها نفسه حسا واضطرابا وترديدا لأصداء الحياة انما هو حبه للشرق وفناؤه فيه .

كان شرقيا حين كان طالبا للعلم فى باريس ، كان يألف الشرقيين أكثر مما يألف الغربيين ، كان يألف الشرقيين على اختلافهم ، كان يألف أبناء الشرق القريب من العرب والترك ، وكان يألف أبناء

الشرق الأوسط من الفرس . وكان يحس من نفسه ميلا لا يخلو من حنان الى أبناء الشرق الأوروبى من الروسيين والبولونيين . ثم عاد الى مصر ، فلما ضاقت به واضطر الى الرحيل عنها نفى نفسه الى الشرق ، فهاجر الى قسطنطينية وأقام فيها حتى ردته الحرب الى وطنه : فعاد اليه شرقيا كما تركه شرقيا . ولم يكد يشترك فى الحياة الاجتماعية الظاهرة حتى كان نشاطه قويا عنيفا يكاد يبلغ التعصب فى انشاء الرابطة الشرقية وتأييدها ، وهو الآن من أقطابها الظاهرين . وهو فى هذا كله يصدر عن العاطفة والوراثة أكثر مما يصدر عن الروية والتفكير . وقد أثرت شرقيته هذه فى خطرات نفسه كما أثرت فى حياته العملية وصلاته الاجتماعية فهو فى الخطرات شرقى ، لولا الحياء وخشية أن يوصف بالرجعية لآثر القديم الشرقى على الجديد الغربى فى غير تحفظ ولا احتياط . وأحسب أنه سينتهى على مر الزمن الى هذا الموقف فيصبح محافظا مسرفا فى المحافظة . وهو فى صلاته الاجتماعية قريب من بيئة المحافظين المعتدلين الذين لا يكرهون التجديد ، ولكنهم لا يقدمون عليه الا فى استحياء . وهو يعد بين الأزهريين أصدقاء يحبهم ويحبونه ويميل اليهم ويكلفون به . وقد لاحظ الأستاذ حبيب هذه الخصلة فى صديقنا منصور ومصطفى عبد الرزاق . فأشار فى بحثه الأخير عن المعاصرين من أدباء مصر الى أنهما يستمتعان برضى البيئات المحافظة .

أما أثر علماء الاجتماع المعاصرين فى منصور فلا يكاد يظهر فى الخطرات الا حين يتحدث منصور عن الجماعة ، فنراه يفهمها ويصفها على نحو ما كان يفهمها ويصفها دوركيم . ولكنى قلت آنفا ان صديقنا لم يتحدث فى الخطرات الى العلماء ، وانما تحدث الى الكثرة من الناس فلم يكن من اليسير أن تصور الخطرات حياته العلمية وهو بخيل الى الآن باظهار هذه الحياة العلمية فى كتاب ينشره على الناس ، وهو يزعم فى تواضع فلسفى أنه لا يحب أن يظهر هذا الكتاب حتى يتم نضجه العقلى ، كأنه يريد أن يخيل الى الناس أن عقله لم ينضج بعد ، ولكن أصدقاءه وطلابه فى الجامعة لا يطمئنون الى هذا التواضع ، ولا يسحرهم هذا الخيال، فهم يتمنون على الأستاذ أن يفرغ لهم قليلا وأن يبيح لهم شيئا من آثار عقله الذى تم نضجه منذ دهر طويل .

أثارت الخطرات فى نفسى هذه المعانى ، ولما أقرأ منها الا نصفها أو ما دون النصف . ولست أدرى متى أقف لو انتظرت بكتابة هذا الفصل أن أقرأ الكتاب كله . وأنك ترى معى أنى قد أطلت وأسرفت فى الاطالة . فلأتم وحدى قراءة هذا الكتاب القيم .

فينا (يونيو سنة ١٩٣٠) .

٣
ديكارت

شيخان من أنصار القديم قرءا كتاب « الشعر الجاهلى » الذى أذعته منذ أسابيع . وكانا قد سمعا به قبل أن يظهر ، وكانا قد أزمعا الرد عليه بعد ظهوره . فلما ظهر الكتاب قرءاه كله أو بعضه ، فاعترضهما فيه اسم ديكارت ومنهجه الفلسفى . والله يصرف الكون كما يريد ، ويجرى الأقدار فيه كما يحب ، وقد أراد الله أن يظهر اسم ديكارت وفلسفته منذ ثلاثة قرون وأن يطبع العصر الحديث كله بطابع ديكارت ، وأن يتغلغل تأثير ديكارت كاسم أرسطاليس عنوانا لطور من أطوار الحياة الانسانية العامة التى تلزم الأجيال مهما تختلف بها الأزمنة والأمكنة . أراد الله هذا كله ، وأراد معه شيئا آخر هو أن يظل ديكارت مجهولا عند طائفة من شيوخ الأدب فى مصر ، لا يعرفون اسمه ولا مذهبه ، ولا يدركون كيف يؤكل ، وان دروا كيف تؤكل الكتف ، ولا يعرفون كيف يشرب ، وان عرفوا كيف تشرب القهوة والشاى ، وكيف يشرب الخروب والعرقسوس . واذا أراد الله أمرا فلا مرد له . وليس لنا أن نذعن

للقضاء ونصبر لجهل شيوخ الأدب العربى اسم ديكارت وفلسفة ديكارت فى العصر الذى يحرص الانسان فيه على أن يعلم كلما استطاع أن يعلم .

ومن غريب الأمر أن شيوخ الأدب القديم يرون ويكتبون كما كان يرى الأدباء القدماء ويكتبون : أن الأديب « هو من يأخذ من كل شىء بطرف » كذلك قال شيخ الأدب فى دار العلوم ، وانما أريد الأستاذ الشيخ علام ، قال ذلك فى «السياسة» منذ أسبوعين، ولم يكن فى ذلك مجددا ، وانما كان يحكى القدماء ويرددهم . وقد كان المبرد حريصا كل الحرص على أن يأخذ الأديب من كل شىء بطرف ، وظهر ذلك فى كتاب الكامل ظهورا واضحا حتى انك لترى فيه بابا قال المبرد فى عنوانه : « باب نذكر فيه من كل شىء شيئا » وكتب الأدب العربى القديمة كلها قائمة على هذا النحو من تصور الأدب والأديب ، والأستاذ الشيخ علام وأصحابه يرون رأى القدماء ، ويكتبون أن الأديب يجب أن يلم من كل شىء بطرف ، ولكنهـــم لا يلمون من كل شىء بطرف ، بل يجهلون ديكارت وفلسفته وأثره البعيد فى حياة العقل والشعور كما قلنا .

وهم يجهلون ناسا آخرين غير ديكارت ، وأشياء أخرى غير فلسفة ديكارت ، ولكنهم مع ذلك يرون أنهم أدباء ، وأنهم قد ألموا من كل شىء بطرف . ومعذرتهم فى هذا قائمة : فديكارت ليس

شيئا وفلسفته ليست شيئا ، والحق عليهم أن يلموا من كل «شيء» بطرف . فأما ماليس « شيئا » فلا ينبغى أن يلموا منه بقليل ولا كثير . فاذا أردت أن تعرف لم لا يكون ديكارت شيئا من الأشياء ، ففى جواب ذلك قولان : أحدهما أن الشيء الذى ينبغى أن يلم الأدباء بطرف منه هو الشيء الرسمى الذى اشتمل عليه برنامج التعليم الرسمى فى وزارة المعارف . فعلى الأديب أن يلم بعلوم العربية وأن يلم بالرياضيات والطبيعيات . وليس فى البرنامج الرسمى لوزارة المعارف ذكر ديكارت ولا فلسفة ديكارت . واذن فهما ليسا فى الورقة الصفراء ... واذن فليس الأديب مكلفا أن يلم منهما بطرف لأنهما ليسا شيئا .

هذا أحد القولين : وهناك قول آخر وهو أن الشيء الذى ينبغى أن يلم الأديب منه بطرف هو الشرقى القديم ... أستغفر الله العظيم وأتوب اليه ، بل هو العربى القديم . مصر الفراعنة ليست شيئا ، ومصر اليونان والرومان ليست شيئا . وليس الأديب مكلفا أن يلم منها بطرف ، وأقسم ما يعرف الأستاذ الشيخ علام وأصحابه لها طعما .. أستغفر الله العظيم وأتوب اليه ، بل الشيء هو العربى القديم الذى لا يتجاوز بلاد العرب والشام والعراق فى العصور العربية الأولى والأندلس فى بعض عصورها الاسلامية . فأما مصر الفاطميين والمماليك ، فأما أفريقيا الشمالية فليست شيئا وللأدباء

أن يجهلوها ، وهم يجهلونها باذن الله . واذن فأوروبا ليست شيئا . واذن فديكارت ليس شيئا وفلسفته ليست شيئا . وجهل أوروبا وديكارت وفلسفته ليس من الأمور التى تعاب على الأديب . ورحم الله شيخا من شيوخنا فى الأزهر أراد أن يرفع فى يوم من الأيام ظلامة الى المحافظة فلم يستطع أن يكتب ما كان يريد . فاستعان بأحد « أبناء المدارس » معتذرا أو مفاخرا بأنه لا يحسن مثل هذا السخف الجديد . فلشيوخ الأدب أن يعتذروا أو أن يفاخروا بأنهم يجهلون ديكارت وفلسفته لأنهما ليسا شيئا ، ولأن من السخف أن يضيع الأديب وقته فى درسهما ، وخير من ذلك وأجدى أن ينكب الأديب على فقرة من فقرات الحريرى ، أو مقامة من مقامات البديع ، أو بيت من شعر امرىء القيس .

ولكن حظ الأديب سىء أبدا ، وانت لم تنس بعد حرفة الأدب التى قتلت ابن المعتز ، وتنفت لحية الحريرى ، وحالت بين لفظ الأدب وبين الورود فى القرآن ، فالأدب لذيذ ولكنه شؤم على أهله . ومن شؤم الأدب على الأدباء أن كتابا ظهر فى هذه الأيام يقال له « الشعر الجاهلى » ويجب على الأدباء أن ينقدوه وينقضوه ويهدموه ويهدموا كاتبه ، ويتقربوا بهذا النقد والنقض والهدم الى الله أو .. الى الشيطان . وقد أقسموا ليفعلن . وقد بدءوا يفعلون فما هى الا أن اعترضهم هذا الشجى وهو اسم ديكارت وفلسفة ديكارت .

والحق نقول ان موقفهم بازاء هذا الاسم والفلسفة كان بديعا

لا يخلو من فكاهة وظرف . فأما أحد هذين الشيخين اللذين ذكرتهما في أول هذا الفصل واللذين أهدي اليهما هذا البحث فقد كتب في تواضع يشبه الكبرياء أنه لا يعرف ديكارت ولا مذهبه ، وأنه يظن أو يرجح أن مذهب ديكارت قريب من المذاهب الاسلامية ، وأن صاحب « الشعر الجاهلي » قد حرف هذا المذهب لحاجة في نفسه أو كما قال الشيخ ، وأما الآخر فعزيز عليه أن يتكبر أو يتواضع على هذا النحو . وهو قد تعود أن يستغل الرافعي واليازجي والسكندري وابن مكرم دون أن يذكرهم أو يشير اليهم ، فلم لا يستغل في أمر ديكارت حيا أو ميتا يشبه هؤلاء ؟ وقد بحث بين الأموات فلم يجد وبحث بين الأحياء فلم يجد من كتب عن ديكارت أو أشار اليه ، وهو لا يعرف لغة ديكارت ولا لغة أجنبية أخرى . واذن فليلجأ الى أحد الذين يعرفون لغة من هذه اللغات ليقص عليه أمر ديكارت ، ويلخص له فلسفته ، حتى اذا استقام له ذلك في صفحات أو أسطر تكلم عن ديكارت وفلسفته كلام العالم المحقق ، وأثبت لصاحب « الشعر الجاهلي » أنه لا يفهم ديكارت ولا يحسن تخريج مذهبه الفلسفي . وكان قد تفوق على زميله الذي يكتب في « الأهرام » فعرف من أمر ديكارت وفلسفته ما لم يعرف هذا الشيخ المسكين .

وأنا أحد الذين يعرفون لغة أجنبية وأحد الذين يحسنون لغة ديكارت ، وأحد الذين قرءوا كتب ديكارت ، وأحد الذين قرءوا ما كتب عن ديكارت . وأنا أريد أن أهدي الى الشيخين بحثا عن

حياة ديكارت وفلسفته ليتما به أدبهما ويستعينا به على هدم كتاب الشعر الجاهلي ، واتهام صاحب هذا الكتاب اتهاما . وأنا مخلص فيما أكتب ، فأنا أحب أن يلتهمني الشيخان لأني أعرف أن حلقيهما ان استطاعا ازدرادي فستعجز معدتاهما عن هضمي .

أنا أهدى الى الشيخين بحثى عن حياة ديكارت ، ولكنى أهديه اليهما على أن يقرءاه ويفقهاه فقها « حسنا » لا يشبه فقههما «للشعر الجاهلي » ولا للسان العرب ولا لما كتب الرافعي أو أملى السكندري وأنا أهدى هذا البحث الى الذين يعرفون ديكارت من المتفرنجة والمتعلمين على اختلافهم ذلك أني أعلم من أمر ديكارت ما لا يعلم الناس في مصر ، فقد كنت أريد أن أضع فيه كتابا واضطرني ذلك الى كثير من البحث والتحقيق والى ألوان من الاستقصاء والاستقراء . ولكني لا آسف على ما لقيت من عناء ، فقد وصلت الى نتائج غريبة قيمة لو أعلنتها في فرنسا لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها الكوليج دى فرانس ولأعلن أنها المجمع العلمي الفرنسي افلاسه .. لا تضحك ولا تعجب فلست أحدثك الا بالحق الذى لاشك فيه ولا غبار عليه . ويكفى أن تعلم أني استكشفت طائفة من الكتب المخطوطة التي كتبت في النصف الثاني للقرن السابع عشر بعد أن مات ديكارت بسنين قليلة ، والتي كانت محفوظة في مكتبة الملك الخاصة ، حتى اذا كانت الثورة الفرنسية ، وتبدد ما في القصر ضاعت هذه الكتب ، ولم يستطيع أن يظفر بها الذين أنشأوا المكتبة الأهلية في باريس بعد

الثورة ، وأخذت اسرة من الأسر الشريفة تتوارث هذه الكتب ، حتى انتهت الى صديق لى فرنسى ، كان يدرس معى ، وهو يقيم فى ريف بورجونيا ، فدعانى فى بعض فصول الصيف أن أقضى عنده أياما ففعلت ، وأظهرنى على مكتبة آبائه ، فاذا فيها هذه الكتب المخطوطة ، فدرسناها معا ، ولم نستوف درسنا بعد ، وسنقدمه الى السوربون يوم نستوفيه ، وسننشر هذه الكتب على الناس ، وسنودع أصولها المخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، وسيعلم الناس يومئذ أنهم لم يؤتوا من العلم عن ديكارت الا قليلا ، وستعلم الحكومة الفرنسية يومئذ أن هذه الطبعة الرسمية التى نشرتها فى اثنى عشر مجلدا ضخما لا تشتمل الا على ما كان يكتبه ديكارت ليلهو ويعبث ويلهى الناس عن فلسفته الصحيحة .

فديكارت كأرستطاليس يذهب فى الفلسفة مذهبين مختلفين أحدهما يعلنه الى الناس ، فانهم يستطيعون أن يفهموه وأن يسيغوه ، والآخر يحتفظ به لنفسه ، وللأصفياء من تلاميذه ولا يذيعه فى الجماهير لأنه أعسر وأدسم من أن تحتمله عقولهم . وقد ظفرت الحكومة الفرنسية بالقسم الأول من آثار ديكارت ، فعهدت الى عالمين من أكبر علماء فرنسا بتحقيقه ونشره ففعلا ، ووقع هذا القسم فى اثنى عشر مجلدا ضخما كما قلت لك . ولكن من يقرأ هذه الطبعة الرسمية أو هذه المطبوعة الرسمية — على رأى وحيد — ويقارن بينها وبين ما سننشره قريبا سيرى أن ديكارت كان غريبا حقا . فقد كان يأتلف من شخصين يختلفان

فيما بينهما كل الاختلاف : أحدهما فيلسوف معتدل معقول يكتب بالفرنسية حينا ، وباللاتينية حينا آخر ، ويتناول فيما يكتب كل ما تناوله الفلاسفة من قبله ، ويذهب فيما يكتب مذهب التجديد ، فيخيل اليك أنه سيؤسس فلسفة جديدة تهدم ما أقامه أرسططاليس وتلاميذه . ذلك لأنه يتخذ لفلسفته هذه قاعدة لم يألفها الناس ، هى نسيان القديم والبراءة منه كله ، وافتراض أنه لم يكن ، حتى اذا قرأت هذه الفلسفة وتعمقت فيها لم تجد جديدا ، ولا شيئا يشبه الجديد ، وانما هو كلام ككلام الفلاسفة فيه كثير من الحدود والقضايا والأقيسة ، ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشخص واعتبروه أبا الفلسفة الحديثة ، ومؤسس العلم الجديد . ولكن الشخص الثانى هو الذى لفتنا وبهرنا ، لما فيه من غرابة كنا ننتظر كل شىء الا اياها . ذلك أن ديكارت لم يكن مسيحيا ولا فيلسوفا ولا من أصحاب التجديد ولا من أنصار هذه الحقائق الثابتة التى ألفها الناس ، وانما كان مسلما ديانا متصوفا مغرقا فى التصوف شطاحا مسرفا فى الشطح . انتهى به هذا كله الى شىء لا أستطيع أن أسميه الا « اظهار الكرامات » . ولعل أحسن طريق لشرح هذه الناحية الخفية من حياة ديكارت أن ألخص لك فى شىء من الايجاز بعض ما كتبه ديكارت عن نفسه ، وما وجدناه فى هذه الكتب (المخطوطة) التى حدثتك عنها آنفا .

ولد ديكارت فى القرن السادس عشر للمسيح ، وكانت أسرته فقيرة ، شديدة المحافظة على العادات القديمة والسنن الموروثة ، فلما شب أرسلته أسرته الى مدرسة اليسوعيين ، فتعلم فيها على نحو ما كان اليسوعيون يعلمون . أتقن اللاهوت وفلسفة العصور الوسطى واللغتين اللاتينية واليونانية . ولكنه كان ذكيا حاد الذهن مستعدا للنقد والشك ، فاضطربت نفسه اضطرابا شديدا حين أحس تناقضا بين قواعد اللاهوت وفلسفة أرستطاليس . ولكنه لم يظهر من هذا الشك شيئا لأنه كان محافظا كأبويه وأساتذته اليسوعيين . على أنه لم يكد يدع المدرسة حتى سئم الحياة التى وجهه اليها أبواه ، وهى حياة الحرب ، فانصرف الى السياحة ولقى فى هولاندا رجلا شيخا من اليهود يقال له دروكلكسيس بن كراباك .
قال ديكارت : كان لهذا الشيخ تأثير غريب فى نفسى ، لا أدرى أكان مصدره ذكاءه وفطنته أم غرابة شكله ، واختلاف أطواره العجيبة . كان قصيرا ضخما عريض ما بين الكتفين ، صغير العينين غائرهما ، ولكن عينيه كانتا شديدتى التوقد كأنهما شعلتان تضطربان ، عريض الأذنين ، دقيق الأنف ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، فأما صوته فلا أعرف أنى سمعت صوتا يشبهه . أما فى حديثه العادى فكان غليظا متهدجا أشبه شىء بالرعد ، فاذا ناقش أو ناظر فى العلم كان نحيف الصوت حاده خلاب الحديث .
ولا أعرف أنى رأيت عالما يحيط بمثل ما كان يحيط به هذا الرجل مما كتب الأولون والآخرون ، كان يهودى الجنس والمولد ، ولكنه

لم يكن يهودي الدين . وأحسب أنه قد ورث شيئا من آبائه الذين خالطوا المسلمين مخالطة شديدة في اسبانيا . كان غنيا ولكنه شديد الزهد فيما كان يملك من ثروة ، الا أنه كان يحب الاستمتاع بالطيب من لذات الحياة ، وكان يعجبني في بيته شيئان : مائدته ومكتبته . تحدثت اليه في الفلسفة وفي اللاهوت فسمع مني ، وتحدث الي ، وما هي الا أن فتنت به وشغف بي ، وأصبحت لا أستطيع عن لقائه صبرا . وقد كان في حديثه الى ماهرا لبقا يلقي الى أغرب الآراء ، وكأنه يحدثني عن الجو والمطر ، حتى اذا آنس مني اطمئنانا اليه ، وثقة بكل ما يقول ، كشف لي عن دخيلة نفسه ، فاذا هو لا يؤمن بالمسيحية ولا اليهودية ، ولا يحب الالحاد ولا الملحدين ، وانما اتخذ لنفسه دينا كنت أسمع به ، ولا أعرف من حقيقته شيئا . فلما رغبت اليه في أن يظهرني على دقائق هذا الدين أطال الصمت ، ثم قال في هدوء : ما أحب أن أظهر لك هذا الدين ، وانما أحب أن يظهر لك الدين نفسه فاتبعني ، ثم مضى بي الى مكتبته واستخرج سفرا ضخما دفعه الي ، وقال أقرأ هذا ، فاذا فرغت منه فلنتحدث ، ثم تركني ومضى . ونظرت في الكتاب فاذا هو باللاتينية واذا هو ترجمة لكتاب كتبه أحد المسلمين في القرن العاشر للمسيح يقال له الطواسين ويقال لصاحبه الحلاج[1] ولم أكد أمضي في هذا الكتاب حتى أحسست كأن بيني وبين

(١) ألفت الأستاذ لويس ماسينيون الى هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الطواسين . فأنا أعلم أنه يعني بهذا الكتاب وصاحبه وأنه قدم الى السوربون فيهما رسالة كان لها خطر عظيم

الحقائق سترا صفيقا ، وكأن هذا الستر أخذ يرتفع شيئا فشيئا ويظهر لى من ورائه عالم بديع غريب خلاب ، وأخذت نفسى تمتلىء شوقا الى هذا العالم وهياما به . انفقت فى قراءة هذا الكتاب أياما ثلاثة ، فلما فرغت منها أنكرت نفسى وأنكرت ما حولى من الأشياء ومن حولى من الناس . ولقينى دروكلكسيس فلم يظهر عجبا ولا انكارا ...

واذا كنت لا أزال حيا الى الآن ، واذا كنت قد استطعت أن أنشر فى الناس كتبا أعجبتهم ، وأكتب لنفسى كتبا قرأوها ، واذا كان صوتى قد وصل الى أقصى أطراف الأرض ، وتنافس الملوك فى عشرتى والاستئثار بى ، فأنا مدين بهـذا كله لدروكلكسيس ابن كراباك . ذلك أنى خرجت من قراءة ذلك الكتاب مفتونا ، أريد أن أعلن الى الناس ايمانى بهذا الدين الجديد ، وأناضل عنه بما أملك من قوة ، ولكنه حال بينى وبين ذلك ، وكان يقول لى فى هدوء : احذر أن يصيبك ما أصاب الحلاج فلا تنتفع بحياتك ، ولا تنفع بها الناس ، والحياة أغلى وأنفس من أن تبذل فى غير نفع ، فاكتم ما أنت فيه وأنفق حياتك فى التسبيح والتقديس ، وانفع الناس ما استطعت الى نفعهم سبيلا .

من ذلك الوقت آثرت العزلة ، وعشت هذه المعيشة التى كان الناس يعجبون من أمرها .

وفى الحق أن حياة ديكارت كانت غريبة ، فقد كان ينفقها فى موقد له لا يخرج منه الا مضطرا . وكان يقسم وقته أربعة أقسام:

أحدها لما يحتاج اليه جسمه من العناية المادية ، وكان يقتصد فى هذه العناية اقتصادا شديدا ، لا يأخذ من الأكل والشرب والنوم الا بما يمسك عليه الحياة ، والثانى ينفقه فى الكتابة والتأليف فيما ينفع الناس فى هذه الحياة العاجلة ، والثالث فى التفكير الفلسفى الاشراقى ، والرابع فى التسبيح والتقديس وتلاوة صيغة معينة أخذها عن شيخه دروكلكسيس بن كراباك . وكان لترديده اياها تأثير عظيم فى حياته العملية والعقلية . قال ديكارت :

« بينا أنا فى موقدى ذات يوم أردد ما تعودت ترديدة من صيغ التسبيح والتقديس اذ أخذتنى غفوة ، فرأيت فيما يرى النائم كأن سقف البيت قد انشق وكأن طائرا قد هوى الى الموقد ، له شكل الهدهد ، ولكنه أكبر منه حجما وأعرض منه جناحا ، وكأن هذا الطائر قد وقف قبالة الموقد محدقا فى منصتا لما أقول ، وكأنه قد أنكر صمتى ونومى فقال فى لغة لاتينية تبينتها فى وضوح وجلاء : عجبا لهذا الصامت النائم والفلك يدور ، وشيخه فى خطر ، فاستيقظت لهذا الصوت فى شىء من الانزعاج ، ونظرت فلم أر شيئا ، ولكنى أشفقت على دروكلكسيس وأردت أن أراه فسعيت اليه من فورى ولم أكد أسأل عنه حتى حدثت أنه مريض ، وأن الطبيب يخشى عليه . فأدخلت عليه ، فاذا هو فى سريره شاحب ضعيف يتردد نفسه قويا فى صدر فارغ ، فجثوت عند سريره ، وأخذت أدعوه فى رفق ، وكأنه كان نائما فانتبه وقال : ها أنتذا قد أقبلت ، لقد أرسلت أدعوك وكنت أخشى أن أفارق هذه الحياة

قبل أن أراك ، فهل جاءك رسولى ؟ قلت من رسـولك ؟ قال : بريبيش ، قلت : هذا اسم لم أسمعه من قبل ، قال : ولكنك رأيت مسماه منذ حين ، هو طائر يشبه الهدهد ويتكلم لاتينية سيسرون ، فاحفظ اسمه فسينفعك ، وادعه كلما احتجت الى شىء شاق ومره بما شئت فستجد منه طاعة واخلاصا ونصحا ، واعلم أنه موكل بزعماء المتصوفة منذ كانوا ، يخدمهم ويقضى حاجاتهم ، لا يجد فى ذلك مشقة ولا عسرا ، وهو فوق العلة ، وفوق الموت حتى تنقرض طائفة المتصوفة ويموت بعد آخرهم بقليل . خدم متصوفة الهند قبل المسيح بآلاف من السنين ، وأشرف على بناء الأهرام ، وأملى ما كتب فيها من طلاسم ، وأعان فيثاغورس ، ورافق أفلاطون فى سياحته ، ولزم الحلاج وابن الفارض ومحيى الدين بن العربى ، وسيلزمك منذ غد ، وسيعينك على سياحات لابد من أن تسيحها فى الأرض ، فأنت مضطر الى زيارة البيئات الصوفية فى بغداد والقاهرة وتلمسان وفارس ، على أنى مؤد اليك أمانة يتناقلها زعماء الصوفية ويتوارثونها وهى لهم نافعة فخذها فأنت زعيم الصوفية بعـدى .

ثم أخرج من تحت وسادته علبة صغيرة من الذهب أشبه شىء بعلب النشوق التى يصطنعها الشيوخ فى مصر وقال : احتفظ بها ولا تفتحها الا حين يطلب ذلك اليك صديقنا بريبيش ، واحفظ عنى هاتين الصيغتين تستقبل بأولاهما النهار وبآخراهما المساء ما حييت ، ثم همس بالصيغتين فى أذنى على أنهما سر لا يباح الا لزعيم . وما

هى بعد ذلك الا أن اضطرب جسمه اضطرابا شديدا ثم هدأ وقد فارقته الحياة ، واذا بريبيش قد ظهر فى الغرفة ، وقال فى هدوء : انصرف فقد مضى صاحبك ، ودع هذا الجسم لأهله فليس لك به شأن فخرجت » .

وهنا يصف ديكارت حزنه على صاحبه فى عبارات مؤثرة حقا ، ولكن صحف « السياسة » محدودة ، فلأدع حزن ديكارت ولأتم ما أنا فيه من ذكر حياته الغريبة .

أصبح ديكارت بعد انصرافه من عند صاحبه ، فاستقبل النهار بالصيغة التى أداها اليه دروكلكسيس . وما كاد يستقر فى موقده حتى جاءه بريبيش فقال : ما أنت وهذا الموقد ، وما أنت والكتابة والتفكير ؟ هلم الى سياحتك . قال ديكارت لبريبيش : ولكنى لم أعدد لهذه السياحة شيئا . فدعنى أدبر أمرى . قال بريبيش : ومتى دبر الصوفية لأنفسهم أمرا ! قم فانطلق معى ، ومضى فى الجو قريبا من الأرض يسايره فيلسوفنا حتى خرجا من المدينة ، واذا جرة ضخمة من الفخار قد نقشت عليها نقوش وتصاوير لم ير مثلها ديكارت . قال بريبيش . امتط هذه الجرة وردد صيغة المساء مرات. ففعل ، واذا الجرة تصعد به فى الجو حتى أشفق على نفسه ، ولكن الجرة ماضية ، ماضية فى الجو لا تلوى على شىء ، والطائر مواز لها يمضى فى رفق ويتلو فى اعجاب خطبة من خطب سيسرون التى ألقاها فى مجلس الشيوخ الرومانى يعنف بها كاتيلينا . وهو يحلل هذه الخطبة ويظهر للفيلسوف ما فيها من آيات البلاغة . ومضيا

على هذا النحو ساعات ، واذا بريبيش يقول لصاحبه : انظر الى الأرض ، فينظر فلا يرى الا أمواجا تلتطم وتصطخب ، فيسأل صاحبه أين نحن ؟ فيجيبه : نحن نعبر البحر الى الاسكندرية . وانتصف النهار ، أحس فيلسوفنا الجوع والظمأ ، فيسأل الطائر : من لنا بطعام وشراب ؟ قال بريبيش : والعلبة التى أهداها اليك أمس دروكلكسيس أين هي ؟ هى معى . اذن فأخرجها وافتحها . فيخرج العلبة ويفتحها فلا يروعه الا فتاة ظريفة قد خرجت منها مبتسمة محيية مصفقة ، واذا فتيان وفتيات قد أقبلوا اليها من الجو مسرعين ، واذا هى تأمرهم بلغة لا يفهمها ديكارت فيسائل صاحبه ما هذه اللغة ؟ فيجيبه : هى اللغة السريانية التى لابد لك من أن تتعلمها بعد حين . وما هى الا لحظات حتى وقفت الجرة فى الجو لا تتقدم ولا تتأخر ، ونصبت أمامها فى الجو مائدة فخمة سفت عليها الصحاف والأكواب من الذهب والفضة ، وقدمت عليها ألوان من الطعام لاعهد لديكارت بلذتها وحسن مذاقها فى الفم وموقعها فى المعدة ، فأكل الفيلسوف وشرب ، ومن حوله الطير تصدح بأنغام لذيذة حلوة ، حتى اذا تم له من ذلك ما اشتهى رفعت المائدة ، واستخفى كل شيء ، وأقبلت الفتاة السريانية مبتسمة قائلة فى ظرف وخفة : والآن فأدخلنى علبتى ، فيفتح لها الفيلسوف العلبة فتستخفى فيها ، وتستأنف الجرة سيرها فى الجو . ويأخذ بريبيش فى قراءة لخطبة التاج التى ألقاها ديموستين على الأثينيين محللا مستنبطا أسرار البلاغة اليونانية . فاذا سأله ديكارت عن حبه

اللاتينية واليونانية قال : أنا موكل بالأدب أحبه وأنفق فيه حياتى ، ولست أوثر أدبا على أدب ، وانما أحيط بالآداب كلها . وأنت تعلم أن الأديب يجب أن يلم من كل شىء بطرف ، قال ذلك أدباء العرب وسيقوله فى آخر الزمان منهم رجل يقال له الشيخ علام . واذا كنت قد تلوت عليك خطبة سيسرون وخطبة ديموستين ، فذلك لأنك تعرف اللغة اللاتينية واليونانية . وسأتلو عليك غدا قصيدة عربية وضعها رجل يقال له خلف الأحمر ، ونسبها الى شاعر يقال له النابغة الذبيانى ، وهى قصيدة جيدة لايشك سامعها فى أنها قديمة ، وقد استشهد النحاة بشىء كثير منها على قواعد النحو العربى .

قال ديكارت : وأى فائدة فى تلاوة هذه القصيدة أو غيرها من الشعر العربى ، وأنا أجهل لغة الحلاج ، ولا أستطيع أن أقرأ هذا الكتاب القيم كتاب الطواسين الا فى هذه الترجمة اللاتينية التى نشرت فى القرن الثالث عشر والتى أرجح أنها لا تخلو من خطأ .

قال بريبيش : ستعرف اللغة العربية وتتقنها اذا أمسيت ، فليس يباح لك أن تدخل بلدا دون أن تعرف لغة أهله ، واذا كنت ستزور أطراف الأرض كلها فستعرف لغات الناس جميعا ، قال ديكارت : ومن لى بذلك ؟ قال بريبيش : أنا لك به ، انظر الى هذه العلبة الصغيرة ، انها تحتوى اللغات جميعا ، فيها أقراص تشبه أقراص النعناع كل واحد منها يمثل لغة من اللغات ، فاذا أشرفنا على البلاد العربية فسأدفع اليك قرص اللغة العربية تزدرده ، فاذا أنت أقدر الناس على أن تنشد وتفهم وتنقد ما ينسب الى امرىء

القيس من شعر ، وما يضاف الى تأبط شرا من سخف ، وما يحكى عن قس بن ساعدة من وعظ وارشاد ، واذا أنت من أقدر الناس على مناقشة سيبويه والخليل والمبرد فيما تركوا من قواعد النحو والعروض والقافية والصرف ، فانتظر . وانتظر ديكارت حتى اذا مالت الشمس الى الغروب نظر فاذا من تحته مدينة يموج الناس فيها موجا . قال لصاحبه : ما هذه المدينة ؟ قال : هى مدينة طنطا يحتفل الناس فيها بمولد السيد أحمد البدوى ، فازدرد هذا القرص ففعل . وقال بريبيش كلمات هوت لها الجرة الى الأرض ، ونظر ديكارت فاذا هو واقف على قدميه . قال له بريبيش ضع هذه القلنسوة على رأسك لتستخفى عن أعين الناس ، ففعل ، ومضى مع صاحبه يزور المولد ويجلس فى كل خيمة لحظة ثم دخلا المسجد واختلطا بالشيوخ والطلاب والزائرين والذاكرين .

وعلى هذا النحو الذى يفصله ديكارت تفصيلا ممتعا قضى صاحبنا سنتين كاملتين مطوفا فى أقطار الشرق الاسلامى كله متقنا لغاتها وعاداتها ، ذاكرا مع الذاكرين ، متيما مع المتيمين ، دائرا مع الدائرين ، يلتهم النار حينا ويبتلع الزجاج آخر ، وينتطق بالحيات والأفاعى ، ويمشى على الماء ويطير فى السماء ويزور الجن فى الأرض السابعة ، والملائكة فى السماء الرابعة ، حتى اذا قضى من هذا كله وطرا وعلم من أسرار الكون ما يضمره الشرق وحده ، عاد الى هولاندا فسكت فى موقده أشهرا يكتب ويفكر ويقدس ويأتيه بريبيش كل مساء فيقضى عنده ساعة ثم ينصرف . حتى جاءه

ذات يوم فقال : أحسب أنك قد أحببت الراحة وكرهت مشقة السفر ، ومع ذلك فلا بد لك من رحلة أخرى ليست أقل مشقة ولا نفعا من رحلتك الأولى فقم على اسم الله - قال ديكارت : ألا ننتظر اشراق النهار ؟ قال : كلا ، وما أنت والنهار والليل ؟ الخبرة تنتظر وعلبتك كفيلة بحاجات السفر وعلبتى كفيلة بتعلم اللغات ، وسأتلو عليك فى هذه الرحلة آيات ألمانية وروسية لم تظهر بعد ، لأن أصحابها لم يخلقوا ولكنهم سيخلقون وسيحدثون هذه الآيات فيعجب بها الناس ، سأتلو عليك ما سيحدثه جوت وهنرى هين وتلستوى وغيرهم من أعلام الشعر والنثر والفلسفة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، ثم سأتلو عليك كتابا يكتبه بعد سنين يهودى يتأثر بمذهبك اسمه سبينوزا سيكتب فى الأخلاق والفلسفة متأثرا بهذا الكلام الفارغ الذى تكتبه للناس فى أوقات الفراغ . وسيظن أنه وصل الى الحق وسيلقى من الناس اكبارا واحتقارا . وقد استصحبت كتابا شرقيا عربيا سيظهر فى الربع الأول من القرن العشرين فى مدينة القاهرة ، وهو كلام فارغ ككلامك هذا الذى تنشره على الناس ، واسمه يدل على أنه فارغ وهو كتاب « فى أوقات الفراغ » الذى سينشره على الناس كاتب ظريف مفكر يجد حينا ويعبث أحيانا ، أديب ولكنه يحب السياسة ويرشح نفسه للانتخاب فى مجلس النواب ، واسمه محمد حسين هيكل . فأنت ترى أن رحلتنا ستكون قيمة سهلة ، ولا سيما حين أتلو عليك كتابا باللغة العربية سيضعه مصرى

في القرن التاسع عشر يقال له الشيخ محمد عبده ويترجمه في القرن العشرين عالمان يقال لأحدهما مصطفى عبد الرازق وللآخر برنار ميشيل ، وسترى أن هذا الشيخ المصرى المسلم متأثر تأثرا تاما بفلسفتك هذه الفارغة التى تفسد بها عقول الناس ، وتنشىء لهم بها علما جديدا ، سيمكنهم من استعباد البخار والكهرباء والماء والهواء والصعود الى السماء . قم بنا :

فقاما وامتطى فيلسوفنا جرته ومضيا نحو الشمال . واستمرا في رحلتهما أياما وليالى متنقلين من أدب الى أدب ، ومن فن الى فن حتى استقبلهما في صباح يوم مشرق جبل شاهق لا يصل الطرف الى قمته قال ديكارت : أين نحن ؟ قال برييش نحن في أقصى الأرض من ناحيتها الشمالية ، وهذا الجبل الذى تراه هو سورها الذى يأخذها من جميع أطرافها . قال ديكارت مصفقا : هذا جبل قاف ؟ قال برييش نعم هو جبل قاف . قال ديكارت . ليس وراءه الا الماء الذى لاحد له طولا ولا عرضا ولا عمقا ، والذى لا يحيا فيه شىء ، قال برييش أخطأت فسترى أن فى هذا الماء حياة وأحياء . قال ديكارت : ماذا تقول ؟ سنقتحم هذا الجبل ؟ قال برييش : وما جئت بك الا لنقتحمه . ان من ورائه قوما ينتظرونك لتنشر فيهم الدعوة الى الحق ، وتخرجهم من الظلمات الى النور ، دع هذه الجرة فهى لا تغنى عنك شيئا . قال ديكارت . وكيف نصعد في هذا الجبل ؟ قال برييش : أترى الى هذا السحاب المتراكم ستهبط منه سحابة تحملنا الى حيث نريد . وهبطت سحابة فاذا

شيء أشبه بغرفة من الذهب الخالص ، فيه وسائد من الحرير والاستبرق ، وأكواب ملىء بعضها من الشاى وبعضها من القهوة ، وبعضها من اللبن ، وعلبة نشوق وسجائر مختلفة منها الطويل والقصير ، والضخم والنحيف ، ولكنها كلها عطرة أرجة يتضوع منها نشر يشبه العنبر ، وفيها شيشة وجوزة ، وفيها نرد وشطرنج ودومينو وما الى ذلك من أدوات اللعب . جلس الفيلسوف ومعه بريبيش وأخذ فى تدخين الشيشة لأنه كان قد جرب ذلك فى دمشق فأحبه . أما بريبيش فأخذ يدخن الجوزة لأنه كان كثير الاختلاف الى حى من أحياء القاهرة فى باب الشعرية ، وهناك تعلم هذا النحو من التدخين . وصعدت بهما السحابة فى السماء حتى انتهت بهما الى قمة الجبل ، فهم ديكارت بالخروج فأمسكه بريبيش قائلا : لا تخرج حتى تشرب قدحا من اللبن وكأسا من اللبن وكأسا من القهوة وحتى تتنشق ، فكل هذه الأشياء من ثمرات الأرض التى تتركها ، ولا بد من أن نذوقها الآن لنضمن لأنفسنا العودة الى هذه الأرض أحياء أو أمواتا ، فان نحن لم نفعل فسيقوم جبل قاف حائلا بيننا وبين الأرض آخر الدهر . شربا ودخنا وخرجا . فاذا طائر عظيم لا يستطيع الطرف أن يحيط به قد حلق كأنه ينتظر أمرا قال ديكارت : ماذا أرى ؟ قال : هـذا الطـائر الذى تراه هو بلاجوست ، وهو السفينة التى يتخذها الأحياء فيما وراء جبل قاف لمواصلاتهم فامتط هذا الطائر فسأكون معك وسترى أنه يقطع فى لحظات ما تقطعه سفنكم فى أيام ، واستقر على جناح الطائر وما

هى الا لحظات قصار حتى هوى بهما الى جزيرة عظيمة فيها غابات كثيفة ومروج خضر ، ولكن أهلها قصار لا يتجاوز ارتفاع أحدهم شبرا ، عراض يتجاوز عرض أحدهم مترا ؛ وهم يضحكون أبدا ، ولهم فيما بينهم حديث كقصف الرعد ، وهم يدخنون ولكن بآذانهم ، يدخل الدخان فى احدى الأذنين فيخرج من الأخرى ، وليس لكل واحد منهم الا عين واحدة قد استقرت فى وسط جبهته ، ولكنها ضخمة متوقدة يتطاير منها شرر مخيف . قال ديكارت : ولكننى لا أفهم شيئا مما يقولون . قال بريبيش : هـذا قرحمهم فازدرده تفهم لغتهم . وأخذ ديكارت يسمع لغتهم ويفهمها ، فقال لصاحبه : ألست ترى معى أن هذه اللغة تشبه اللغة البلغارية شبها شديدا ، قال بريبيش : هى أصل اللغة البلغارية وهؤلاء الناس هم آباء البلغار ، كانت فيهم ثورة منذ آلاف السنين انتصرت فيها الديموقراطية على الأشراف فأجلتهم عن بلادهم ، فعبروا جبل قاف ، وهناك فى أرضكم أثر فيهم الجو ، فأخذ من عرضهم ، وزاد فى طولهم ، فاستقامت لهم هيئات وقامات كهيئات الناس وقاماتهم ، ومضوا فى طريقهم حتى انتهوا الى الأرض التى تسمى الآن بلغاريا . فاحتلوها واستعمروها . وهم الذين تحدثوا الى فقهاء المسلمين عن أرض تشرق فيها الشمس ستة أشهر فليس فيها ليل ، وتغيب عنها ستة أشهر فليس فيها نهار . وقد وضع فقهاء المسلمين أحكاما فقهية لأهل هذه البلاد تمس أوقات الصلاة بنوع خاص وقد جئت لتنشر الاسلام فى هذه الأرض ، فعلم الناس كيف يؤقتون الصلاة حين

تشرق الشمس ، وحين تغيب ، وامض بنا فان « قاطرينا » تنتظرك في قصرها . قال ديكارت : من قاطرينا ؟ قال : بريبيش هي ملكة هذه الجزيرة حدثتها عنك وأنبأتها بنبئك ، فهي تنتظرك وقد زارها من قبلك دروكلكسيس وزارها الحلاج وزارها فيثاغورس قال ديكارت : هي اذن خالدة لا تموت قال بريبيش : ان الخلود لم يكتب لأحد ، كل شيء هالك الا وجه الله ، ولكن ملوك هذه البلاد كتب لهم طول الأعمار . فأعمارهم لا تعد بالسنين ولا بالقرون وانما تعد بالآلاف . وقد ولدت قاطرينا سنة ٣٥٠٠ قبل المسيح وملوك هذه البلاد اذا بلغوا من العمر ثلاثة آلاف سنة جاءهم النبأ بالعام الذى سيموتون فيه . وقاطرينا تعلم أنها ستموت سنة ١٩١٧ حين يقرب الألمان من مدينة باريس في الحرب العالمية الكبرى التي ستكون في ذلك الزمان ، وهي مشوقة الى أن تراك لتأخذ عنك العلم والحق والدين ، وتنفق ما بقى لها من الدهر في عبادة وتقرب الى الله تاركة أمر الملك لولى العهد الذى يبلغ من العمر الآن ألفى سنة ، واسمه ساباتيه بن ارابيشا . ومضيا حتى انتهيا الى القصر ، فاذا فخامة وضخامة وترف لا عهد لفيلسوفنا بها ، واذا الملكة القصيرة العريضة تنتظره مبتسمة ، واذا هو لم يكد يجلس اليها حتى أخذت تتحدث اليه وتسأله ، واتصل مجلسهما ساعات فتنت فيها الملكة بفلسفة ديكارت فتنة لا حد لها ، ولم تأذن له بالانصراف ليستريح الا كارهة ، وأخذ فيلسوفنا يتردد على الملكة يعلمها ويفقهها في الدين والتصوف ، وهي به مشغوفة ، ولكن جو هذه

الجزيرة لا يلائم طبيعة أهل هذه الأرض فقد أخذ ديكارت يلاحظ أن قامته تقصر وتعرض ، وشكا ذلك الى بريبيش فقال له : ألم أنبئك أن أهل هذه البلاد حين هاجروا الى أرضكم ضاقوا وطالوا حتى أصبحوا أمثالكم ؟ فأهل أرضكم اذا جاءوا الى هذه البلاد قصروا وعرضوا حتى أصبحوا كغيرهم من سكانها ، ولكن السن كانت تقدمت بديكارت فلم يستطع أن يقاوم امتداد جسمه من ناحية وانكماشه من ناحية أخرى فتوفى عام ١٦٥٠ .

وقد وصف بريبيش فى كتاب أرسله الى الحكومة الفرنسية مع جثة ديكارت مقدار ما أصاب الملكة من جزع وحزن لفقد هذا الفيلسوف قبل أن تنتشر مذاهبه القيمة فى رعيتها . قال بريبيش فى آخر كتابه : والرأى عندى ألا يسافر الزعماء الذين سيخلفون ديكارت الى ما وراء جبل قاف الا فى منتصف الألف الثالث بعد المسيح ، ففى ذلك الوقت قد يتشابه ويتقارب ما دون الجبل وما وراءه بحيث يصبح طول الناس جميعا أربعة أشبار وعرضهم أربعة أمتار ، وفى ذلك اليوم قد يكون فن الطيران قد تقدم ويستطيع الناس أن يقتحموا جبل قاف ، ويعبروا بحر كاف ، ويصلوا الى جزيرة نون فى سهولة ويسر . قال بريبيش على أنى الموكل بهؤلاء الزعماء فلا أسمح لأحد منهم بزيارة قاطرينا أو ابنها ساباتيه بن ارابيشا الا حين يئين الأوان لهذه الزيارات .

* * *

هذا ما أحببت أن أهديه الى الشيخين الجليلين من حياة

ديكارت ، وأنا أعتمد على ذكائهما فى فهم فلسفته من هذا الفصل فللرجل نوعان من الفلسفة : أحدهما سخيف ضعيف هو الذى اعتمدت عليه فى كتاب الشعر الجاهلى ، لأنى لست من أهل التصوف ولا القادرين على الشطح والنطح ، والآخر قيم ممتع خصب للذين يلتمس فى كتب الحلاج ومحيى الدين بن العربى ، وفى كتاب الدياربى وشمس المعارف الكبرى وفى رسالة صغيرة توجد فى مكتبة الأستاذ الجليل أحمد زكى باشا بقسم المخطوطات يقال لها « دومة فى نومة » .

* * *

أما بعد فانى أقسم لصاحب المعالى وزير المعارف ، ولوكيلها وسكرتيرها العام ، وأعضاء مكتبها الفنى ، ولناظر دار العلوم وأساتذتها وطلابها لو سئل تلميذ أوروبى عن ديكارت فى امتحان الشهادة الثانوية وجهله كما يجهله أساتذة هـذه المدرسة العالية لحيل بينه وبين الشهادة التى يطلبها ، واذن فأنا أقترح عليهم أحد أمرين : اما أن يكلفوا أحد العلماء بالقاء محاضرات فى تاريخ الفلسفة للأساتذة وللشيوخ منهم بنوع خاص ليستطيعوا أن يكونوا أدباء وأن يلموا « من كل شىء بطرف » وأما أن يأخذوا هذا الفصل الذى أكتبه ملخصا فينشروه ويأخذوا الأساتذة والطلاب بقراءته وفهمه فليس ينبغى أن يكون فى مدارسنا العالية أستاذ أو طالب يجهل اسم ديكارت أو فلسفته أو أثره فى هـذا العصر الحديث .

